MUSTAFA AL-MUFTI

رواية
Novel

مصطفى المفتي

عرب 2011

الكاتب والروائي مصطفى المفتي

من مواليد سوريا 1986، مقيم في تركيا منذ بداية الثورة المباركة.
- مساعد مجاز بالهندسة المكانيكية
- حاصل على دبلوم تأهيلي في اللغة العربية.
- انطلقت مسيرته الأدبية منذ عام 2018 عبر مشاركات قصيرة في كتب مجمعة، حتى أصدر روايته الأولى والتي تحمل عنوان " قمر " عقب فوزه بالمركز الأول في مسابقة كاتب الشهر شباط 2021، عن دار بلومانيا المصرية.
بعدها صدرت مجموعته القصصية "تحت خط البشر" عام 2022 .
ثم أصدر مجموعته القصصية والتي تحمل عنوان
وتعتبر رواية عرب 2011 هذه هي الإصدار الثالث للكاتب.

مصطفى المفتي

مكتبة الرموز العربية

عرب 2011

اسم الرواية: عرب 2011

المؤلف: مصطفى المفتي

القياس: 14*20

عدد الصفحات: 271 صفحة

الترقيم الدولي: 978-625-8189-11-7

تنسيق الكتاب:

الطبعة الأولى

1444هـ -2023م

وكيل التّوزيع في جميع أنحاء العالم

مكتبة الرموز العربية

دار الرموز العربية للنشر والتوزيع

عنوان المكتبة : تركيا - بورصة - تشارشمبا - جانب ملحمة البركة

+90 534 918 32 93

rumuzegitim16@gmail.com

مؤسسة ومكتبة الرموز العربية)

عرب 2011

مصطفى المفتي

إلى حلا الحسيني دائماً...

الإهداء..

إلى العالقين بين شظايا الماضي وخبايا المستقبل.

إلى الواهمين بأنّ الوطن مازال بخير، وبأنّهُ قادرٌ على حمايتهم،

أهديكم شيئاً من حياتكم...

رسائلٌ لم تُرسلْ

أتدرين ماذا؟

كاذبة أنتِ كوطني الجميل، تشتاقين لأنفاسي كشوقي لكِ وأكثر، وتكابرين. ترددين اسمي كلّ ليلةٍ بغنجٍ ودلال، كنجمةٍ هائمة في السّماء، فتتورد الوجنتان حبًّا، وما زلتِ ممتنعة.

تلوّحين: وداعًا، وتهمس عينيّاكِ: عناقًا.

كم مرّة تريدين أنّ أردد لكِ أحبّكِ؟

أحتى تَهرم حروفها وتُشيخ معانيها؟

كم مرّةً أنوثتكِ تراود أجزائي، في حلمي، صحوي، وسط دوامة يومي، بتُّ أحفظ خريطة ثناياكِ، أشعر بنعومة يديك، وكلّما حاولتْ جذبكِ نحوي تهربين، وتهربين بنبضكِ السريع.

دعي اللقاء يتحدثُ، دعي الحلمَ يراودنا، دعي حبنا يتكاثر، بهجةً، أملًا، لقاءً شهيًا، كأنتِ!

يا امرأة خلف حدود الأمكنة، أريدكِ لي وحدي، فبعضُ وميضِ حبّكِ يعطر كل مساحاتي.

حبكِ يا سيدتي، نافذتي على السعادة، نبرة صوتكِ باتت اطمئنان روحي، ويكفيني أن أعلم أنّ قلبكِ ينبض في مكان ما، لأستعيد الرغبة في الحياة من جديد.

أتدرين لماذا؟

لأن حبكِ قسّمني، أبعدني، طردني من دائرة الحياة، قطّع أجنحة الليل ورماه وحيداً بجانبي، أنا وهو، لا يغفو أحدنا حتى يُغازل ذكرى أنفاسكِ.

أتذكرين حين كان الليل يغفى على نغماتِ همسنا؟

حين يأتي الصبح محملاً بعبقِ العاشقين ويرميه عند قدميكِ، حين كان الحبق والريحان يتسللان ليتنفسا عطركِ.

أتذكرين حين كنتِ وطني؟

لقد كنتِ كذلكَ يوماً، أقسم أني حفظتُ تضاريس وجهكِ، وآثار الحزن التي تخبئين منذ ألف عام، حتى سنابلَ القمحِ في سهولك أذكرها، كانت صفراء منذ صغرها.

حين سألوني عن وطني قلتُ: لي ثلاثة، ذبحوا اثنين وبقيتي أنتِ.

أما الأول، هو الذي قُتلتُ مراتٍ عند أبوابه، لم يدرك الحراس أنّي أتنفس من ترابه وحين أدركوا، قتلوه.

وأما الثاني، تلك أمي، أمي التي زرعتُ جذورها في قلبي فاقتلعوها، أتريدين سبباً لموت الياسمين أكثر من موت أمي؟

وحين علموا أنكِ الوطن الذي بقي معي ذبحوكِ، وقد أخطأوا بذلك، فكل قطرة دمٍ منك ستنجب وطناً، وكلّ مسامةٍ ستنبتُ شهيداً، حتى يرحل ذابحي الأوطان.

أما أنا... أنا الآن بلا وطنٍ، ماذا أقول لو سألوني عن وطني؟ لن يصدقوا أنه لا وطن لي وآثاركِ ما زالت على وجهي، وما زال الياسمين ينبت بين أضلعي؟ كيف أكون بلا وطنٍ وما زال الفرات يجري في عروق يدي، ومازالت سنابله تغطي وجهي، ومازال

الريحان المزروع عند باب بيتنا يذكرني، وذلك الجذع الكبير مازال يتكئ على جدار مدرستي يغازل أمي كلما خرجت لتسوّي أقحاف الورد عند باب بيتنا، كيف أكون بلا وطنٍ و وطني مازال يحسدني على غربتي وفي كل مرةٍ أراه فيها يسألني...

ألم يقرروا منح التأشيرة لأهاجر!!؟

حين كنتِ وطني كنتُ الأقوى، كنت أحبكِ بوطنية عالية، أرسم رايات مجدك فوق جبيني، أردد مع العصافير كل صباح أناشيداً تربيت عليها، أولها اسمك وآخرها اسمك وأوسطها اسمك، كنتُ أرقص طرباً حين أقول اسمك وأغني لكِ حين كنتِ وطني، لكنكِ خُنتِني! وكنتُ أحسبُ أن الوطن لا يخون...

كل أوطاني خانتني، طردني الأول وذبحني الثاني وها أنتِ عند أبواب الفجر هجرتني، كنا نعصر الوقت حين اللقاء ونمضي نرسم مستقبلاً نعانق به خيوط الشمس عند الشرفات، ومضيتي، لم تكملي ما رسمناه، لم تمسكِ يدي حين كنا نقطع الزمان، وحين التقينا خنتني!

أتذكرين...

حملتكِ بين طيات صدري، رسمتُ القدر كما أردتِ، تجرّدتُ من ذكرياتي لتبقي أنتِ، فرحلتي...

بماذا تحلمين؟ علامَ تتطلعين؟ عَمَّ تبحثين، ها أنا هنا أحملكِ بين ذراعي ألا ترين؟

أتعلمين... مُنذ أن تركتيني هناك هرب النوم من عيوني، حين عدتُ وحدي سألوني أين أنتِ وحين لم أجب، اقتلعوا جفوني.

انتظري سأقول لكِ أمراً...

في الحي كنا ثلاثة، أحدهم يقلبُ صحيفته اليومية، وينفثُ دخان غضبهِ مما يكذبون فيها ويطفئ بشفة الشاي حُرقَة صباحه، وهناك أمام النافذة كان الثاني يقلب أوراق دفتره ويراقب خطوات إحدى فتيات الحي ويضع الزهور في النافذة لعلّها تأخذهم يوماً، والثالثة كانت تغني، تنشر الحب في أرجاء المنزل ليطوف مع نفحات الصباح...

كنتُ أنا من يراقب الفتاة!.

وهناك في الساحة جلسوا ثلاثة، أحدهم ينتظر حبيبته تخرج من محاضرتها ليشرب معها الشاي، والثاني كان يبحث عن حبيبته التي أضاعها في أيام الصيف الجافة، والثالث كان يشكو كثرة المواد وصعوبتهن...

أنا من أضعتُ حبيبتي...!

أما في الظلام كُنا كثيرون، نصرخ همساً ونبكي همساً ونلعن الوقت همساً، كانوا يجلدوننا علناً، ويذبحوننا علناً، ويغتصبون الحروف في حناجرنا علناً، كنّا نزور كل صباحٍ مسلخهم، نجلس جاثيين أمام سيادتهم، ونهتف بحب الوطن.

وبقينا ثلاثة، أحدهم يتدلى من أعلى الجدار مصلوباً كعيسى، والآخر منزوياً في ركنٍ ضيقٍ يحارب الظلام الذي يحيطهُ كيوسف، والثالث يتلقى حبالهم جلداً على جسده العاري ولا عصاً عنده تلقف حبالهم.. أنا لم أكن كموسى.

ويوماً عند شجرتنا رأيت طيفكِ، حدثته وحدثني، عاتبته وعاتبني ضربته شتمته ضمته شممته نثرت فوقه الورد... فنثرني، أعادني مقطعاً ململماً ممزقاً مبتور الوطن، أنا لم أر وطناً يُبتر!

سأقول لكِ سراً..

أنا من علّمتُ النوارس كيف يقولون اسمك، وأنا من جمعت خيوط الشمس من شعرك، وأنا من أخبرت الورد عن عطرك، وأنا من دعا الله أن يجعل السماء كعينيكِ، وركضت خلف خيولٍ كانت تصهل، وصنعت من حلمي سرجاً أمتطي بهِ أيامي، وخزّنت جميع القوافي التي كنت أريد أن أقولها يوماً لكِ، وأنا من لأجلهِ غَرِقَ الفرات بدمعه، أنا من علمت الشمس كيف تشرق فوق رأسكِ، أنا من أحببتك...

لم استطع الحفاظ عليكِ حين خرجت بكِ وطناً فاغتالوكِ حين ابتسمتِ، أنا من ألبسك ثوب الزفاف مرتين، أتدرين...

من شدةِ حبي لكِ دفنتكِ، أجل، أنا من دفنتكِ، وقبلها لم أر وطناً يُدفن...

كاذبة أنتِ كوطني وقد يصدق الوطن أحياناً، أما أنت فلم تصدقي.

أنا جرحٌ اعتدى على حلم طفولتي، ذلك الحلم الذي كَبُرَ يوماً بين أحضانكِ ونسيتُ أن أكبر أنا، أتذكرين؟.

أذكر يوماً أنكِ تحدثتِ كثيراً، ساعاتٍ وأنا أسمع ما تقولين دون أي ذبولٍ لابتسامتي، دون أي برود، كانت كلماتكِ تتسابق إلى أذنيَّ، لم أحاول تفسيرها؛ كنت مشغولاً بتعظيم الله وأنا أنظر لوجهكِ، أتساءل أحياناً هل يكونُ خلقك صدفةً لن تُعاد، ما حال أشباهكِ؟ أعتقد أن الأشباه قد خُلِقوا لعامة الناس أما أنتِ فأي الناس تشبهين؟

تكلمتِ يوماً عن عُرسنا؟ عن ثوب الزفاف، عن أوراق الورد التي ستتناثر على دروبٍ ترسمها قدماكِ، عن الخطايا التي ستمنعينني من ارتكابها، تكلمتِ عن أطفالٍ سينجبهم حبنا، عن أغاني الصباح التي ستشرب معنا القهوة، عن السفر، وعدتك يوماً إننا سنسافر وقد وفيتُ أنا وأنتِ لم تفين.

تحدثي إليَّ أرجوكِ، عاتبيني، اصفعيني، قولي أنك ستعودين، أنا لا أصدق الموت، هو خائنٌ كالحرب التي لا تستوطن إلا الطيبين.

خيبةٌ أنا، أُذبحُ فوق رفوف ذكرياتٍ أكلتها حقيقة الحاضر، حتى الحقيقة كاذبة تقول إنها ستظهر يوماً ولا تظهر، قصيرة هي كالثواني التي أفرح بها.

أتعلمين...

كتبتُ يوماً أنكِ الأجمل بين نساء الأرض، وكذبت يوماً أني تجاهلت، أنا لم أتجاهل حبكِ يوماً، قلبٌ أنت قد استوطن أضلعي.

أينسى القلب؟

أحاول أحياناً أن أخون عُزلتي، وأرمي بنفسي بين أحضان الحياة، لكنها تجلدني؛ إنها لا ترحم من يحني ظهره لحظةً، كيف وأنا لا ظهر لي...

أحاول أن أرسم طيف ضحكتكِ، أن أكتب حروفاً قلتيها يوماً، أن أحتفظ بكِ بين طيات ذاكرتي، أن أدفن اللحد الذي احتواكِ، أن أدفن تراباً غطى وجهكِ، أجاهد دوماً أن ألغي تلك الدقائق التي ابتسمت بها وأنت تودعيني، أتساءل دوماً: ها قد قتلوكِ فلماذا لم تنتهِ الحرب بعد؟؟

أنا عاشقٌ يا حرب ألا تخجلين أن يكون أحد ضحاياكِ عاشق؟

ألا تخجلين وقد هتك الموت مشاعري وبين دفتي رحى رماني؟

افترس الحزن بعضي، لاكتني الأيام ولم تستسغني، لفظني الدهر وداس الزمن أحلامي، بتُّ وحيداً يا حرب، مطروداً من أزقة الذكريات، أكلت الغربة هِمّتي وجثا الهمّ فوق صدري المنهك حتى نسيت صوت النبض في قلبي.

أتدرين كيف غدوت؟

أصارع الموت أحياناً ليأخذني، وأشهق بقايا الروح حين تودّ الخروج، أسقي بدمعٍ ما تبقى من حروف دفتري فتزهر فوق صفحاته حدائق، أحملها كل يوم معي حين أذهب لرؤية بيتنا، أرميها على جانبي الطريق الذي كنتِ يوماً تزينيه، وحين العودة تكون الحدائق قد ضجت بتهاليل الشهداء.

حدائق بلدي لم تعد تكفي الشهداء، حتى إن كان الغد وذهبت ثانيةً، أرى الحدائق قد أصبحت جنات.

عامٌ على الفراق يا سارة، لم ينتهِ يومٌ إلا ورائحتك تفوح من جسدي، مازال قميصك يُعطّر خزانتي، مازال وشاحك غطائي بالليل، حتى أنفاسك ما زلتُ أحتفظ بها، أخرجها ليلاً لأعطر بها أرجاء وسادتي، فأغفو وعلى يميني طيفكِ أما يساري فذاك لقمر.

أصبحت تشبهك أكثر، وعيناها حين تنظر إليّ كأني أراك فيها، قد غزا الذهب شعرها ياسارة حتى صار كخيوط الشمس حين تشرق، وعلى خديها تتربع غمازتان إحداهما جنةٌ والأخرى ضحكتكِ.

أصبح عمرها خمس سنين منذ أسابيع قليلة، لم تعد تسألني عنكِ كثيراً فقد ملّت بكائي حين السؤال، أراها دائماً تنظر إلى صورتكِ فتبتسم هي وأبكي أنا، وحين تمسح الدمعة عن خدي تقول:

لقد وعدتَ أمي بأنك ستحافظ عليّ، لا تجعلني أبكي يا "عمو يزن"

أما أنا فقد غزا الشيب رأسي ياسارة، حين التقيت بك آخر مرة قبل عام كنتُ في التاسعة والعشرين من عمري، واليوم عمري دهرٌ وخمس سنين حرب ونصف مليون شهيد.

ألا تخجلين يا حربُ من كِبَرِ سني؟

يزن

أمينة السّيّاج (أخت الشهيد)، هكذا كان اسمها مكتوباً تحت صورة حسام والد قمر، وتحت الاسم كتبتْ "أبكيكَ دهراً لو أعادوا لي عطرك لحظة".

لم تكن عبارة "أخت الشهيد" كافية لحتمية موت حسام، لذا بحثت عن اسمه أكثر في جميع محركات البحث الإلكترونية، كانت أغلب النتائج تحوي الكلام نفسهُ، مع بعض الصور المكررة في كل مقالٍ عنهُ، كأنّ الكاتب والناشر واحد.

أو أنّ النسخ واللصق قد أوفى بالغرض كالعادة.

عدتُ لرسالة حنين التي أخبرتني بها بأن حساماً قد توفي أثناء محاولتهِ دخول إدلب، وقد أرفقت برسالتها رابطاً لإحدى المقالات وكان الأسبق بين جميع المقالات.

صوت بداخلي كان يصرخ، ابحث، اسأل، لا تتسرع...

لكن أين ومن، لا أعرف أحداً يعرف حسام لأسأله إن مات حقاً أم أنه مجرد تشابه اسماء.

شبح حسام كان يطاردني دوماً، كنت دائماً أشعر بالخوف لألّا يظهر مرة، ظهور حسام في حياتي يعني أني فقدت قمر.

كنتُ أنانياً دوماً أثناء تنشيط ذاكرة قمر، كانت كلما حاولت تذكّر والدها أغيّر مجرى الحديث لنغوص بذكرياتٍ أخرى.

ساعدني جداً صِغَرُ سنها، وعدم وجود أي أقارب حولنا، لذا باتت في الأشهر الأخيرة لا تذكر شيئاً سوى "ساره" أمها وعمو يزن "أنا".

حتى أنها في الأيام الأخيرة اعتادت على مناداتي "بابا" في الشارع أو يزن إذا كنا لوحدنا كما طلبت منها.

وساعدني أكثر التسهيلات التي طرحتها الحكومة التركية، ووجود بعض الأشخاص ممتهني الأحوال الشخصية، فهم يستخرجون لك وخلال دقائق أي ورقة حكومية أو إثبات شخصية بمجرد وجود ما يدل عليها أو أي شاهد على كلامك، أو حتى مئة ليرة زيادة على المبلغ المتفق عليه.

أما أنا فكانت قمر هي شاهدي الوحيد على أني والدها، لذا لم أضطر إلى دفع مبالغ إضافية أو إحضار شاهد بأجرٍ كما كان يحصل وغالباً يكون الشاهد صديق صانع الأوراق.

استخرجت أوراقاً ثبوتية (دفتر عائلة، بيان زواج، بيان ولادة، بيان عائلي) وجميعها تثبت أني زوج سارة وأنّ قمر هي ابنتي.

وقد سجّلت هذه الأوراق الحكومة التركية في سجلاتها وأعطتنا بدلاً عنها هوية حماية مؤقتة أو كما يُعرف (بطاقة تعريف لاجئ).

ومع كل هذا كان شبح حسام يطاردني إلى أن جاءتني رسالة حنين بأنه قد مات.

تذكرت وقتها الأوراق التي أعطتني إياها سارة قبل أن تموت بساعات

قالت إن بين تلك الأوراق يوجد عنواناً مفصلاً لأمينة أخت حسام ورقم هاتفها في مصر، إن صادفك أي شيء واضطررت للاتصال بوالد قمر أو أهلها.

كانت تلك هي الطريقة الوحيدة وهي الرصاصة الأخيرة التي ستسكن رأس ذلك الشبح لو سمعت منها بأنه مات فعلاً، ولكن كيف أتصل بها؟ من أنا ولمَ أسألُ عن حسام بعد عامين من اختفاءه؟

تلك التساؤلات كانت قد نهشت دماغي وأكلت ما تبقى من الفرحة التي زرعتها بي حنين حين أخبرتني بموت الشبح الذي سيأخذ مني قمر إن ظهر فجأة.

أخبرت حنين بما أنوي فعله، صمتت قليلاً ثم ضحكت بخبث وقالت:

-سهلة، سأتصل بها عن طريق الفيس بوك وأعرفها عن نفسي بأني صديقة سارة، ولن أكذب بشيء، أنا فعلاً صديقة سارة وأريد معرفة الحقيقة وما حل بسارة بعد موت زوجها.

لم استطع وقتها سوى الصمت والرضوخ أمام حنكة النساء وكيدهن.

كانت فكرة حنين موفقة بأن نخفي خبر وفاة سارة عن الجميع حين توفيت، عائلتها ماتت بالكامل، وعائلتي ماتت بالكامل، ولا يوجد من سيسأل عنها إن اختفت، أما إن قلنا إنها ماتت، فسيبدأ جميع أقارب زوجها الهارب بالمطالبة بابنتهم قمر، وهذا ماكنت أقبل أي شيء إلاه.

وجود حنين بألمانيا ساعدها على الحديث مع أمينة بأريحية أكثر، بحكم إنها بعيدة عن مسرح الجريمة" إدلب" الذي قُتلَ فيها حسام.

أكدت باتصالها أن حسام قد "استشهد" بعد أن قتلوه "الإرهابيون" أثناء محاولته تغطية الأحداث في الشمال السوري.

قُتل الشبحُ أخيراً، لم يعد هنالك أي شيء يهدد وجود قمر بين ذراعي.

قمر كانت الشيء الوحيد الذي بقي لدي، كانت الشيء الوحيد الذي بقيت لهُ.

قمر ذات الست سنوات، كانت رائحة وطني رائحة أمي وأبي، كانت نظرة الحب التي طالما رأيتها في عيني سارة، كانت سارة التي أحببتها طفلةً وحين كَبرت دفنتُها، قمر كانت آخر نسمات الفرات، وأول طيف ابتساماتي.

كانت كوطني، جريحةً لا ترضى الانحناء، جميلة ولكن أتعبها النزوح.

مسكينٌ أنت يا وطني، يُهاجمكَ الموت من كل جانب، وأي حقيبة باتت تتسع لأحزانك؟

فقط في وطني تنجبُ الخيمةُ خيمةً، ويُنجبُ النازح خيبةً، وتنجبُ القرارات موتاً جديداً.

وطني، ذاك المتناثر بين آلاف الخيم، بين آلاف الظهور المنحنية، وبين ملايين الصرخات.

ذلك وطني المتّهم بالتهجير والمتخم بالقرارات.

كانت خطتي الدائمة لقضاء يوم العطلة بسيطة جداً، النوم لساعة أو لساعتين زيادة عن بقية الأيام.

عادةً أكون مزدحماً في أيام الأسبوع، كانت النصف ساعة التي تفصل بين انتهاء عملي في المدرسة، وبين استلام قمر من "باص الروضة" هي بمثابة هدنة لمقاتل بين جولتين، أقضيها جالساً عند الموقف منتظراً.

لأذهب بعدها مع قمر لمكتبي في المنظمة لتدوين شكاوي الناس وطلباتهم واستماعي لبعض القصص التي يرويها عليّ ناجون من مجزرة، أو مقاتلون سابقون فقدوا بعض أجزاء أجسامهم وأحيلوا للتقاعد الدنيوي في زهوة شبابهم.

لكن هذه المرة لم تسرِ الخطة كعادتها، فقد استيقظتُ باكراً ولم استطع النوم مجدداً، لا اعلم كم كانت الساعة حينها، لكن الشمس كانت كسولةً أكثر مني ذلك اليوم، ولم تبزغ لساعة أو أكثر بعد استيقاظي.

أخذتُ هاتفي وجلست قرب النافذة مع كوب كبير من الشاي وبدأت بمشاهدة الصور القديمة.

لا أدري بماذا كنت أفكر يومها، لكنّ الشوق كان يحيطني من كل جانب. لا أعلم لمن كان شوقي تحديداً، لم اقف عند إحدى الصور لأتذكر لحظاتها، ولم أرِد يومها أن تجرفني الذكرى لفيض دمعٍ صباحيّ يظل يومي مكتئباً لأجله.

سعال قمر المستمر قد نبهني لكمية السجائر التي شربتها، وحين هممتُ لتغيير مكاني وفتح النوافذ جاءني صوتها:

- صباح الخير بابا، هل تأخرتُ اليوم أم أنتَ من استيقظت باكراً.

لم أجبها، وجهها كان شمساً أخرى قد أشرقت في صباحٍ خريفيٍ دافئ، لذا استطاعت بعد احتيالها ببعض القبلات الصباحية أن تقنعني باصطحابها لنزهة للحديقة.

نعم، لا أستطيع الكذب في هذا الأمر، فقد بات معروفاً للجميع خوفي الشديد وتجنبي للحدائق، لكن قمر كانت أقوى.

كنت أعتقد ومن يعرفنا في بداية الأمر أن رُهاب المنتزهات قد يصيب قمر بعد أن سقطت القذيفة في إحداها وقتلت أمها، لكن الرهاب أصاب قلبي أنا، بتّ أخاف من أي شيء يؤذي قمر، وباتت هي مصدر قوتي والمعالجة الروحية لي وهي في عمر الست سنوات.

ومع كل هذا ما زلتُ حذراً في كل خطوة أخطوها حين اصطحابي لقمر، رغم أننا في تركيا ورغم موت الشبح الذي كان يطاردني طيلة عام ونص، منذ أن ماتت سارة.

حتى أني أتقصد إغلاق هاتفي حين أكون معها خارج المنزل؛ أخشى أن تسهو عيني عنها للحظة.

كانت آخر كلمات سارة(قمر أمانة برقبتك).

صعبة جداً تلك الأمانة التي حملتني إياها ياسارة، لكن الله أراد ذلك ليبقى عندي شيء أعيش من أجله.

لم يكن عندي أي أصدقاء أو أقارب في أورفا، حتى زملاء العمل لم تكن تربطني بهم صلةً قوية، حين ذهبت لسوريا لإحضار سارة وقمر لم أخبرهم، كنت قد أخبرت فقط مدير المنظمة ليساعدني بعبور الحدود، قلت له أن سارة ابنة خالتي، لا يعرف تفاصيل القصة إلا خمسة، حنين وياسر، أنا وقمر، وفرح... فرح!! يا ترى أين هي، لماذا اختفت فجأة؟

حين عودتي لأورفا ومعي قمر، تفاجأ جاري التركي "صاحب المنزل" سألني عنها، قلت له إنها ابنتي وقد توفيت زوجتي أثناء عبور الحدود، وحين أحسست أنه لم يصدق كلامي أخرجت له الأوراق التي أعطتني إياها سارة.

كانت الأوراق بالعربية، وهو لا يعرف العربية، لكنه رأى الأختام عليها والصور فابتسم في وجهي ومسح على رأس قمر وتمتم ببعض الكلمات التي لم أفهم منها شيء وقتها، تقصدت أن أخبره بالذات؛ كان "مونت كارلو" الحارة.

تغيبت عن العالم لشهرين، لم أخرج إلا للتسوق وكنت أخرج باكراً كي لا يراني أحد.

بعدها تركت المنزل الذي كنت فيه واستأجرت آخراً، كان جميع السوريين في الحي الجديد يعرفون أني (يزن أبو قمر)، زوج المرحومة سارة.

أما فرح فلم أرها أبداً، حتى أنها تركت العمل في المنظمة وفي المدرسة أيضاً، لا أحد يعلم عنها شيء، أيعقل أنها عادت لسوريا، أو هاجرت؟ فكّرتُ بذلك رغم إنها ضد الاحتمالين.

أعادني لمكاني صوت قمر حين طلبت العودة للبيت، وما إن وصلنا حتى بدأتُ البحث عن فرح في face book، لم أبحث طويلاً فقد كانت صديقتي في البرنامج، لكنها منذ عام ونصف لم تنشر شيء!

تركت لها رسالة في البرنامج، وحاولت الاتصال على رقمها لكنه كان مغلقاً، لربما حاولت التواصل معي حين ضاع هاتفي القديم وقت الحادثة، حتى أني لم انتبه لضياعه لبعد وصولي لمدينة الريحانية الحدودية، كنت أحتفظ في مذكرة صغيرة أرقاماً لأشخاصٍ يهمني أمرهم، لقد وجدتُ رقم فرح بين الأرقام، لم أكن أدري أنها مهمة بالنسبة لي.

سألتُ حنينَ عنها، لم تكن تعرف شيئاً؛ لم يكونا مقربتين جداً.

لم أفهم ما الذي كان يدور بعقلي ساعتها، لكن شيئاً ما بداخلي كان يحتاج لفرح كي يفرح.

ربما الفراغ الذي يحيطنا أحياناً يقتل فينا الهدف، مقتولون نحن دون هدفٍ نعيش لأجله، مرضى بالفشل دون طموح، الدنيا مكتوبة والقدر محتوم، لكن نحنُ من يخلق الظروف، نحن من نصنع القدر الذي كُتبَ لنا، العصافير لن تأكل إن لم تطر.

كنتُ منشغلاً عن قمر أغلب وقتي، لكنها تفهمت من شرحي الدائم لها أن مهمتي في المنظمة حساسة، يتطلب لها تفرغاً تامّاً.

أحياناً أشعرُ أني لستُ مناسباً لدور الأب، أفكر دائماً بما صنعته بي الأيام، أبٌ أعزب! كنت أسمعها أحياناً ببعض الأفلام الأجنبية، ولكن بصيغة المؤنث " أم عزباء" لم أصادف يوماً أني قرأت أو سمعت مصطلح "أب أعزب".

حتى أني لم أصل لهذا المصطلح، مع أني مؤخراً بت أسمع كلمة "بابا" أكثر من كلمة - عمو يزن- من قمر، لأنها تعرف أني لست والدها، وتعرف أن والدها يُدعى حسام السّيّاج، ومؤخراً عَلِمت أنهُ مات ولم تعطي أي ردّ فعل للخبر. تذكر جدتها وعمتها

لكنها لا تحبهم أبداً ولم تأت بذكرهم طيلة العام الفائت، هي لم تأت بذكر أي أحد تعرفه مسبقاً، تبتسم في وجهي حين نتذكر سارة؛ كي لا أبكي، هي تعي جيداً إنها عندي مجرد أمانة وقد ساعدتني كثيراً بالحفاظ عليها بهدوئها وتجنبها لأي شيء يزعجني، أعتقد أني "أب مؤتمن"، هكذا بات المصطلح أنسب ولائق عليّ أكثر.

قالت لي أثناء انشغالي بكتابة جداول المساعدات ذات مساء: ماذا تعني "عرب ال48"؟

استغربت سؤالها، أين لطفلة لم تبلغ عامها السابع أن تسأل عنهم؟ سألتها مستفسراً: أين سمعت هذه الكلمة؟

ترددت قليلاً، ثم قالت: سمعتها للتو في التلفاز، اعتقد أن المذيعة قالت كلمة أخرى، مثل سراويل!

سراويل؟!! آه تقصدين اسرائيل،

- نعم، من هؤلاء ومن هم عرب ال٤٨؟
- الإسرائيليون هم أعداء العرب، يحتلون فلسطين منذ سبعون عاماً تقريباً.

قاموا بطرد الفلسطينيين من منازلهم وأراضيهم واحتلوها، وما زالوا يحاولون طرد الباقين في فلسطين.

أما "عرب ال ٤٨" فهم العرب الفلسطينيون الذين يسكنون القدس، ويسمونهم أيضاً عرب إسرائيل، لكنهم أوفياء لوطنهم ولا يقولون عن أنفسهم "إسرائيليون" بل دائماً يقولون إنهم فلسطينيون ويتطلعون دوماً لتحرير أرضهم وإرجاع المهجّرين إليها.

سكتت قليلاً، كانت تفكر بشيء ما، أو أنها تحاول صياغة الكلام في عقلها قبل أن تقوله.

نظرت إليّ وقالت: هل في سوريا إسرائيليون؟

ابتسمت وقلت: لا، بل أبشع منهم...

اتجهت بحديثي لأفلام الكرتون وما حل بالساحرات، محاولاً تغيير مجرى الحديث، لا أريد لعقلها النظيف أن يتشوش بكلمات بشعة كهذه.

نجحت خطتي وعدت لكتابتي مرةً أخرى، لكن عيني كانت تراقبها، قمر ما زالت تفكر، أعتقد أن نقاشاً سيفتح بيننا لاحقاً، عليّ أن أجد جواباً يناسب عمرها لكل سؤال قد لا يخطر في بالي، أنا الذي أكبُرها بخمسةٍ وعشرين عاماً.

بريؤون هم الأطفال، دنيتهم وردية وزاهية بألوانها، يضحكون ويلعبون بقلوبٍ صافية نقية، أما نحن فقد اسودّت في وجوهنا الدنيا بسبب سواد قلوبنا وبشاعة تفكيرنا.

جاءتني رسالة في الفيس بوك، كانت من حساب مجهول لا أعرفه، رسالة بثلاث نقاط فقط، حاولت البحث في الصفحة الشخصية علّي أعرف من هو لكن دون فائدة.

اسم الصفحة كان مكتوباً باللغة الإسبانية alma extraña

"غريبة الروح" هكذا ظهرت لي ترجمته وتبين لي أن اللغة إسبانية.

تجاهلته تماماً خاصةً أنّ الصفحة فارغة حتى من الأصدقاء، لكنه جرّ فضولي برسالة ثانية، أمسكت هاتفي وسحبت لوحة الإشعارات كما افعل عادةً قبل أن أفتح الرسائل، هذه المرة كانت كلمة باللغة العربية وإشارة استفهام.

"يزن؟" كلمة كافية لتضعني بدائرة التخبط من جديد، فضول معرفة المرسل يتضارب في عقلي مع الشخصيات التي يمكن أن تكون هي، لم أفتح الرسالة حتى عصرت آخر ذاكرتي، لا أحداً لي في إسبانيا، لابد أنه أحد خفيفي الظل الذين يظنون أنهم مضحكون بتصرفهم هذا.

حاولت التجاهل مرة أخرى لكن لم استطع هذه المرة؛ كان الفضول يقتلني، لوجود احتمال أن أكون أعرفه، وقد اضطرَ فعلاً للاختباء وراء اسم مستعار كالكثيرين في هذه الدوامة التي نعيشها.

- نعم أنا يزن، من أنت؟

- يزن المحمود؟

كتبَ اسمي الحقيقي، إذا يعرفني جيداً، لأن اسمي في الفيس بوك كان "يزن أحمد" فقط دون كنيتي.

- نعم أنا يزن المحمود، من معي؟

- فرح نجار.

كتبتُ خمس رسائل وفي كل مرة وقبل أن أضغط "إرسال" كنت أمسحها، حتى كتبتُ أخيراً رقم هاتفي وكتبت بجانبه whatsapp.

فرح

لم يغب عن بالي لحظة، منذ التقينا عن قرب لأول مرة في المهمة التي أوكلت لنا من قِبل المنظمة، كنتُ اعرفه قبلها كمعلمٍ معنا في المدرسة التابعة للمنظمة، حتى أني لم أعرفهُ جيداً، كان منزوياً وانطوائياً حد الملل، حتى وإن حصل وتكلم معه أحد المعلمين، كان يجيب بفوقية وجفاء، البعض قد رفض التعاون معه بتاتاً في المهمة، ولكن حين طرحت عليّ وافقتُ فوراً.

رغم انطوائه على نفسه وانعزاله التّام، كنت أرى فيه شاباً جيد الأخلاق ومحترماً للدرجة التي تجعلني أذهب معه لمنازل الناس دون أن أشعر بالخوف.

ولكن بعد فترة بسيطة وبعد تعرفي عليه أكثر، رأيت فيه شاباً ناضجاً واعياً، طحنته الدنيا وجعلت منه كتلةً من مشاعر بائسة ميتة، حدثني كثيراً عن ماضيه وعن الأمور التي مر بها حتى أصبح بهذه الصورة، كان يعرف أن الناس تنظر لهُ على أنه فوقي ومتعجرف، لكنه لم يكن قادراً على تهيئة نفسه من جديد، بسبب الصدمة التي تلقاها بوفاة والديهِ وهو معتقل في بداية الثورة.

عملت مع يزن قرابة نصف عام، كانت كافية ليتعلق قلبي بهِ، بماضيه وحاضره ومستقبله المجهول، ولكن ترددت كثيراً بمصارحتهِ بسبب ما هو فيه، حتى شاء القدر أن يختفي فجأة.

كنت أعرف أنه ينوي الذهاب لسوريا لإحضار سارة وقمر، كنت أعرف أنه يحبها حباً لا يعادلهُ شيئاً، في الحقيقة هو لم يختفِ، أنا من اختفى حين شعرت أن موعد سفره قد اقترب.

رأيته آخر مرة قبل سفره بيومين، حين ذهبت معه لوداع حنين وياسر في كراج مدينة أورفا، قال لي يومها أن موعد دخول سارة بعد غدٍ وأنه سيسافر.

شعرت وقتها أن كل شيء قد انتهى، وأنه بات عليّ الابتعاد.

بعد يومين حاولت التواصل معه، لكن هاتفه لم يكن ضمن نطاق الشبكة، كنت أعتقد أنه ما يزال في سوريا، مر أسبوع وآخر ولم استطع التواصل مع يزن،

ومضيتُ مع الأيام في مشاغل الدنيا وأمورها.

كانت علاقتي ب "ياسين" تزداد ودّاً، كنت بحاجة لأي شخص أعلق أحزاني على كتفيه وأمشي بجانبه خفيفة الأحزان.

أبي أصبح نزقاً ومزاجياً بشكلٍ لا يُطاق، يجلس أمام التلفاز طيلة اليوم ينتظر سقوط النظام، لم يسقط أبي حين غَرِق أخي في عرض البحر أثناء هجرته، ولم يسقط حين تركته أمي بعد خمسة وعشرين عاماً ورجعت لسوريا لأن النظام لم يؤذيها ويكفي خسارتها لابنها كما قالت، لم يسقط حين قرر أخي محمود العودة لسوريا واللحاق بأمي وهو ابن أربعة عشر عاماً، ما أسقطه هي جلطة دماغية أصابته حين سماعه خبر سقوط حلب، وعودة المدينة كاملة تحت سيطرة النظام في أيلول عام 2016 .

لم يحتمل كثيراً، توفي بعد سقوط حلب بسبعة عشر يوماً، سقطت حلب فسقط أبي، كانت كلّ حياتهِ.

قبل وفاته بشهر تقدم ياسين لخطبتي، وافقت أنا و وافق أبي، تم الأمر سريعاً لكن خطبة دون زواج.

لم أنسَ يزن، لكن لا يوجد أي وسيلة لمعرفة أخباره، خاصة بعد أن تركت أورفا وسافرت لإسطنبول حيث يقيم ياسين، تركت التدريس كما رَغب ياسين، لبست

الحجاب كما رَغِبَ ياسين، عملت معهُ في متجرٍ للألبسة الجاهزة، وسكنت مع فتاتين إحداهما خالتهُ.

في كل يومٍ كنتُ أعضّ أصابعي ندماً ألف مرة، وألعن حظي الذي ساقني إليه ألف مرة، ولكن لا خيار لدي، إما البقاء معه وتحمل نفسيته المتقلبة وعجرفته وكلامه الجارح أحياناً، أو اللحاق بأمي إلى سوريا التي حرّمتُ وطأها بعد وفاة أبي وما قالته أمي حين عِلمت بوفاتهِ ((يلحق الحبل بالدلو إلهي، ليكني عايشة بحلب بأمن وأمان، خليكِ أنت مع الإرهابيين بتركيا)).

فكّرتُ بتركه وترك السكن والعمل، لكن إلى أين؟ لا أعرف أحداً في اسطنبول أو حتى في تركيا.

لم تكن معرفتي بياسين صدفة، كنت أعرفه سابقاً أيام الجامعة. كنتُ في كلية التربية، و كان هو في كلية العلوم السياسية. أكبر مني بسنة تقريباً، لطيف بعض الشيء ولكن مخالطته للسياسة في دراسته ومتابعتها في حياتهِ جعلت منه كتلةً من جفاء.

كنتُ أتمنى كبقية البنات أن يُغازلني، أن يقول بي شعراً، أو حتى كلمة، أن يصف لون عينيَّ، أن يتغنى بشعري الطويل أو لون بشرتي.

لكنه لا يفعلها، هو ثلجٌ وأنا بداخلي بركان، لا أعلم كيف اجتمعنا، لا أعرف كيف تقودنا الأيام لأمورٍ لم نفكر بها وتبعدنا عن أشياءٍ نركض وراءها.

يحكمنا القدر أحياناً، يضعنا بأماكن ليست لنا، يعجننا ويشكلنا من جديد، أُناس لا نعرفهم يلبسون أجسادنا، يتكلمون بأصواتنا ونحن منصاعون، لا نملك إلا الخضوع للقدر والانجرار وراء قراراته.

ربما يصنع بعضنا ظروفاً على مزاجه، لكنه بالمقابل يتخلى عن مبادئه.

كنتُ في بداية الثورة مؤيدة للنظام؛ لم أكن أفهم السياسة جداً، لم أكن أعرف ما يعني أن تكون مؤيداً أو معارضاً، لم يدم تأييدي كثيراً، حملتهم الشرسة حين اجتاحوا المدينة الجامعية بحلب كافية لكل عاقل أن يركل النظام بأقذر الأحذية لو لم يجد رصاصاً، أن ترى إجراماً وتؤيده يعني أن تكفر برحمة الله، رحمة الله عمّت كل شيء إلا الرافضين لها، أولئك الذين لا يَرحمون، فكيف يُرحمون، حين تؤيدهم ستكون مع الرافضين.

منذ ذلك الوقت وأنا أحاول تجنب أي شيء، أحاول الابتعاد عن الطرفين، خشيت أن أظلم أو يُظلم بي، ولكن حتى الرماديون ظالمون، يظلمون أنفسهم أولاً ويظلمون المظلوم ثانياً وينصرون الظالم بسكوتهم، حاولت الهروب من كل شيء بعد إنهائي للجامعة بداية عام ٢٠١٣، فلم تكن أمامي سوى تركيا.

اعتقل أبي بداية ربيع ٢٠١٣، لم يدم اعتقاله إلا شهراً تقريباً، لكننا لم نعرفه حين جاءنا، يحمل وجههُ الذي أعتقل بهِ لكن دون قلب، أقسَم أنه سيحمل السلاح ويقتل أي عسكري أو شرطي يراه أمامه، كان قسمه بمثابة الكرت الرابح، للضغط على أمي أن توافق قرار الهجرة وقد حصل ذلك بداية صيف ٢٠١٣.

لم يكن ياسين بالنسبة لي إلا شاباً في الجامعة، لم تكن علاقتي به تتعدى الجامعة، تخرج قبلي بفصل ثم اختفى، ثم عاد فجأة منتصف عام ٢٠١٦.

كان شامياً حين يجلس مع الدمشقيين، وساحلياً حين يجلس مع أهل الساحل، وأحيانا أسمعه يتكلم بلهجة أهل دير الزور حين يقف مع أحدهم، كان سياسياً حتى في معاملاته الشخصية، لم يكن واضحاً تماماً، تغلب عليه " الأنا " الدمشقية، الدمشقيون غالباً ينظرون إلى بقية المدن بالدونية، وقد اكتسب من تربيته بينهم هذه الصفة.

سألته في أول لقاءٍ تقريباً بيني وبينهُ في الجامعة: من أين أنت؟ فقال:

أنا من جبلة، وأمي حلبية، ولدتُ في الشام وعشت طفولتي في درعا، ثم انتقلنا لدير الزور حين اصبح أبي برتبة مقدم، ثم عدنا إلى دمشق بعد ثلاثة أعوام حين تقاعد أبي وبقينا فيها.

حين رأيته في تركيا صدفة في سوق الهاشمية في أورفا، أوقفني وجهه فجأة، كان هو الآخر ينظر إليّ بابتسامة، وقفتُ حين قال اسمي وابتسمَ. لم أكن أتوقع أن أراه في تركيا، ابن ضابط في الشرطة ودمشقي من أصلٍ ساحلي! ماذا يفعل في تركيا؟ قال لي أنهُ جاء حديثاً، ويسكن مع صديقهِ في حيٍّ قريب، ويفكر بالسفر لإسطنبول والعمل هناك.

تبادلنا أرقام الهاتف ومضى كلٌ منا لشأنه، لم أكن أتوقع أنه سيتحدث معي.

كنت بحاجة لكتف، أو ربما لشخص أشاركه أحزاني، أشاركه فشلي بمنع أخي من الغرق، فشلي بمنع أمي من السفر، فشلي بالحفاظ على أخي الثاني من الذهاب لسوريا، فشلي بأن أكون كما أردتُ يوماً.

حين رأيت يزن لم استطع أن أجعل منه هذا الشخص، كان كتفاً مكسوراً، كان كله كسوراً، لم يكون سوى كسرٌ يمشي على قدميه.

حاولت التقرب منه كثيراً لكني فشلت، لم استطع حمله ولم استطع تحميلهُ همي، كان قريباً مني وكان أبعد ما يكون، حتى جاء ياسين.

عرض عليّ المجيء لإسطنبول بعد وفاة أبي، وافقت فوراً، لم يكن عندي أي خيارات أخرى.

كنت اذكره بضحكته الدائمة، بروحه الكريمة المرحة، بمحاضراتهِ أحياناً عن فلسطين وقضيتها، عن حزب الله ومعاداته لإسرائيل، كان يتحدث عنهم بكل فخر، كان يؤكد لنا دائماً أن النظام ليس ممانعاً بالاسم فقط، وأنه مع حزب الله شوكة عالقة بحلق

الاحتلال، وسينتصرون يوماً، لم أكن أعرف يومها إننا بنظر حزب الله والنظام "إسرائيليون" وقد حوّلوا مجرى ممانعتهم علينا.

لكنه الآن لا يذكر شيئاً عنهم رغم عداوته المخفية للثورة، أتقصد أحيانا أن أمدح الثوار أمامه، حين يبدأ بنقاشاته السياسية فقط لتغيير الموضوع.

منذ ثلاثة شهور بدأت علاقتنا تزداد تعقيداً، حين قرر صديقه المقرب "وائل" السفر إلى أوربا "تهريب" كباقي من سبقوه من الشباب.

كان ياسين يفكر بجدّية أن يذهب معه، لكني كنت أعارضه في كل مرة يتطرق لهذا الأمر، وكان وائل في كل محاولة يفشل ويعود لإسطنبول؛ فيقوى موقفي أكثر ضد فكرته، وعندما قرر ياسين البقاء في اسطنبول كانت علاقتي به شبه منتهية.

جاءني ذات مساء يحمل بيده باقة وردٍ أحمر مع علبة فاخرة من الشوكولا، فرحت يومها، شعرت للتو أني "مخطوبة" ظننتُ أنه جاء ليعيد علاقتنا لمجراها الأول، لأتفاجأ بعد لحظات أنها لخالته بسبب عيد ميلادها، تفاجأت أيضا أنه لا يقدر الأمور، ولا يعرف التصرف في المناسبات، طيلة ستة أشهر كنت أتفاجأ بأمورٍ لم أكن أعلمها عنه، كل يوم كانت الفجوة بيننا تكبر أكثر.

عرض عليّ الاستعجال بالزفاف، لم نتفق مسبقاً على موعد محدد، خاصة بعد وفاة والدي، لم نتكلم بالأمر أبدا، لكني تقصدت تأجيله قليلاً، فقال:

- لمَ التأجيل، أنا جاهز تماماً والبيت نسبياً جاهز، كل ما علينا فعله هو تسجيل الزواج في المحكمة.
- أنا لست جاهزة، عقلي محطم، نفسيتي بائسة، لا أعتقد أني مستعدة لهذا الزواج.

- إلى متى؟ هل تنتظرين سقوط النظام مثل أبيكِ.

حين قالها خطر ببالي أن أصفعه، أن أرميه من النافذة، لكني اكتفيت بالقيام والذهاب لغرفتي دون أن أجيبه بشيء.

سمعت خالته تقول له: خطيبتك معتوهة تظن نفسها " الأميرة ديانا" لا أعلم كيف تفكر، كلّ مرّة برأي جديد.

أسكن الآن مع خالته الأرملة التي تضيف لحياتي بعضاً من الكآبة التي أعطاني الله شطرها، أحاول احتمالها قليلاً ريثما أجد لنفسي عملاً مناسباً وسكناً آخر، لستُ الأميرة ديانا، لست أجمل منها ولا أطمح يوماً أن أصبح أميرة، ولكني أنثى، أحتاج لكلمة غزلٍ صباحية حين لقائي بياسين بدلاً من "سمعتي آخر الأخبار"، أحتاج فعلاً لعطلة طويلة المدى، عطلة من كل شيء.

أعمل بمتجرٍ لبيع الألبسة الجاهزة، أعرف دوري جيداً بالعمل "عارضة"، كرامتي تعبت، وتعبتُ من الحياة وتعبتْ الحياة مني، لاجئة لا أملك شيئاً سوى الأمل بالعودة يوماً، ببساطة لأني احتفظت بكرامتي حين صرت "معارضة".

حين ضاقت بي السُبل وأغلقت بوجهي جميع الطرق، استعنت بذكرياتي، استعنت بالشيء الوحيد الذي يشبهني استعنت بيزن لعلّي أجده.

بحثتُ عنهُ في الصفحة الخاصة بالمنظمة في الفيس بوك، لم أبحث طويلاً، لكني كنت مترددة تماماً بسبب الاسم والفراغ الذي يحتل صفحتهُ.

لذا قررت الاختباء وراء اسم مستعار للتأكد من "يزن الأحمد"

ياسين

كنت في سنتي الدراسية الثانية حين توفيت أمي، أحسست وقتها أن الدنيا أغلقت أبوابها وانتهى كل شيء، كان موتها مفاجئ ، رغم علمنا المسبق بأن السرطان أكل دماغها وبدأ ينتشر بباقي جسدها، وأنه لا مفر من موتٍ قريب.

إلا أنها بأيامها الأخيرة كانت تمر بحالة انتعاشٍ تام، شهرٌ تقريباً كان كافياً ليذهب والدي للطبيب ويطلب إعادة التحاليل والتصوير الشعاعي.

كانت في قمة نشاطها بأيامها الأخيرة، حتى أنها كانت تريد السفر لحلب للاطمئنان على صحة جدتي.

في يومها الأخير وقبل المغرب بساعة، كانت تجلس بغرفتها ترتب بعض الأشياء، سمعتها تناديني فذهبتُ إليها، كانت تجلس مرتدية غطاء الصلاة الكامل ويبدها القرآن الكريم، أشارت لي بأن أجلس أمامها.

ابتسمت وسألتني إن كنت ما أزال أحب ابنة خالتي، تفاجأت من سؤالها، لم أكن أعلم أنها تعلم، لم يكن يعلم بحبي لمريم سوى أختي فاطمة، كنت متأكداً أن فاطمة لن تفشي سري لأحد. سألتها من الذي قال لكِ أني أحبها؟ ضحكت وقالت أنا لست جارتك يا ياسين، أنا أمك وأعرف عنك ما لا تعرفه عن نفسك، هل هي تحبك؟ هل أخطبها لك؟.

كانت علامات الاستفهام والتعجب تملأ ملامح وجهي، لكن ابتسامتي طغت عليها كلها، قلت لها: وهل أبي يوافق أن أتزوج وانا ما زلت طالباً؟

ربتت على كتفي وقالت أحضر لي الهاتف سأكلم خالتك، بعد ذلك يأتي دور الرجال.

تركتها تكلّم خالتي وخرجت أحمل معي حلماً بات على شرفة الحقيقة، مريم كانت تحبني وكنت أعلم ذلك، ولكن لم نكن قد رسمنا شيئا عن مستقبلنا، كانت أصغر مني بعامين، كنتُ أريدها أن تُنهي "البكلوريا" ثم بعد ذلك نتفرغ للحب.

لم يكن سوايَ وأمي في المنزل، فاطمة وأختي الصغيرة ملاك عند أختي الكبيرة تهاني، يُساعدانها بحفل عيد ميلاد ابنها، أما أبي فكان عند جارنا يلعب "طاولة زهر" منذ أن أحيل للتقاعد وهو على هذا الحال، يقضي أغلب أوقاته إما في الحديقة القريبة أو عند أبو مأمون يلعبون الطاولة، يقول أنه لم يعتد بعد على الجلوس في المنزل، ولكني أعتقد أنه لم يعتد على رؤية أمي هكذا، منذ أن بدأت صحتها تتراجع بشدة.

كنت أنتظر أمي لتناديني بعد إنهاء اتصالها لتخبرني بما حصل، كنت أمشي بغرفتي ذهاباً وإياباً عشرات المرات، خمنت أنها تتكلم مع خالتي بأمور الدنيا، كانتا دائماً تبقيان لساعة أو اثنتين تتحدثان بالهاتف دون أي ملل.

أخذتُ هاتفي لأسلي نفسي قليلاً، حين أمسكته تفاجأت أنهُ يرن، والمتصل خالتي!!

كانت هناك إشارة لمكالمات فائتة، كان هاتفي صامتاً، فتحت الخط فبادرتني فور سماعها صوتي" ياسين شوف أمك شبها".

كانت ماتزال تجلس على فراشها، القرآن أمامها والهاتف مرمياً بجانبها.

هكذا بكل بساطة انتهى كل شيء، ماتت أمي.

لم أحتمل البقاء في المنزل بعد انتهاء مراسم العزاء، لم أتخيل في حياتي منزلاً دون أم، لا يصلح أصلاً أن يكون بلا أم، الأم هي المنزل ودونها لم يعد منزلاً.

كان يذكرني بها أي شيء حولي، غرفتي وما فيها تحمل عطرها، أهرب للصالة فيذكرني بها قرآنها ومسبحتها وسجادة الصلاة، أهرب للشرفة لأرى أقحاف الورد كأنها تصرخ محتاجةً لها، لم أجد أمامي سوى حلب قبل شهر من موعد الجامعة.

بقيت شهراً كاملاً لا أغادر منزلي، حتى جاء عماد شريكي في السكن، وبدأ الدوام في الجامعة حتى استطعت أخيراً الوقوف مجدداً.

حين احتضنتني خالتي أم مريم في العزاء، كانت تبكي وتقول: "أمك ماتت وهي تحمل همك، تريد تزويجك".

الموت موجعٌ جداً، قاسٍ لا يُحتمل، الموت حتمياً علينا جميعاً، جميعنا يعلم أنه سيموت، ونقول في كلّ مرّة نبكي أمواتنا: ليتها آخر الأحزان، ولا تنتهي الأحزان.

مع بداية الفصل الأول وعودة الحياة الجامعية و"الشلة" بدأ قلبي يعود لنبضه رويداً رويداً، لكن ثمّت نقصٌ فيه، أمي لا يعوضها شيء.

مريم كانت قد بدأت حياتها الجامعية "صيدلة" كانت قريبة من جامعتنا، بعد عدة لقاءات بيننا اعترفت لها بحبي رسمياً، علمت وقتها أن خالتي أخبرتها بطلب أمي قبل وفاتها بلحظات، لكنها طلبت مني تأجيل أي شيء لوقتٍ لاحق، وكان هذا رأيي أيضاً.

تلك الأيام تعرفت على فرح، كانت في سنتها الثانية، دخلت "الشلة" عن طريق صديقة لنا كانت تدرس في كلية التربية، فرح كانت جميلة جداً مبتسمة دائماً ومشرقة، لكني كنت أحب مريم كثيراً، ولم أكن من الشباب الذين يبحثون عن علاقة عابرة مع فتيات.

حين يعرف من حولي أني من جبلة، وأني ابن ضابط، كانوا يظنون أني "علوي" وغني، وبأن والدي له "صولة وجولة" في الدولة، وحين يعلمون أني من مذهب سُني

وبأن أبي متقاعد ولم يترأس في حياته منصباً حساساً وكان أعلى منصب لهُ هو مدير ناحية في محافظة دير الزور، كانت تتغير نظراتهم إلي، فبعضهم يحترمني أكثر وبعضهم يحتقرني أكثر إلى أن بدأت الثورة، فاصبح الكل يحتقرني.

لا أعلم ما السر الذي اكتشفوه فجأة عني، لم يكن عندي أسرار، ولكن يكفي أن أبي كان يوماً تابعاً للنظام لأكون بموقع شكٍّ وبموقعٍ ينفر منهُ الجميع.

حين انهيت جامعتي لم أكن أحمل هم الذهاب للخدمة الإلزامية كبقية الشباب،

فأنا وحيد لا أذهب للخدمة العسكرية، لكن ما زلتُ أحمل هم العمل والبحث عنه.

كجامعي متخرج من كلية العلوم السياسية، كان مجال عملي يعتمد بالدرجة الأولى على الواسطة، لست أنا فقط، أغلب الشباب تلزمهم الواسطة لبدء الحياة، لكن أبي لم يكن ذو نفوذ، وليس لديه أي أقارب يمكن لهم مساعدتي بالأمر، لذا اضطررت بالبداية أن أعمل في متجر بيع ألبسة جاهزة.

أحد الأيام دخل علينا شاب حنطي اللون "جزراوي" وجهه لم يكن غريباً عليّ أبداً، لم يطل الأمر حتى تذكرته، إنه وائل صديق الإعدادية.

كنّا صديقين حين كان أبي مدير ناحية في محافظة دير الزور، التقينا كثيراً بعد لقاءنا الأول. كان يحاول فهم عقلي كما يقول، ولماذا أؤيد النظام رغم أني متضرر كبقية الشباب، أفكاره كانت ناضجة تدعو للنقاش، ليست كبقية الأفكار التي تخرج من أفواه المعارضين، كانوا غالباً يلجؤون للسِبابِ والشتم حين يفشلون بالحوار.

أما وائل فكان ذكياً، كنت أحب حديثي معه، لم يكن يستخدم العاطفة في حجّته، لم يتحدث يوماً عن أعداد القتلى، رغم أني تطرقت يوماً بحديثي عن الشباب الذين استشهدوا من الجيش السوري، كان يعجبني حين يقول رحمهم الله.

كان يستخدمهم ضدي في نقاشهِ ويقول إنهم من يدفعون ثمن أخطاء أسيادهم، أعرف أن لا حول لهم ولا قوة، ولكن كانوا يستطيعون "الانشقاق" في أي وقت.

كانت تضحكُني هذا الكلمة، يستخدمونها للتغطية على جريمة الخيانة والفرار من الواجب الوطني.

فأرد عليه بأن لهم عقيدة وهدف يسعون إليهِ أما يصلون أو يستشهدون، وفي كِلا الحالتين هم الرابحون.

قال لي يوما: لماذا لا تنتسب للجيش وتصبح ضابطاً، لربما تصل للهدف او تستشهد.

كنت أقول أني لا أحب الحياة العسكرية، هذا السبب لا غير.

الدمشقيون غالباً كانوا مؤيدين، بعضهم كان مؤيداً لأنه يرى أن النظام القائم جيد ويخدم مصالحهم وأفضل ممن يأتي ويريد له الاستمرارية، كعناصر الجيش أو الشرطة أوالعاملين في الدولة، والبعض كان تأييده لأسباب اقتصادية كأغلب التّجار، أما البقية منهم فكان تأييدهم خوفاً من النظام.

لا أنكر أن السلطة فيها فاسدين، وأنهم يعيثون فساداً بالأرض وهم سبب هذه الثورة، وأعرف أن الدولة تعرف بوجودهم وتتركهم، لكن الفاسدين منتشرون في كل بقاع الأرض، وليس من المنطق أن ندمر بلداً كي نقول إننا نرفض وجودهم.

في بداية الثورة أقامت الدولة اجتماعات حوارية في أغلب المناطق والمدن، لكنها قُوبلِت بالسخرية والاستهزاء، وبدأ "شباب الثورة" كما يسمون أنفسهم بضرب الحواجز الأمنية التي أقيمت لحماية الناس.

أغلب هذه الحواجز تجد فيها "مجندين إجباريين"، جاءوا لقضاء خدمة العلم ويطمحون بالعودة لمنازلهم سالمين، هم أخوتنا وأبناء عمومتنا، لماذا يُقتلون؟ عدم فرارهم من الجيش ليس ذنباً يُقتل لأجله.

أذكر جيداً يوم صحونا على خبر مصرع تسعاً من رجال الشرطة ورميهم في نهر العاصي في حماه، وحين كشف عليهم الطب الشرعي وجدهم مذبوحين، وأذكر أيضاً ذلك الشرطي الذي صوروه " ثوار الحميدية " في دير الزور وهم يقطّعونه بالساطور الذي يستخدمه الجزّارون لتقطيع الخراف.

وصلوا لهذه الدرجة من الوحشية ولا يريدون للجيش أن يتدخل، يقف خطباء المساجدِ على المنابر ويصيحون" حيّ على الجهاد" فيحملون أسلحتهم. يحسبون أنفسهم قد ضمِنوا الجنة بفعلهم هذا ويريدون من الجيش أن يسكت ولا يحرك ساكنا. يقتحمون دوائر الدولة ويحرقونها ويعتدون على ممتلكات الدولة ولا يريدون منها أن ترد، وحين يتصدون لهم رجال الأمن يرمونهم بالرصاص الحي والأسلحة التي أتتهم من جهاتٍ يريدون الدمار لسوريا، وحين يردّ الجيش على رصاصهم يقولون أن النظام يذبح شعبه، أحياتكم غالية وحياة الغير رخيصة؟

يوجد أخطاء، لكن الكارثة أن نحلّ هذه الأخطاء بخطأ أكبر.

كانت حياتي تتدمر يوماً بعد يوم، كنت في مأزقٍ حقيقي، فريق يعتبرني خائناً لأني لم أشاركهم ثورتهم ولم أقف ضد جيش بلدي، وفريقاً كان يعتبرني "عوايني" فقط لأن والدي ضابطاً سابق، وفريق يعتبرني "فتاة" لأني لم أخدم في الجيش ولم أنتسب لإحدى الفرق التطوعية في الدفاع المدني، لكني لم أعتقل يوماً بشكل عشوائي كما يقول "الثوار"، كنت في طريقي أمرُّ كل يوم على أكثر من حاجز، لم أفتش يوماً ولم أتعرض لأيّ شكلٍ من أشكال الإهانة التي يتحدثون عنها.

بقيت كذلك حتى بداية صيف عام ٢٠١٦، حين قرر أبي الزواج، لم نمانعه أبداً، باركنا له زواجه، وقبل عرسه بيوم سافرت مع فاطمة وملاك لحلب، كي نترك لوالدي وقتاً مع عروسه، بقيت في حلب يومين ثم سافرت لجبلة لبيت عمي.

كانت تلك الأيام صعبة جداً في حلب، كان النظام قد استعاد قسماً كبيراً من المدينة وكان المسلحون يومها يردون عليهم بقذائف عشوائية.

اتصل بي زوج خالتي أم مريم صباح الأثنين الثاني من شهر أيار لعام ٢٠١٦، يطلب مني العودة فوراً لحلب، حاولت فهم الأمر لكنه لم يتحدث.

وصلت حلب قبل العصر بقليل لأتفاجأ أن خالتي الصغرى "ثريا" وزوجها وفاطمة وملاك ومريم في المستشفى بسبب القصف العشوائي للمسلحين على أحياء حلب، توفي زوج خالتي مساء اليوم نفسه.

كان وضع ملاك جيد جداً بعض الرضوض البسيطة، وفاطمة كان لديها كسر بقدمها مع بعض الرضوض بالرأس، أما مريم فقد أجرت عملية فورية لنزع شظايا من صدرها وكانت حالتها مستقرة، ولكن...

استيقظنا صباح الثلاثاء الثالث من أيار ٢٠١٦ على خبر استهداف مستشفى " الضبيط" في حي المحافظة، بصواريخ أطلقها المسلحون، نتج عنها مقتل تسعة عشر شخصاً بينهم ثلاث أطفال وفاطمة ومريم وملاك.

كان أبي يحاول منذ وصوله الذهاب للمستشفى لرؤية أخواتي، لكن زوج خالتي كان يمنعه بسبب القصف، ويطلب منه التريث حتى يهدأ الوضع قليلاً.

لم يرَ بناته، لم يكبروا أمام عينيه، هكذا يموت السوريون بكل بساطة، يُقتل من لا ذنب لهُ ليحيا القاتل.

لم استطع البقاء في سوريا بعد أن منعني أبي من الالتحاق بالجيش، كنت من بقي له مع أختي الكبيرة تهاني التي سافرت مع زوجها وأولادها لمصر بعد وفاة أختيّ بشهر تقريباً، بعد أن ملّ زوجها الانتظار وهي تحاول تأجيل سفرهم.

بعد أن شُفيت خالتي "ثريا" من جِراحها نتيجة القصف ونتيجة موت زوجها قررت السفر لتركيا، وبعد عدة محاولات لإقناعي وافقت على السفر معها، وها أنا اليوم أتخبط بين عدة قرارات لم استطع اعتماد أياً منها.

ساعدني وائل كثيراً حال وصولي لتركيا، يريد مني السفر معه لأوروبا. فرح ترفض سفري خوفاً عليّ ولأنها تحبني كما تقول، لكنها تريد تأجيل زواجنا لأسباب لا أعرفها، وخالتي تمر بحالة اكتئاب مزمنة لا استطيع تركها لوحدها، وأنا تائه بين وائل الذي يحاول السفر منذ عام تقريباً ولم ينجح، وبين فرح التي رأيتها صدفة في أورفا لتعيد لي بعضاً من ذكرى صديقتها مريم، وبين خالتي التي لا تعرف ماذا تريد، وبين أبي الذي بدا عليه المرض مؤخراً.

وائل

استيقظت باكراً هذا اليوم، شعرت بشيء لم أشعر بهِ منذ مدّة، كان اسمه التفاؤل يوماً ما. اعتقد أن هذا الشعور يولد ضخماً مع كل إنسان، ويبدأ بالانكماش تدريجياً حتى ينتهي في عمر الثامنة عشر -إن كان صاحبهُ عربياً-لكنه اليوم دغدغ مشاعري رغم أني لم أتلقَ أي اتصال أو رسالة أو أي شيء يدعو للتفاؤل.

كنت مع ثلاثة شباب نسكن في منزلٍ تملكه عجوز تركية في إحدى ضواحي اسطنبول، كانت كأنها تسكن معنا، تتدخل في أيّ شيء حتى في طعامنا إن رأت يوماً إننا أحضرنا خضاراً بكمية زائدةٍ قليلاً، كانت تركية بامتياز.

سمعت همساً عند باب الشقة، كنت ما أزال في فراشي حين طُرق الباب أثناء الهمس، اتجهت نحو الباب وقبل أن أفتحه تبين لي من الصوت إنها هي.

استعذت بالله من شر هذا الصباح الذي سأفتتحه بكلامها وفتحت الباب.

- هل عندكم ضيوف، لمَ كل هذه الأحذية عند الباب، لماذا لا تضعونها بشكل مرتب.

كنت أفهم نوعاً ما اللغة التركية، لكني لا أستطيع التحدث بطلاقة، وكانت هي تفهم علينا ونفهم عليها جيداً بحكم زياراتها الدائمة.

قلت لها أن اليوم إجازة ولم يذهب أحد إلى عمله لهذا السبب أحذيتنا موجودة.

أشارت إلى حذاء جديد وسألت هل لديكم ضيف؟ أنا لا أسمح بشخص آخر في المنزل.

تنهدت وقلت لها: هذا حذاء جديد لي اشتريته البارحة، كنت أريد أن أنهي هذا اللقاء سريعاً فقلت لها:

مساءاً سأحضر لكِ أجرة المنزل أما الآن فعندي موعد وعليّ الذهاب، لم يعجبها كلامي دمدمت بشيء لم أفهمه ورحلت.
اختفى تماماً ذلك الشعور الذي راودني للتو، وعاد الإحباط يغلفني وأنا أقلّب بريدي الإلكتروني باحثاً عن رسالة ما تبثّ بيَ الأمل من جديد.
أثناء ذلك جاءني اتصال من المهرب الذي اتفقت معه منذ يومين لقطع الحدود التركية البلغاريا، يخبرني فيه أن عدد "النفرات" اكتمل وعليّ التواجد في العاشرة ليلاً لانتظار الشاحنة التي سنقطع بها الحدود فجراً.
كنت قد جربتُ سابقاً طريق بلغاريا مرتين وطريق اليونان أربع مرّات، وجميعها باءت بالفشل، وكانوا في كلّ مرّةٍ يمسكنا بها حرس الحدود البلغاري أو اليوناني يضربوننا ويأخذون منا أموالنا وهواتفنا الجوالة ويرموننا على الحدود دون أحذية، ومرّة واحدة دون لباس خارجي.
في المحاولة الأولى خسرت ألف يورو تقريباً وهاتفي وحذائي، في المرّة الثانية لم أحضر معي سوى مبلغ بسيط وهاتف نوكيا قديم، في المرة الثالثة لم أحضر معي حتى حقيبة ملابس.

جهّزت نفسي جيداً هذه المرّة، ولم أخبر أحداً أني سأحاول العبور ليلاً، فقط من معي في السكن، وكان أحدهم صديقي في الرحلات.

كنت أخبر الجميع في بداية الأمر، مع الأيام لم أعد أخبر سوى أبي، واليوم لم أخبره حتى هو.

في الساعة الثانية والنصف ليلاً طلب المهرب أن نجهز أنفسنا للذهاب للنقطة في أيّةِ لحظة. بالنسبة لي لم يكن عندي ما أجهّزه سوى ربط حذائي جيداً تحسباً لركض مفاجئ.

كنّا ثلاثين شخصاً تقريباً معنا أربع فتيات وطفل دون العاشرة من العمر.

انتظرنا ساعة تقريباً حتى جاءت الشاحنة، كانت محملة بأقفاص دجاج، صفّان في الواجهة وبعد ذلك صندوقاً كبيراً وفي الأعلى صفّاً من أقفاص الدجاج يغطي سقف صندوق الشاحنة.

نظرت إلى الفتيات اللّواتي بقينَ خارج الشاحنة مع ثلاثة شباب، يبدو أن هذه أول محاولة لهم ولم يعتادوا الذلّ بعد.

أقنعهم المهرب بالصعود وبأنّ هذا المرّة مضمونة مئة بالمئة كما كان يقول دائماً، حتى اكتملنا داخل الصندوق المغطّى بأقفاص الدجاج.

تحركت الشاحنة ببطء، قال " المهرب " الذي معنا أن الشاحنة ستقطع بنا الحدود فقط ثم نتزل بعد ذلك وننتظر شاحنة أخرى تأخذنا لصوفيا.

بدأنا نشعر من الوقوف المتكرر باقترابنا من الحدود، كانت الشاحنة تمشي قليلاً ثم تقف لبعض الوقت وتتأخر أحياناً، سمعنا ضرباً على حديد الشاحنة كإشارة من السائق أنه حان دورنا ويجب علينا أن نصمت تماما ولا نصدر أي صوت وإلا سنكشف فوراً.

بقينا كذلك نصف ساعة تقريباً، ساعدتنا أصوات الدجاج وتحركاتهم داخل الأقفاص، شعرت بالحرج يومها، قلت في نفسي: هل سيصبح للدجاج فضلاً عليّ إن نجح عبورنا ؟.

بدأ محرك الشاحنة يدور من جديد، شعرت أن الدجاج فضّل عليّ هذه المرّة وسيصبح الفضل له إن وصلت أهلي في ألمانيا، تحركنا لمسافة قصيرة جداً، توقفت الشاحنة من جديد، بعد دقيقة سمعنا همساً ولغواً خلف الشاحنة، من ثم سمعنا صوت تحريكٍ لأقفاص الدجاج، ثم فُتِحَ علينا الباب.

أشار لنا الحرس بالنزول، وقفنا أمامهم وكان أحدهم يصورنا ويصور الشاحنة، جاءت سيارة تابعة لهم ونزل منها أربعة آخرين فأصبحوا ثمانية، لم أحصِ عدد الهراوات التي ضربت ظهري ومؤخرتي ورجلي، لم أشعر بضربهم حتّى، يبدو أنني "تمسحت" ولم يعد شعوري كما كان.

أعادونا بشاحنة ثانية للحدود بعد أن قال لنا أحدهم بلغة إنكليزية:

لقد تم تصويركم وسأكتفي هذه المرّة بإعادتكم، لكن إن حاولتم مرّة ثانية ستسجنون وتغرّمون.

في الشاحنة أثناء الطريق فتشنا الحراس جيداً، أخذوا منا ما وجدوه، كنت وشريكي في السكن لا نحمل هواتفنا وليس معنا مبلغاً جيداً من النقود فضربنا الحارس بدلاً عن ذلك، وحين سلمونا للحرس التركي وأخذونا لمركز الأمن في "أدرنا" لنبصم على تعهدٍ بعدم التكرار كالعادة، عرفنا حينها لماذا أبقى البلغاريون على ملابسنا، كان للدجاج فضلاً وفضلات كثيرة.

وصلت المنزل ليلاً، فتحت هاتفي بعد أن أنهيت حمامي وطعامي، وجدت ست مكالمات من ياسين وثلاث رسائل كتب فيها: أريدك ضرورياً اتصل بي فورا.

يبدو أنّهُ قد اتخذ قراراً ما، لكن الوقت كان متأخراً فأغلقت هاتفي ونمت.

محاولاتي دائماً تبوء بالفشل، هذه المحاولة السابعة، ففي محاولتي الأولى كنت في مجموعة تضم ثلاثين شاباً، جميعهم في أوربا الآن إلا أنا، حتى صديقي الذي جاء معي من

سوريا وحاول العبور ولم ينجح، ترك فكرة السفر وسجل لدراسة الماجستير في تركيا وتم قبوله وقد اجتاز السنة الأولى.

كثيرون قالوا أني السبب، مهمل... فاشل... لا أعرف التصرف... لا أعرف مع من أذهب أو أي طريق أسلك، جربت جميع الطرق وتعاملت مع جميع المهربين، لكني لم أنجح، لم أصل حتى غابات اليونان أو الطريق العريض جانب الحدود البلغاريا.

جميع من صادفته في رحلتي كان سورياً بشيء ما، أما أنا فكنت سورياً جداً.

حنين

حين سألتُ أمي مرّةً، لماذا أسميتموني حنين؟

قالت: إنّ والدك كان يريد تسميتك "شوق" لكنّ وقتها لم يكن شائعاً هذا المصطلح كاسم، لذا سمّاكِ حنين.

حين كبرت قليلاً أعجبني اسمي كثيراً، لكني لم أشعر بهِ، كنتُ أحبه لأنه اسمي وليس لمعناه، لم يكن المعنى قد توغل بعدٌ في أيامنا.

الحنين الآن أصبح جزءاً من حياتنا، في كل لحظة نحنُّ للحظة سابقة، لأي شيء مهما كان صغيراً أو حتى تافهاً.

أحنّ للماء، للهواء، لظلام الشوارع ليلاً، لصوت أوراق الشجر ورائحة الفرات.

اسمي أصبح فجأة فعلاً يومياً أقوم بهِ، بل فعلاً لحظياً لو صحّ القول.

حتى نهر "الراين" أصبح جزءاً من حياتي ،أقصده حين أشتاق، حين تتضارب المشاعر بداخلي، بين هروبي من ماضٍ لمستقبل أتطلعُ له، وهروبي من حاضرٍ مخنوق ومستقبل مجهول لماضٍ أشتاق وأحنّ إليه.

أصبح الحنين اسماً للجميع، وأصبح الشوق شائعاً بشدّة، شوقٌ يجرف جميع مشاعرنا وحواسنا باتجاهٍ واحد، لا نستطيع مواجهتهِ أو الهروب عكس تياراته.

البارحة مضى سريعاً، لا أدري كيف مضى عامان دون أن أشعر بهم، عامان كانا مليئين بالموت، جاءا محمَّلين بدموع لم أهيّء خديَّ لها. عامان مرّا كأنهما دهران لكنّي لم أشعر بهما.

أصبحت جثة تنتظر دورها بالدفن، فلم يبقَ على الأرض ما يستحق الحياة.

حين سافرتُ مع زوجي ياسر وابني مجد إلى ألمانيا منذ عامين، كان الأمل قد بدأ ينبت في ربوع قلبي الجاف، قلت وقتها في نفسي إنّ جميع الهموم القابعة في دماغي قد بدأت بالزوال.

عائلتي وعائلة زوجي في دمشق هم بأمانٍ نوعاً ما، وأنا وزوجي وطفلي قد نجونا من بين سندان الحرب في سوريا ومطرقة الضيق في تركيا، وها قد وفقني الله بجمع يزن وسارة من جديد، كنت أحسب أن الدنيا ضحكت أخيراً في وجهي البائس.

حينها وقبل دخولنا لصالة المسافرين أمسكت يد يزن لأوّل مرّة منذ معرفتي به، أحسست يومها أن يده باردة جداً، لا أدري لمَ انتابني شعورٌ تلك اللحظة بأنها آخر مرّة أرى فيها وجههُ، قلت لهُ حينها أن سارة أمانة في رقبتك، انتبه عليها.

حتى ياسر حين ركبنا الطائرة بدا على وجهه الحزن، قال لي أنه خائف أن يكون هذا وداعنا الأخير.

وحين أخبرني ياسر أنّ يزن التقى بسارة وهم الآن يجهزون نفسهم للعبور لتركيا، شعرت لحظتها أنّ الثورة قد انتصرت، شعرت أنّ الحقوق عادت لأصحابها لأوّل مرّةٍ على أراضٍ سورية.

ثم اختفى يزن لعشرة أيام، لم نترك شخصاً يعرفه إلا وسألناه، لم يشاهده أحد،

وحين اتصل بي انفجر باكياً.

موت سارة قتل يزن، وقتلني، وأحرق جذور الأمل التي بدأت تنبت في أرض قلبه وقلبي، شعرت وقتها أن اسمي ليس مجرد اسم، بل هو شعور قاسٍ سيرافقنا ما تبقى من حياتنا.

لكن الدنيا لم تكتفِ بهذا فأخذت أبي، ثُم دون أيّ مقدمات توفيت أم ياسر ومرِضَ والده، والده الذي يُبكيني في كلّ مرّة نتحدث بها معه، حين يسألني: من أنتِ، ومن هذا الذي بجانبكِ؟ حين يقول لنا مبتسماً أنّ أم ياسر ذهبت لتبتاع بعض الأغراض وستعود حالاً.

عامان لم يكونا إلّا كابوساً أُضيف لكوابيس الأعوام السابقة وما رأيناه قبل خروجنا من سوريا.

حين اتصلتُ بأمينة أخت حسام بعدما قرأت خبر وفاته، كان كلامها معي مصطنعاً، حتى دموعها، شعرت بالكذب يتدفق منها، لكني لم أهتم يومها، لأنّ سارة أخبرتني أنها إنسانة لئيمة جداً ولا تحب أحداً.

لم نُخبر أحداً بموت سارة حفاظاً على قمر، كي لا يطالب بها أحد، ستكون في عِداد المفقودين إلى أن يأتي أمر الله.

لكن جوابها أفزعني يومها حين قالت: سارة أخذت قمر وهربت إلى تركيا، إلى عشيقها السابق، وقد طلقها حسام غيابياً قبل وفاته.

لم أخبر يزن بذلك، لا أدري لماذا لكني قدّرت أنّ هذا الأمر سيزيد من خوفه على قمر لو وصلوا إليها.

أعرف هذا الشعور جيداً فقد رأيته منذ أشهرٍ قليلة حين صحوت على صوت جارتنا وهي تستغيث، حين جاءت الشرطة التابعة "للسوسيال الألماني" وأخذت الأطفال من أمهم بحجة إهمالها لهم، وبعد فترة تبين لنا أن زوجها وأخيه وراء ذلك، حين تقدموا بشكوى للخدمات الاجتماعية.

يزن كان رافضاً للهجرة بكافة أشكالها، وبعد أن أصبح مسؤولاً عن قمر، أصبح يرفض قطعاً حتى النقاش بهذا الأمر خوفاً على قمر من أي شيء قد يحدث.

كان حين يسمع قصص اللاجئين، يتخيل نفسه واحداً منهم ومعه قمر، كان يمرض لمجرد التفكير بأن يحصل معه ما يحصل معهم.

قصصٌ كثيرة لم يأتِ الزمان بمثلها ولن يأتي، بداية بغابات اليونان أو غرق المراكب في بحر إيجا، وصولاً للخطف وبيع الأعضاء البشرية في سهول أوربا الشرقية.

قصص قد تبدو خيالية لبعض الواقعيين، ومنطقية لأصحاب الخيال السينمائي.

يزن

كان صوتها أشبه بصوت ناي، يشبهُ شخصاً فقد كلّ شيءٍ ثم التقى بصديقهِ، الحزن فيهِ مستوطنٌ، باردٌ كرجفة الموت.

لم أكن أنتظر عودتها رغم الفراغ الذي يُحيطني، لم أكن أنتظر شيئاً، كل شيء مات بالنسبة لي، حتى أنا!

أنا ميتٌ مذ ولدتني أمي، أردتُ أن أكون قوياً يوماً فقتلت جميع من حولي.

كانت قمر تجلس بجانبي حين كنت أكلّم فرح، كنت أراها تبتسم، حين انتهيت. سألتها لماذا كنتِ تبتسمين فقالت: منذ زمن لم يبتسم وجهك، هذه أوّل مرّة أرى الابتسامة في صوتك.

لم أكن مبتسماً، لكن يبدو أن وجهي قد ملّ وجهي وقرر هجرته هو الآخر.

كانت مليئة بالحزن، بقدر ما كانت تنشر الفرح حولها منذ عامين، وحين عرفت السبب لم أستغرب؛ حين ندفن الآباء ندفن معهم قلوبنا والفرح.

عاتبتها كثيراً، وعاتبت نفسي أكثر، وعاتبتني هي لأني لم أخبرها بموت سارة، واستفسرت معاتبةً: ألم تحتاجني حين عدّتَ للمنزل برفقة قمر وحيداً؟

شعرت بشيء من الفرح قد تسلل لصوتي حين قالت أنها مخطوبة، شعرت أيضاً بشيء قتل ذلك الفرح.

شعرت أني فاشل بكل ما أُتيت من عقل، وأني متأخرٌ دوماً، لكني لم أشعر حين سمعتُ صوتها بشيء تحرك بداخلي.

فرح كانت الوحيدة التي ستعيد للحياة شكلها الزاهي لو لم أكن قد فقدت الحياة، لو أني على قيد الحياة لكان نبض قلبي لحظتها مسموعاً.

بكت كثيراً حين أعطيت الهاتف لقمر لتراها وتتحدث معها، وبكيت أنا كثيراً وضحكت قمر.

طلبت مني حين تكلمت معها صباحاً أن أترك أورفا وآتي لإسطنبول، فهنالك لا يعرفني أحد وأستطيع أن أعيش مع قمر بكل أريحية، قالت لي أنها ستؤمن لي سكناً ووظيفة، وستكون حياتي أفضل. قلت لها أني سأوافق لو أعطتني الدولة موافقة لنقل قبر سارة لإسطنبول.

قمر وبعض الأزهار المتناثرة والكثير من الريحان وأنا، كنّا زواراً دائمين لسارة، كنت أذهب لقبرها كل يوم ثلاثاء عصراً، في نفس ساعة وفاتها، أحدثها عن كلّ شيء حصل معي، كانت تجيبني أحياناً وتصمت معظم الأحيان، كنت أبكي دائماً وكانت قمر تبتسم وهي تربت على كتفي.

حارس المقبرة أصبح صديقي المقرب وجميع الأموات، كانوا يرونني دائماً ولم أكن أرى سوى سارة بثوبها الأبيض، كنت قوياً بما يكفي لأقف على قدمي بعد كل بكاء.

اتصل بي ياسر أحد الأيام، يطلب مني أن أساعد قريباً له بعملٍ ما، كان أكبر مني سناً، ولكن لديه إصابة في ظهره تمنعه من العمل المجهد.

بعدها بدقائق اتصل بي الشاب ليعرفني على نفسه، أخبرته بأن المنظمة التي أعمل بها بحاجة "مستخدم"، وافق على مضض، كان متردداً وحين سألته قال: لا شيء... متى يمكنني البدء بالعمل؟ قلتُ غداً.

التقيت بهِ ظهيرة اليوم الثاني حين جاء للمنظمة، لم يكن كما رسمته في مخيلتي، كان شاباً ذو هيبة، وتبدو عليه ملامح العز، خجلتُ من نفسي بسبب الوظيفة التي قدمتها لهُ، لكنه كان أكرم مني حين تلافى خجلي بقوله:

لا عليك أستاذ يزن، أنا مصاب ولا أستطيع أن أعمل عملاً مجهداً، لدي أطفال "والشغل مو عيب" وأنتم ناس كرماء وخدمتكم عزٌّ لي.

سألتهُ عن مؤهلهُ العلمي، ابتسم وقال: أنا الدفعة الأولى ماجستير في كلية الآداب بالفرات، فلسفة وعلم نفس.

كانت صدمتي واضحة، وددت لو يرجع بي الزمان لمساء البارحة، لأتراجع عن الوظيفة التي قدمتها لهُ.

لم أعرف ماذا أجيبهُ، ابتسمت وقلت لهُ: "فاصبر لها ولعل من خلق الفضاء يحلها".

لا يدري أنّ مدير المنظمة خريج "بكلوريا" وبأنّ المدير المالي مساعد أول منشق، وبأنّ الموظفة التي تدير عقود الموظفين خرجت من سوريا حين كانت في الصف الحادي عشر، لكنها جميلة بما يكفي لاستلام هذا الشاغر.

لا يدري أنّي قبل ثوانٍ فقط كنت صاحب أعلى تحصيل دراسي كجامعي وأستاذ أدب عربي، وبأنه الآن هو صاحب أعلى تحصيل علمي، وهو المستخدم في المنظمة.

شرحت لهُ كل ذلك، قلت لهُ اصبر لعل الله يعطيك فرصةً أفضل، لكنه قَبِلَ الوظيفة بسبب اصابته، ولندرة العمل في مدينة أورفا.

بعد أيام وأثناء تنظيمي لبعض جداول المساعدات في المنظمة جاءني ومعه قمر، كانت قد اعتادت عليه، وهو أيضاً أحبها جداً وأصبحت صديقته كما يقول،

كان لديه ثلاثة أولاد وكان يأمل أن يرزقه الله بفتاة.

قال لي: والله يا أستاذ يزن ابنتك هذه "مسحوبة من لسانها" الله يحفظها لك "عفريتة" لو ترسلها "لمؤتمر الرياض" بدلاً من هؤلاء الذين يحسبون أنفسهم معارضون، لكان اندحر النظام من الجلسة الأولى.

كنت ابتسم وأظهر فرحي بكلامه لكن قلبي يتقطع حزناً عليها.

قلت لهُ: لقد شاركتني جميع قصص الناس الذين لديهم احتياجات خاصة أو أصابات ويحتاجون لمساعدات، كانت تجلس بجانبي وتستمع لهم بإنصات أكثر مني.

صحيح!! أنت كيف أصبت؟

قال: لقد أصبتُ في مجزرة "الجورة"، (عمر الشقي بقي) لي لقمة في هذه الحياة ولم يكتب الله لي الشهادة.

أغمضت عينيَّ وسرحت في ذاكرتي بين أحاديث الناس عن هذه المجزرة التي لم أشهدها، تنهدتُ بحرقة وقلت:

- حين حصلت هذه المجزرة كنت معتقلاً في صيدنايا، لم أعرف بها أو أسمع عنها لبعد عامٍ من وقوعها تقريباً، كنتُ في تركيا هنا، رأيت صديق والدي وأخبرني عنها، لقد توفيَ أبناءه الثلاثة في اليوم الثاني بعد المجزرة، حين ضربت طائرة الميغ مبنى النفوس في واقعة مجزرة النفوس، لم أكن أعرف بكل هذا، حين خرجت من السجن كانا أبي وأمي قد استشهدا، ولم أكن بكامل وعيي حينها. أقول لنفسي أحياناً ليتني لم أخرج من المعتقل، كنّا نعيش أسوأ الأيام، نموت ألف مرّةٍ في اليوم، لكنّ الأمل كان يحيينا في كلّ مرّة، أما الآن فلم يعد عندي ما يُحييني، إن كان الأمل نفسه قد مات.

مدونة عرب ٢٠١١

مجزرة الجورة والقصور

الأسبوع الأسود

2012/9/28-24

مثنى السّ***/ ماجستير علم نفس أحد النّاجين من مجزرة الجورة، مستخدم في إحدى المنظمات التابعة لهيئة الأمم المتحدة، والمقيم في ولاية شانلي أورفا التركية.

كانت زوجتي على وشك الولادة في أيّةِ لحظة، لم أكن متواجداً في الحيّ حينها، كنت في حي "الجبيلة" في عزاء ابن عمي، استشهد تحت القصف الذي استهدف وسط المدينة في بداية أيلول.

اتصلت بي والدتي تطلب مني المجيء فوراً، لكنّ دخول الحيّ وقتها كان أشبه بالمستحيل، حين خرجت من الحي بقيت ليلة كاملة أحاول الخروج حتى استطعت ذلك وقت الفجر.

كان معي رجلاً خمسيني لم أره سابقاً، حاول العبور بالأمس لكنه لم يستطع بسبب القناص المتواجد فوق سطح نادي الضباط.

كان خائفاً -مثلي- مثل أيّ شخص لم يقف مع جهة محددة، نحن المحايدون نظنُّ أنفسنا قد نجونا، ولكن مع مرور الأيام نكتشف إننا وضعنا أنفسنا بين مطرقة الذل وسندان فقدان الكرامة.

عند مجمّع الكوخ وقفنا قليلاً، كان ذلك آخر مكانٍ نمشي فيه دون خوف، وصلنا للنقطة التي يجب علينا عبورها مسرعَين.

بعد دقائق قال لي:

- سأعبر الشارع أولاً، لن يحصل إلا ما كتبَ الله عليّ، ولكن أرجوك إن أصابني القناص، لا تتركني وحاول سحب جثتي وادفنها في إحدى المقابر المستحدثة، اسمي موريس حشيشو، اكتب على قبري "من آمن بي وإن مات فسيحيا".

حاولت منعه والتريث قليلاً لكنه لم يقبل، كان قد ملّ الانتظار، أخبرني أن عائلته سافرت إلى حلب منذ مدّة، وعليه اللحاق بهم.

وقف عند أول الشارع ابتسمَ في وجهي ومضى مسرعاً وهو يركض يميناً ويساراً حتى عبر الشارع.

كان مبتسماً ثم ضحك بشدة وقال لي : هيا افعلها، توكّل على الله.

ركضتُ مثله تماماً، سمعت صوت طلقة، حسبت للحظة أنّ قلبي سقط مني، لكني واصلت الركض حتى وصلت إليه.

كان ينظر إليّ مبتسماً، ضحكت في وجهه وقلت لهُ: لنكمل، لكنه سقط أرضاً.

كانت الرصاصة قد اخترقت ظهره وخرجت من صدره، هكذا بلحظة.

كان يريد فقط اللحاق بعائلته، قتلوه...!

كان الليل قد انتصف وقتها، نظرت حولي، لم أجد أحداً ليساعدني، استطعت سحبه قليلاً واختبأت في إحدى الأبنية.

خرجت بعدها لمنزل صديق لي لا يبعد كثيراً، شرحت له ما حصل معي فقال:

الأمن و" العواينية" يملؤون الطرقات، يجب علينا الانتظار قليلاً حتى الفجر. انتظرت عندهُ حتى أشرقت الشمس، ذهب هو وأباه معي لدفن موريس.

دفنّاه في مقبرةٍ كانت حديقة قبل عام، أما الآن فقد امتلأت بقبور الشهداء بسبب الحصار ومنع الأهالي من دفن موتاهم في مقبرة المدينة.

كتبتُ على قبره بيدي " من آمن بي وإن مات فسيحيا"

جملةٌ سمعتها كثيراً، ولكن هذه المرّة قد تركت أثراً في قلبي، كأني أسمعها لأوّل مرّة، الموت في سبيلِ القضية خلود، والعيش بلا قضية كموت الجبان يموت ألف مرّة في الساعة، كل شيء حولنا قضية، والدين قضية، وقد وضّح ذلك سيدنا عيسى عليه السلام بجملتهِ تلك، لأن الموت في سبيل القضية حياة، والحياة بلا قضية موت بطيء.

وصلتُ منزلي عند الظهيرة، كانت زوجتي قد ولدت عند أول الصبح، حين دخلت عليها، أعطتني أمي طفلي الثاني " عمر" لأؤذن في أذنه.

مضت الأيام هادئة، حتى بداية العشرة الثالثة من أيلول، بدأنا نشعر بتحركاتٍ غريبة، بدأت أعداد الحواجز تتزايد، وبدأت الدوريات تبدو بشكلٍ مكثف، حتى الدبابات والمصفّحات أصبحنا نشاهدها في بداية الشوارع الرئيسية.

في اليومين الأخيرين انقطعت المياه والكهرباء والاتصالات في حيي الجورة والقصور، بقيت الكهرباء فقط في محيط أمن الدولة والسجن المركزي والمحافظة، وفي بداية حي الضاحية.

في مساء يوم الاثنين، انتشر خبر بين الناس أن الأمن سيقوم بحملة تفتيش واسعة في الصباح، ستطال الحي بأكمله في الجورة والقصور.

عن نفسي لم أكن خائفاً، أنا وحيد وليس عندي أيّةُ مشاكل بالنسبة للخدمة الإلزامية أو الاحتياطية، ولم يكن في منزلي أيّ شيء يدعو للقلق.

كنت أسكن مع أمي بعد أن هُدِمَ منزل العائلة التي كانت تسكنهُ أمي، في إحدى الهجمات منذ شهرين تقريباً، توفي أبي قبل عام ونزحت أختي وأولادها وأختي الثانية مع زوجها إلى محافظة الحسكة، ولم يبقَ سواي مع أمي، كانت أمي ترفض الخروج من ديرالزور مهما كلّفها الأمر، كانت تود البقاء في المنزل حتى بعد أن هُدِم بالكامل لولا اصراري على أن تذهب معي، ولولا حديث عمي الكبير معها.

في تلك الليلة كانت الاشتباكات عنيفة، وبعضها قريب من مدخل الحي.

استيقظت في التاسعة صباحاً يوم الثلاثاء الأسود، كانت أصوات الناس في الخارج مرتفعة، خرجت فوراً لأرى ما الأمر، كانت "الزيل" بمحاذات البناء الذي أسكن فيه.

وقفت مع أبو فراس جارنا في الحي، سألته ما الأمر، نظر إلي وقال بصوتٍ منخفض: "قامت القيامة يا أبو عبدالله".

أحسست أن يداي قد رُبّطت ولم أعد أعرف ماذا أفعل، كان الخوف يأكل الاطمئنان الذي في قلبي، كان المجهول ينهشني.

أحد العساكر يصرخ بنا، كان يحاول منع أيّ تجمّعٍ، طلب منا الذهاب للمنزل وعدم مغادرته.

قبل دخولي للمنزل رأيت أبو فراس يؤشر لي بيده أن آتي إليه، قال لي أن أختبئ في القبو أو على سطح البناء، أكد لي أنهم يأخذون جميع الرجال من المنازل وبأن دورنا قد بات قريباً.

لم استطع ترك زوجتي وأمي، لم أخرج من المنزل حتى طُرق الباب علينا.

فتحت الباب، كانوا ستة عناصر، دخلوا المنزل دون أيّ كلام، قيدني أحدهم فور دخولهم، بدأت أمي بالصراخ فقال أحدهم: اهدئي يا خالة، سنفتش المنزل فقط.

لم يتركوا شيئاً إلا وفتشوه، حتى الثقب في الحائط، كسّروا معظم أثاث البيت وأخذوا هويتي وخرجوا.

قبل مغادرتهم البناء لحقت بهم وسألت أحدهم عن هويتي، نظر إلي وقال تعال معنا.

حين خرجت للشارع رأيت رجال الحيّ مصطفّون ووجوههم نحو الحائط، وقفت بجانب أبو فراس علّي أفهم شيئاً، لكني كلما سألت أحداً كان يقول: "الله أعلم"

بقينا كذلك نحو الساعتين، كنّا نسمع من بعض الجنود أن أعداد القتلى تجاوز المئتين، لم نكن نعرف هل يقصدون إخافتنا أم تحذيرنا.

بدأ أحدهم ينتقي منّا بشكل عشوائي، حين وصلني سألني إن كنت قد أنهيت الخدمة الإلزامية، أو كنت مطلوباً للاحتياط، قلت له: أنا وحيد يا سيدي، وقد سرحتني إدارة التجنيد لهذا السبب، وأسقطت عني الاحتياط.

ضحك بسخرية واضحة وقال: "إي تعال لهون، شو الفايدة منك لكا".

رأيت أمي وزوجتي تقفان بجانب البناء، كانتا تحاولان التقدم أكثر ولكنّ العساكر كانوا يمنعونهم.

وقفنا عند أول الرصيف، كنّا عشرين رجلاً تقريباً، بعدها بدقائق بسيطة بدأتُ أسمع أصوات الرصاص، في ثواني قليلة رأيت أبو فراس والدم ينفر من رأسه، كان ينتفض قربي، ثم شعرت بجسدي يُسحب للأسفل، سمعت أمي تصرخ، رأيتُ زوجتي تسقط أرضاً ثمّ لم أرَ شيئاً.

فتحتُ عينيّ ببطء، لم أكن قادراً على تمييز شيء سوى صوت زوجتي، كانت تقف بجانبي تحمد الله وتبكي.

عرفت حينها أنّي لم أمت، تمّ اسعافي لحي الرشدية بمساعدة أحد الجيران وبأنّ اصابتي قد تفقدني الحركة، ولكن لله الحمد لم أفقد حركتي، لكنّي فقدت أمي حين سقطت ميتة لحظة سقوطي برصاص جيش بلدي.

علمتُ من زوجتي أنّ الحيّ تحول يومها لبركة دماءٍ كبيرة بعد أن قتلوا أكثر من أربعمئة وخمسين رجلاً وطفلاً وامرأة، علمت أيضاً أنهم قتلوا وحرقوا جثث جميع من خرج من ناحية شارع بورسعيد عند المقبرة في الفترة ما بين ٢٤ حتى ٢٨ من أيلول، وبأنهم وضعوا عمال المخبز الوحيد في الحييّن في الفرن أحياء حتى لم يبقَ من رفاتهم شيئاً.

قتلوا الشيخ أمين إمام جامع التوبة، وقتلوا جميع من كان في الجامع، حرقوا جثث عائلاتٍ كاملة فقط لأنّ أحد أقاربهم من الثوار، قتلوا رجلاً في السبعين من عمره فقط لأنه من عائلة " هنداوي".

أشياء كثيرة تمنيت لو أني لم أعلم بها، لم استطع وقتها العودة للحي لأدفن أمي بقبرٍ بدل القبو الذي دُفنت فيه.

علمت أيضاً أنّ زوجتي أجبرت على توقيع أوراق تقول فيها إنّ الإرهابيين هم من قتلوني.

علمت أنّ الهولوكوست الألماني لا يقل بشاعة عن الهولوكوست السوري الذي يحصل يومياً في بِقاعٍ مختلفة من سوريا.

كان الهدف من هذه المجزرة هو ضرب الضعيف حتى يخاف القوي كما يُقال، حتى يُضعفون شوكة أبطال الجيش الحر، وعلمت أيضاً بمجزرة النفوس التي حصلت في يوم الأربعاء والتي كانت سبباً لتمهيد الطريق أمام مرتزقة الدواعش التابعين للنظام حتى يقضون تماماً على جميع الكتائب والوحدات للجيش الحر.

استطعت فور شفائي الذهاب إلى مدينة الحسكة، ثم هاجرت إلى تركيا أحمل على ظهري جثة أمي التي لم أدفنها، وصرخات الكثيرين، وجثة وطني الذي مات قبلي بعامٍ ونصف[1].

*** *** *** ***

[1] شهادات الأهالي.
الموقع الرسمي للمرصد السوري لحقوق الإنسان.
اللجنة التوثيقية لشهداء دير الزور، والكثير من المقاطع المصورة للمجزرة.

ومضة...

لم يكن يعلم الضحايا ولا ذويهم، أنّ الجريمة التي وقعت بحقهم سيطلق عليها اسم الجريمة المنسية، رغم أنّ مجزرة الجورة والقصور من أكثر الجرائم بشاعة ودموية، لكنّها في الوقت ذاته من أكثرها غياباً عن الذاكرة السورية، ومن أصعبها توثيقاً وتدقيقاً، إذ أنّ وقوعها في مناطق سيطرة (النظام)، جعلها بلا أرقام دقيقة عن أعداد الضحايا، وبلا أرشيف بصري يدعمها.

لكن من خلال المعلومات التي يتناقلها الناشطون في ديرالزور، فإنّ الأيام الأولى قد وثّقَ فيها أكثر من 500 ضحية، واكتشاف أعداداً أخرى في الأيام اللاحقة، وهنالك آخرون يقدرون أن عدد الضحايا الإجمالي في المجزرة قد تجاوز 700 ضحية.

مجزرة الجورة في دير الزور، مجزرة الكيماوي في الغوطة الشرقية في دمشق، مجزرة الحولة في حمص، مجزرة نهر قويق في حلب، مجزرة خان شيخون، مجزرة الباغوز في البوكمال، مجزرة المعرة في أدلب، وجميع المجازر اليومية التي يقوم بها النظام بمساعدة مليشيات حزب الله اللبناني والمرتزقة الإيرانيون والروس، ما هي إلا حقداً دفيناً ودليلاً واضحاً على وحشية النظام وإجرامه، هم يتقصّدون ضرب الضعيف لأن الثوار قد أوجعوهم في عقر دارهم، ولكن لا بواكٍ للسوريين.

حتى المجازر اللاحقة التي قامت بها "قوات قسد" أو "داعش" أو حتى قتل المدنيين من قبل الجيش الحر، أو أياً من الأطراف المتقاتلة في حق المدنيين، لا تسمى بأيّ اسم آخر غير الإجرام، أياً كان هدفها ومهما حملت ورائها من أهدافٍ أخرى، يبقى اسمها إجرام، ولكن لا بواكٍ للسوريين..

فرح

الدنيا أعطتني مثالاً حيّاً لأحمدَ الله عمّا أنا فيه، دائماً نعتقد أن همومنا هي أعظم مشاكل العالم، وحين نعرف هموم غيرنا لا يسعنا إلا أن نركع لله حامدين وشاكرين.

لم يكن يزن مَن يكلمني، كان شخصاً آخر، أعتقد أنهُ فقد كل أشكال الحياة ولم يعد لهُ ما يعيش لأجله سوى قمر، أعتقد أن الله قدر كل ذلك ليُبقي لقمر من يعتني بها، ولتبقى هي كأملٍ يتعلق به.

لا أنكر أنّ صوته أعاد لروحي بهجة كنت قد افتقدتها منذ زمن، أعادني لزمنٍ أحببته رغم قساوته، حاولت جاهدة أن أكون فرح التي يعرفها، فرح القوية التي تشعّ فرحاً وروحاً لمن حولها، حتى حين أخبرته أني مخطوبة، قلت له أني سعيدة جداً وأني سأتزوج قريباً، لم أخبره ما أنا فيه، لا أريد أن أضيف همّاً فوق همّهِ.

رغم انكساري ما زلت صامدة، لا أريد لأحدٍ أن يرى انهزامي، جاهدت دوماً أن أرمم جروحي وأنهض ثانيةً، كي لا أعطيهم فرصة أن يروني مهزومة، لأنّ الفرح الذي سيولد في عيونهم سيذبحني، حين أبقى صامدة سأكون الأقوى.

لا أنكر أني خسرت كثيراً، وأكبر خساراتي كانت نفسي، صعب جداً أن تعيش بروحٍ ليست لك، أن تحكي أفكاراً ليست أفكارك، أو تتحدث بشيء لست مقتنعاً بهِ، كنت أعتقد أني مجبرة، لكني اكتشفت مؤخراً أني من قيدّتُ نفسي بحبالٍ واهية لا أساس لها ولا وجود، أدركت أخيراً أن الوقت قد حان لأخرج مما وضعت نفسي فيه، لأخرج من قوقعة ياسين.

يبدو أن كتِف ياسين لم يكن يليق بي، ولم أعد بحاجة لأيّ كتِف يسندني، لذا قررت ترك العمل والسكن والبدء من جديد.

تحدثت مع ياسين بكل وضوح، طلبت منه إجازة أو وقتاً مستقطعاً لترتيب حياتي، طلبت منه أن أكون لوحدي لفترة قصيرة.

تركت البيت الذي أسكن فيه مع خالته الكئيبة، انتقلت للسكن مع فتاة أخرى تعمل معي، كانت تسكن هي وأختها في بيت صغير جداً، ولكن لا يوجد فيه عيوناً تراقبني، كان ياسين نهاراً كأنه حارسٌ شخصي، وفي المساء تأتي ثريا لتلعب دور المراقب، اشتقت لنفسي، مللت العيش بنسخة لا تناسبني.

كانت آخر مفاجأتي بياسين هي ردة فعله حين طلبت منه الابتعاد قليلاً، تخيّلتُ للحظة أنه على الأقل سيسأل لماذا؟ لكنه لم يسأل!!

استطعت أن أجد عملاً جديداً، قريباً من المنزل الذي أسكنه، لكني عدت لنقطة البداية، النقطة التي كنت وما زلت خائفة منها "فتاة سورية عازبة تسكن مع فتاتين، أين أهلها"، ولكن لحسن حظي – أو أن الدنيا ساعدتني هذه المرّة – لم يكن معنا في العمل سوريين، جميعهم أتراك، كانت فرصة جيدة لأنهض بذاتي قليلاً.

مرّ اليوم الأول، كنت أنتظر اتصالاً من ياسين لكنه لم يتصل، مرّ الثاني ولم يتصل، في اليوم الثالث عصراً اتصلت به، لم يجب على اتصالي، تركته حتى المساء لم يعاود الاتصال بي.

مرّ الأسبوع الأول، اتصلت به، كان هاتفه مغلقاً، اتصلت بثريا خالته، كان هاتفها مغلقاً، حين جاءت مريم الفتاة التي أسكن معها وتعمل معه ولكن في قسم البيع، سألتها عنه إن كانت شاهدته في المستودع، سكتت قليلاً ثم قالت منذ ثلاثةِ أيام لم يأتِ للعمل، لقد سافر لسورية للاطمئنان على والده ولتجديد إقامته حين العودة.

كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر علاقتنا، استغربت كثيرا، آلمني قلبي عليّ، لم أحزن على شيء كما حزنت على نفسي، كان بإمكانه إخباري، لكنه اختار البعد لنفسه.

لم أجد من ألجئ إليه سوى يزن، رغم ما فيه لكنه كان أقوى مني.

أضحكني حين قال: يبدو أني "صبتك بالعين"، وأبكاني حين قال: الفرح لا يليق بنا يا فرح.

كنت أسمع صوت قمر بجانبه تغني، طلبت منه أن يقترب إليها أكثر لأسمع.

كان صوتها جميل وهي تغني مع أغاني قناة الأطفال، تمنيت لحظتها أن أعود طفلة.

قال يزن أنّهُ ينوي فِعلَ شيء ويريد رأيّ فيه، ومساعدتي إن تطلّب الأمر.

شرح لي عمله الجديد في المنظمة، وظيفته متعبة جداً، ليست متعبة جسدياً بقدر ما تأكل من الروح وتحطم النفس.

قال لي أنه ينوي توثيق القصص التي يعرفها، والتي سمعها من المراجعين، ليعرفها جميع الناس، كان ينوي أن ينشئ مدونة في .google.

أحببت فكرته كثيراً وشجعته على القيام بها، أبديتُ لهُ جاهزيتي للقيام بأي عملٍ يُطلبُ مني.

بعد أيامٍ قليلة أرسلَ لي رابطاً خاصاً بالمدونة، كانت تحمل عنوان " سوريون جداً" استغربت الاسم وأحببته، كان منطقياً جداً ومؤلماً بما يكفي ليكون التاريخ منصفاً ولا يُكتب فقط بيد المنتصر.

"سوريون جداً" عبارةٌ جاءت بتعاريف كثيرة، بشروحٍ لا يمكنُ حصرها بجملة أو اثنتين، سوريون نحن بكرامتنا التي خرجنا بها، بطباعنا وأصالتنا، بعنادِنا في وجهِ

المصاعب، بروحنا التي تنبت الياسمين فوق صخور العجز، بقلوبنا التي تدفق حبّاً حولنا، سوريون بوجوهنا المالحة التي أضناها التعب، بأيدينا التي اعتادت أن تمدّ لغيرنا حتى وإن تقطعت في وجهنا كلّ الأيادي، سوريون بنظرتنا للحياة وإن اسودّت في نظرنا، سوريون لا تغيرنا الظروف ولو طحنتنا.

كحبة القمح نحن، نُطحن برحى الدنيا لنصبح طحيناً ثم تشوينا نارها لنصبح رغيف خبز بيد فقير، أو كريحانةٍ تفوح عطراً كلما غرقت أكثر، سوريون جداً مهما تغيرت ألواننا ومهما تفرقت ألسِنتنا ومهما تكالبت علينا الظروف.

كنتُ أتأمل سماء اسطنبول الواسعة، كلما تنفستُ كانت رغبتي بالصراخ تزيد.

تمنيت أن أصبح فجأة لوحدي في فضاء خالٍ، تمنيت أن أصرخ لعلّ ما في جوفي يخرج مع صراخي، لعلّ دمعتي تنزل أخيراً لتطفئ النار التي اشتعلت في صدري.

احتقرت نفسي كثيراً، مضى على سفر ياسين خمسة عشر يوماً ولم يتصل أو حتى يرسل رسالة، فكّرتُ أن أرسل له، أو أن أحذفه من هاتفي ومن ذاكرتي، لكن تجربة الحبِّ كالموت لا تُنسى بسهولة.

الخيبة مثل الموت تأتي كبيرة، فتصغر مصيبة الموت وتُنسى، أما الخذلان فلا يصغر ولا يُنسى، الخيبة والخذلان يكبران في قلوبنا كلما تذكرناها.

رنّ هاتفي ليكسر رحاب الصمت الذي كنت فيه، كان رقماً تركياً لا أعرفه، اعتقدتُ أنه ياسين، أجبتُ بصوتٍ منخفض.

- ألو...

- مرحباً فرح، كيف حالكِ، أنا وائل صديق ياسين، التقينا مرّةً في شارع وطن.
- أهلاً وائل، أتذكرك جيداً... كيف حالك، تفضل.
- حقيقةً منذُ سفرِ ياسين وأنا أريد الاتصال بكِ ولكنّي لم استطع، لضيق الوقت وفحوى الاتصال، لقد اتصل بي ياسين وطلب لقائي، حمّلني أمانة، حاولت جاهداً أن أبقى بعيداً وأعتذر له، لكني لم استطع كان يرفض اعتذاري، يجب أن نلتقي لأعطيكِ الأمانة.

كان صوته منكسراً خجولاً مما يقول، لم أطلب منه معرفة الأمانة، أحسست أنهُ يريد إنهاء الاتصال بأقل الكلمات.

التقيت به مساء اليوم الثاني، تفاجأت حين عرفت أن سكنه ليس بعيداً عني، كان لبقاً جداً بالحديث معي، اعتذر كثيراً، تلبّك قليلاً وهو يعطيني الأمانة، منديلاً كنت قد نقشت اسمي واسم ياسين عليه، وبداخله خاتم ياسين.

ابتسمت حينها، أراد وائل أن يبرر موقفه، حاول أن يؤكد لي أنه لا يعلم أيّ شيء، قاطعتُ كلامه وأكّدتُ لهُ أنّ ياسين نفسه لا يعرف لماذا، ولست متفاجئة أصلاً بما قام به، هو متردّدٌ دائماً وقراراته متبدلة.

أثناء جلوسي مع وائل جاءتني رسائل من يزن، فتحتها حين عدتُ للمنزل، كان من ضِمنها رابطاً جديداً، طلب مني أن أفتح المدونة عبر الرابط، وأقارن بينها وبين المدونة الجديدة، وأعطيه رأيي أيهما أجمل.

كان التصميم أجمل بكثير، عرفتُ لاحقاً أن ياسر من ساعده بالتصميم وشراء الموقع، كان موقعاً إخبارياً توثيقياً، ليس فقط مجرد مدوّنة.

تصفحتُ أقسامها، شاهدّتُ جميع الصور فيها، جميع مقاطع الفيديو المحمّلة، قرأت بعض الومضات وبعض النصوص، استغربت كثيراً...

كيف استطاع بهذه السرعة إنشاءها وتدوين ما فيها، توقفت عند الاسم فقط...

" عرب ٢٠١١ "

تخيلتُ للحظة، هل سيطلقُ فعلاً على السوريين في سوريا " عرب ٢٠١١ "

هل سيصبحون كفلسطينيي القدس! ونحن الذين في الخارج، هل سنبقى لاجئون للأبد!

أهٍ كم نحن سوريون... سوريون جداً.

مدونة عرب ٢٠١١

مجزرة نهر الشهداء(قويق)

حلب – بستان القصر

يقول "الممرض م دهمان :"في تمام الساعة 6:30 صباح يوم ٢٩ كانون الثاني لعام٢٠١٣، صحونا على أصوات صراخ وتكبير، وهناك من يطرق علينا باب المستشفى الميداني بقوله" :يا طبية مجزرة"..، وعند توجهنا للمكان رأينا عربة لبيع الخضار والفواكه مليئة بالجثث فوق بعضها البعض.

ويضيف: أن أحد الشبان طلب من الكادر الطبي أن يفحص الجثث ليتأكد هل هناك من على قيد الحياة ليتم إسعافه، وعند وصول الجثث إلى النقطة الطبية، لم نكن نعلم كيف قتلوا وظننا أن مجزرة وقعت نتيجة القصف.

عندما فحصنا الجثث كانت مكبلة الأيادي ومعصوبة العيون ومكمومة الأفواه والطين يغطيها، وعند لمسنا ليد أو رجل الجثة نشعر وكأنها ستفلت من جسد الضحية نتيجة انتفاخها بالماء، والرائحة "كانت فظيعة جداً، فتبين أنّ الجثث كانت غارقة في نهر قويق. بدأت سيارات نوع "سوزكي" تتوارد إلى المستشفى الميداني تنقل كلّ عشر جثث على حدى، والمستشفى لم تتسع لكلّ الجثث، فقمنا بفرد الجثث أمام باب المستشفى وامتدت على طول الشارع، فيما بدأ البكاء والصراخ من الأهالي الذين فقدوا أبنائهم بالاعتقال، مشيراً إلى أنّ المشهد حينها لا يمكن وصفه.

ويشير إلى أنّهم في الكادر الطبي اقترحوا نقل الجثث لمدرسة قريبة اسمها "اليرموك" لتبدأ مرحلة تكفين الضحايا في النقطة الطبية عبر غسل وجوههم وفك القيود من

أجسادهم، ثم إرسالهم إلى المدرسة حتى يتعرّف الناس عليهم، وكان عدد الضحايا في اليوم الأول نحو تسعين جثة.

ويذكر "دهمان "قصة لم تذهب من مخيلته، كانت لجثة طفل عمره نحو 15 سنة ،(سمعتُ صوتًا مرتفعًا أرجف قلبي حينما ركضت سيدة تحضن الجثة وتقول: والله ما بدي ابعتك لعندن حتى تشتغل بس مجبورين بدنا ناكل ونشرب).

ويوضح: أنَّ الأم كان ابنها يعمل في مشغل خياطة بمنطقة الفيض الخاضعة لسيطرة النظام، وفقدته قبل المجزرة بحوالي شهر، لتجده بين الجثث وتعرّفت عليه عبر علامة موجودة في جسده، لافتاً إلى صعوبة التعرّف على الجثث لأنَّ طريقة القتل كانت عبر طلقة بالرأس من الخلف وتخرج من الوجه.

الجثة مشوهة تماماً وهناك الكثير من الجثث لم يتعرّف عليها أحد، فيما استمرت عملية انتشال الجثث من النهر حوالي ٤٥ يوماً، وهناك جثث وصلت لريف حلب، وبحسب وصول الجثة لأيّ منطقة يتم سحبها وإخبار المعنيين لتوثيقها.
وينوه "دهمان "إلى أنّه كان أحد الذين أخذوا عينات من شعر الجثة لتحليلها، وتم تسليمها أصولاً للطبابة الشرعية، وكان عددٌ من المحامين حاضرين في تنظيم ضبوط الوفيات وأخذ شهادات الأهالي الذين تعرّفوا على الجثث والأهالي الذين لديهم أبناء مفقودين، وتم تسليم الجثث لذويها بعد تنظيم ضبط من قبل الشرطة الحرة والمحامين ليتم دفنها.
ويلفت "دهمان "إلى دور الإعلاميين الكبير بتوثيق هذه المجزرة، ويتأسف لعدم وجود مكان لدفن هذا العدد الكبير من الضحايا غير المعروفين من الجثث، فتم اقتراح دفنهم بشكل جماعي في "حديقة القباقيب "المطلة على قناص الإذاعة الذي استهدف المدنيين عند انتشالهم للجثث ما أوقع إصابتين على الأقل وتسبب بتأخير عملية نقل الضحايا من النهر.

ويؤكد الشاهد على تلك المجزرة، أنّ الفاعل هم ميليشيا تتبع للمخابرات الجوية والأمن الجنائي وعناصر من جيش النظام السوري المتواجدين حينها على الحواجز، وذلك لأنَّ أحد عناصر النظام ممن شهد المجزرة تحدث لنا بعد إلقاء القبض عليه عن تفاصيل لا توصف، وتم نشر حديثه على منصة يوتيوب، ويوجد نسخة منها في الملف الذي تم تحضيره لتقديمه للمجتمع الدولي لإدانة نظام الأسد.

من جهته الخبير الجنائي د. م كحيل قال: أن عدد الضحايا يُقاربُ ال٣٠٠ شخص لكن ما تم توثيقه في الطبابة الشرعية بمحاضر ضبوط بلغ ٢٤٠ جثة "تم انتشالها من هذا النهر على مدى ستة أسابيع حيث تم انتشال ٩٠ جثة في اليوم الأول، وبقية العدد تم انتشاله على دفعات يوميًا.

وينوّه "كحيل "إلى أنَّ انتشال الضحايا استمر حتى ستة أشهر لأنَّ هناك جثث كانت عالقة في جذوع الشجر على ضفة النهر ولم تظهر لبعد أشهر، كما حرّرت العوامل الجوية بعض الجثث لتطفو على المياه، بعد أن كانت عالقة في قاع المياه نتيجة الطمس والطين، وهناك أشلاء كانت ممزّقة، فنحو٦٠ جثة لم يتم توثيقها نتيجة التمزّق.

إحدى الأمهات قالت- :كما جاء على لسانها- ((راح ع بيت عمه مشان يحل خلاف صغير ومارجع، بيت عمه بالسكري، وكنا راح نجوزه بعد اسبوعين وكلشي جاهز، بس الله راد غير شي، وهالنظام الظالم خطفه من قدام عيني وهو عريس.

طلع من بيت عمه وخبرني اذا لازمنا شي، وصيته ع شوية غراض، هو معه بطاقة جامعية وهو مانو مع الثورة أصلاً، بس مانو ضدها، ولكن ماكان بده الأمور تصل للدم، ومع هالشي ماكان يتدّخل لا بهدول ولا بهدوليك.

إلنا شهر ونص مندور عليه، ماظل مطرح ماسألنا فيه، الأمن العسكري قال عنا بس كان بدن مليون ليرة ليطلعه، ماكان عنا هالمبلغ، ولما تواسطنا مشان ينزلو المبلغ شوي، نكروا أنه عندن، ومابقا نعرف مين صادق ومين كذاب.

وليكو هلئ ملحوش بين هالجثث مربطيلو ايديه وتمه، أنا ماعاد بدي شي، وبعرف أن ما يرجع شو ما سوينا، بس سؤال واحد، شو ذنبه...؟))[2].

[2] شبكة آرام التوثيقية.
شهادات الكثير من الأهالي والكثير من المشاهد المصورة.
المرصد السوري لحقوق الإنسان.
تلفزيون حلب اليوم وتلفزيون سوريا مباشر.

ياسين

لم أكن أنانياً، كنت أعلمُ منذ البداية أن فرح كانت بحاجة لمن يقاسمها المصائب التي غزت حياتها، كنت مثلها تماماً، كان لابُدّ لي من نهارٍ يمحو الليل الذي خيم بحياتي منذ استشهاد مريم، منذ استشهاد الحب الذي تربيت عليه.

كنت أرى إننا متساويان، يكمّل بعضنا الآخر بطريقة ما، ينسي بعضنا الآخر ما يحمل من هموم.

أدركت منذ البداية أن فرح استخدمتني لتنسى حباً أو تهرب منهُ، ولترمي ببعض همومها فوق ظهري، لم أمانع... كنت أيضاً بحاجة الأمر نفسه، ولكن شعرت في منتصف طريقنا إنها تحبني فعلاً، لم أحاول التخلي أو صدها، على العكس تماماً، حاولت بكل طاقتي رميَ مريم وراء ظهري والنظر لمستقبلي، للحياة التي تنتظرني، لم استطع بالبداية، ونجحت بعد ذلك، ولكن يبدو أني تأخرت كثيراً.

حين توغلت فرح في قلبي جيداً وأدركت أني أحبها فعلاً، كانت علاقتنا في طور الانكسار.

العلاقات كالدول، لها أطوارٌ ومراحل، غالباً يكون طور التعارف يقابل في الدولة طور البناء، وطور التعلق وفهم الآخر هو نفسهُ طور الازدهار، ثم يأتي دور الانكسار أو الاستمرار الأبدي، أنا لم أرَ ازدهاراً.

حاولت في النهاية قطع المسافة المتبقية بخطوة واحدة، طلبت الزواج، فرفضت، قلتُ لها تؤجل قليلاً إن أردتِ، لكنّ كلامها كان مغلفاً بالرفض، ثم ما لبثت وإن طلبت الابتعاد، وهي تعلم تماماً أن الحبّ والابتعاد عدوّان لا يجتمعان.

لم يكن سفري لسورية للاطمئنان عن أبي فقط، رغم أنه سبب محوري، ولم يكن لتجديد الإقامة عند الرجوع، كانت غايتي الابتعاد قليلاً عن مسرح الحب الذي يجمعني بفرح، نعم كانت تمثيلية وللأسف كانت سخيفة من الطرفين.

في زيارتي الأولى لدمشق قبل عام، كانت الأوضاع أسوأ قليلاً، لكنها كانت أفضل بألف مرّة عن وضعها الحالي، لم تكن دمشق، كانت شبيهتها، لم تعد قلب العروبة النابض كما كان يقول عنها جمال عبد الناصر، كانت عروساً بكامل زينتها ولكنها جثة.

قبل عام مشيت كثيراً في أزقتها القديمة، كانت ما تزال تحتفظ ببعض تراثها، كانت ماتزال دمشق ولو غيرت شيئاً من ملابسها، أما الآن أصبحت جرداء عارية من كل شيء يمتُّ للتراث بصلة.

حتى الناس تغيرت، ألسنتها تغيرت، نظراتها أصبحت باردة، قُتلت الحياة في صدورهم، أصبح الشعب بأكمله ينتظر دوره بالموت.

الرايات السوداء واللّطميات، والشِعارات الحسيّنية قد ملأت أزقتها، اصبحت بشكل ما مدينة العمامات النّجفية، أصبحت حزينة ككربلاء رغم أنّ وجهها موصلي.

في العام الفائت استقبلني أبي في المطار، فرحت كثيراً وبكيت كثيراً، هذه المرّة لم أفرح ولم أبكِ، لم يكن عندي أيّ شعور لأخرجه، لم يكن أبي بانتظاري رغم معرفته بقدومي، لقد حال بينه وبين استقبالي "المواصلات" المفقودة في معظم دمشق.

كنتُ قد وضعتُ الشريحة السورية لتفعيل الأنترنت وأنا في المطار، لأرى إن كانت نظريتي خاطئة تجاه فرح أم لا، لم تكن خاطئة لم يأتِ منها أيّ رسائل حتى يومنا السابع، وكنت أضعف من أن أبادر.

اتصلت بوائل لأتأكد إنه التقى بفرح أم لا، كان يحاول اقناعي بالتريث والتروي وإيجاد حلّاً ينصف الطرفين، وأكد أنهُ سيلتقي بفرح في الوقت المناسب، اعتقد أنه كان يريد

إعطائي فرصةً للتفكير، كان يعتقد أنّ خلافاً ما قد ابعدنا، لم أكن أشرك أحداً بأموري الشخصية، حتى خالتي ثريا لم تكن تعرف السبب الحقيقي لانفصالي عنها، وقد ضنّت نفسها قد انتصرت واستطاعت اقناعي بتركها لأنّ " نفسيتها حامضة"

كان أبي هزيلاً جداً كدمشق، كان متعباً كبقية الناس، وحين سألني عن فرح،

قلت له: دمشق مازالت جميلة رغم تعبها وستبقى كذلك، لكنّ فرح لا تؤمن بهذا، لم تعد فرح التي أعرفها سابقاً.

في الصباح سمعت أصواتاً غريبة قادمة من الشارع العام، نظرت من النافذة، كان الناس مصّطفّين عند "أفران ابن العميد" يقفون برتل بدايته عند فوهة البيع ولم أرَ أخره، وحين خرجت ظهراً رأيت الناس قد وصلت إلى ما بعد بناء البرج.

كنت أشاهد الأخبار بشكل متواصل دون انقطاع، الكثير من التقارير اليومية والأخبار الساعية، مئات المشاهد المصورة قد رأيتها سابقاً لمدينة الطوابير ولكن الحقيقة أبشع بكثير، أسفي على الشام إن أصبحت بلد المليون جائع.

اتصل بي وائل في آخر إجازتي، ليخبرني أنه منذ دقائق كان مع فرح وقد أعطاها الأمانة بعد أن فقد الأمل مني، سألته إن كانت أوصته أن ينقل لي كلاماً ما، فقال لي جواباً شعرت أنه كخنجرٍ يخزّ قلبي، قال: " فرح أرجل منك " لم تقل شيئاً واكتفت بكلمة وفقه الله.

شعرتُ أني اشتقتُ لها فجأة، شعرت أني خسرت شيئاً ثميناً لم أستطع المحافظة عليه، فتحت برنامج "الوتساب" فوراً، كانت متواجدة ولكني كنت أجبن من أن أعتذر منها، حينها تذكرت أن فرح طلبت مني شراء فستاناً لها حين ذهابي لدمشق، حين رأتهُ في إحدى صفحات الإعلانات.

في المساء أخبرتني خالتي ثريا أنها لن تعود لتركيا، ستبقى بالقرب من جدتي وأوصتني أن آتي إلى حلب، أيُّ حلب آتي إليها ولم يعد في حلبٍ حلب.

كل حلب وكل ذكرياتي فيها نسفتها قذيفةٌ قذرة من يدِ مجرمٍ سافل لا يخاف الله ويقاتل باسمه.

جريئةٌ اسماء جماعاتهم، يطلقون على أنفسهم مسميات دينية وهم لا يعرفون عن الدين شيء، الدين الذي قال:

"وِلَا تَقْتُلُوا النَّفس الّتي حَرّم الله إلّا بالحقّ"

وهم يقتلون باسم الدين الذي حرّم القتل.

في الصباح الذي سبقَ يوم سفري، وأثناء ذهابي لشراء بعض الأغراض وفستانُ فرح، اتصل بي والدي يطلب حضوري فوراً، كان صوته جافاً خائفاً، حاولت سؤاله عن الأمر فلم يزد على " لا شيء... تعال بسرعة".

لم أتأخر، عشر دقائق كنت واقفاً عند الباب، وكان الأمن العسكري قد قلّد يداي "بالكلبش" وطمّش عينيّ بكنزتي وأنزلني رغم توسلات والدي لهم.

منذ بداية الحرب، منذ أول فتنةٍ أطلقها إرهابيو درعا، وأنا أتجنب التفكير باعتناق مذهبهم الوحشي والمضي مع أفكارهم، منذ البداية لم أقف على الحياد، كان موقفي مدروساً ومحدداً، نحارب الأخطاء بالمنطق ونقتلع جذور الفساد بالحكمة، هذه الجملة التي بنيت كل اعتقاداتي عليها، كنتُ وما أزال مؤمناً جداً بالوطن، الوطن الذي لا يظلم أبنائه أبداً، هل كنت مخطِئاً؟!!

كنتُ خائفاً، يرتجف قلبي وأنا أُقاد كأحد المجرمين، لا أعرف ما الأمر، المجهول كان عدوي وقتها.

كانوا يضربونني وهم يقودوني نحو سيارتهم، وكنت أصرخ، وأسمع أبي يصرخ، ولكني لم أكن أشعر بضربهم، كان ضربهم أشبه بتمثيلٍ متقن، حتى أبي لم يكن يتوسل كأبٍ يُقاد ابنه لمثواه الأخير، شعرت للحظة أن هنالك خطأ ما، الشيء الوحيد الذي كنت متأكداً منهُ، أني لست حالماً.

حين ركبتُ السيارة ومشت بنا، أزال أحدهم كنزتي عن رأسي، وأشار إليّ بالسكوت والهدوء، أردت التحدث وسؤالهم عمّ يدور، ولكن أسكتني وقال: ستعرف كل شيء بعد قليل.

قبل وصولنا لمقر الأمن العسكري في المزّة، أعاد تطميشي، وعاد صراخهم وضربهم لي، ليعود معه خوفي من جديد.

وضعوني بغرفةٍ تحت الأرض، الرطوبة قاتلة ورائحة العفن تقتل الهواء المتبقي في الغرفة، لم يكن معي أحداً فيها، لكن صوت الصراخ كان يصلني واضحاً ولم أشعر للحظة بأنه تمثيل.

بقيت بالغرفة حوالي العشر ساعات، كانت يداي ما تزال مكلبشة، وقد أزالوا الكنزة عن وجهي لأرى بوضوح ما حولي.

سمعت همساً عند الباب، من ثم فُتِحَ الباب ودخل عليّ عسكريٌ يحمل بيده طعاماً وماء، كانت رائحة الرطوبة قوية جداً ولكن رائحة الطعام استطاعت أن تخترق الرطوبة وتتوغل بأنفي، رائحة الكباب لا يقف أمامها شيء... كباب!!

الآن فقط علمت أنّ هنالك لبسٌ ما، لم يكن خطأً كما ظننت، الآن فقط شعرت بالخوف الصريح.

قبل أن أنهي طعامي بقليل دخل عليّ العسكري ذاتهُ وأخذني للأعلى، لمكتب أحد الضّباط، تفاجأت بأبي يجلس معهُ مبتسماً، فكّ العسكريُ الكلبش من يدي وخرج، أمرني الضابط بالجلوس، وأبي ما زال مبتسماً، لكنّ وجههُ كان يقول غير ذلك.

قام الضابط من مكانه وقال: معكم ثلاث دقائق...

سألت أبي فوراً: ما الأمر..

قال لي: لا تقلق، جئت لأودعك، أعلم أنّ سفرك غداً، لكنك ستسافر اليوم، الأمر يحتاج للتضحية، ستكون بطلاً يوماً ما وسأفتخر بك جداً.

كان أبي يتكلم معي وهو يغمز لي بعينه، كان يتقصد رفع صوته وتثبيت يديه، أشار إلي أخيراً برأسه فقلت له: حاضر، سأفعل ما استطيع.

رغم أني لم أفهم شيئاً حتى الآن، لكني فهمت أن أبي مجبراً على كلامه هذا، وكان يقصد العكس تماماً، لم يعد أمامي سوى الانتظار لمعرفة الأمر.

ودعني أبي كوداعه لي بالعام الفائت، حتى أنه لم ينسَ حقيبتي وقد جهزها بجميع أشيائي والأغراض الأخرى التي اشتريتها صباحاً، خرج أبي وهو ينظر إليّ، شعرت وقتها أنه يودّعني حقاً.

دخل الضابط مبتسماً وبيده ملفٌ وصور، وضعها أمامي وقال: القِ نظرة عليها وأخبرني إن كنت تعرف أحداً منهم.

بعد دقيقة جاءني سؤاله ثانيةً، ها... هل تعرف أحداً منهم؟

كنت خائفاً من الجواب، يبدو أنّ خوفي كان ظاهراً في وجهي، فقال:

لا تخف، إن كنت تعرفهم، سيوفر عليك ذلك عناء البحث عنهم، وعنائنا بإخبارك عن عناوينهم.

لم أكن استطع النظر لوجهه حين أحادثه، كان أشبهُ بغولٍ فارٍّ من خُرفات جدتي.

قلت له: ليس الأمر كذلك سيدي، أعرفهم جميعهم، ولكن معرفتي بهم بسبب أنهم دائمي الظهور والحديث خلف الشاشات، ولأنني بشكلٍ دائم أتابع الأخبار، هذا سبب معرفتي بهم، أعرف أيضاً أن أغلبهم يسكن اسطنبول.

نهض من مكانهِ ووقف ورائي وأمسك كتفيَّ بكلتا يديه وقال:

في مدينتنا يقدّمون الكباب في العزاء، ولكن للأسف الميتُ لا يأكل معهم، لذا قررت أن أكسر هذا التقليد اليوم، لقد أكل الميت فقط كباب عزائه.

العشرة رقمٌ صغيرٌ مقارنة بغيره والصفر لا شيء، ولكن إن وضعنا الصفر يمين العشرة تصبح مئة، وكلُّ صفرٍ يضاعف العدد مرتبةً.

وأنت جلست في ضيافتنا عشرُ ساعات، فكم صفراً تريد بجانبها؟

نهضتُ من مكاني وقلت لهُ: أرجوك ياسيدي، أبي مريض وأختايَّ شهيدتان، وأمي متوفية، ولا يطيق أبي فراقي، وقبل كلّ ذلك أنا لم أفعل شيء، وأعتقد أنكم تعرفون جيداً ما هو تفكيري.

هزّ برأسه وقال: في آخر الليل طائرتك إلى اسطنبول، وستذهب لبيروت حالاً، سأعطيك هاتفاً يوجد فيه "واتس أب" سيُطلبُ منك معلوماتٍ عليك إحضارها بأي ثمن، وسيُطلبُ منك مراقبة أشخاصٍ وستراقبهم بأي ثمن، لا تخف، هنالك من يراقبك أنت، لحمايتك طبعاً....

سيتواصل معك حال وصولك إسطنبول، وسينقل لك ما نريده منك، وستخبره أنت بما تريد إخبارنا به، انهض... حان موعدُ سفرك.

مدونة عرب ٢٠١١

دمشق مدينة الطوابير

(لا شيء يدعو للقلق، جميع الأمور تحت السيطرة، والمواطن جنباً إلى جنب في محاربة المؤامرة الكونية على سورية).

هذا ملخص ما قاله رفيع الشأن والمستوى في كلمته الافتتاحية لمقابلة لهُ في التلفزيون المحلي، وقد وصف دمشق بمدينة الياسمين والفرح، رغم الدموع المتناثرة في شوارعها.

مدينة الياسمين أضحت عبارة عن شوارع مكتظة بالطوابير اليومية، في الساحات العامة والشوارع الرئيسية والفرعية، تجد آلاف الرجال يحملون فوق ظهورهم القهر والذل وقرقرة معدة أطفالهم، يقفون ساعاتٍ للحصول على بعض الخبز المحددة كميته مسبقاً عبر البطاقة الذكية، ولا أدري حقيقة لماذا سميت بهذا الاسم.

الحكومة تلقي اللوم على المواطن، وبدوره المواطن يلقي اللوم على الحكومة ويلعنها " سرّاً "، ويهتف بحياة القائد في العلن.

في الماضي القريب، كانت الحياة في سورية مناسبة لجميع أطياف الشعب، الفقير والغني، الموظف والعامل والطالب، جميعهم كانوا يعيشون بحالة جيدة نوعاً ما، والوضع الاقتصادي لفئات الشعب ينقسم بين فقيرٍ ومتوسط وغني، كباقي الشعوب في المعمورة، أما الآن فقد اقتصر لقب غني على فئة قليلة من الشعب، قد لا تتجاوز نسبتهم الخمسة بالمئة، يتحكمون بمصير بقية الشعب السوري القاطن بين أنياب العوز وأضراس حكومةٍ جائرة.

ولكن في المحصلة فاللوم يقع على الدولة التي هيأت الفرص، وأعطت المقربين منها جميع الصلاحيات الممكنة لاحتكار كل شيء وجعله حلماً على أفراد الشعب.

سورية التي تملك منذ الأزل قوت شعبها من زراعة وصناعة، وقد كانت مصدراً لقوت الكثير من الدول المجاورة، أصبحت الآن شحيحة الموارد بسبب الانتهاكات التي تقوم بها الدولة بحق المزارعين والصناعيين، والموارد الكثيرة التي تقطعها عنهم لتصبّها في صالح المقربين وأبناء الطائفة الحاكمة.

ليُقسمَ الشعبَ في الداخل إلى عشرات الطوائف والأنواع، جميعها في نظر الحكومة لا يستحق الحياة إلا طائفته والمقربين منه، فازداد بذلك الفقير فقراً، والغني غنى.

تسمية "عرب٢٠١١" أطلقت تماماً على الفئة الباقية في أماكن سيطرة النظام وقوات سورية الديمقراطية "قسد"، وإن كان التشبيه أنسب لقاطني مناطق شرق الفرات التي تقبع تحت سيطرة القوات الكردية.

لا شبيه لهم اليوم سوى الكيان الصهيوني في فلسطين، فإن جعلنا المعادلة تصب نحوهم، سنجد الصهاينة في فلسطين يتمثلون بحكومة نظام أسد في مناطق سيطرته، بالإضافة لقوات قسد في مناطق سيطرتهم، وفي المقابل، يكون الشعب الذي أُطلق عليه قبل أكثر من سبعين عاماً لقب عرب ال٤٨ نسبة لذلك العام الأسود، فهنا بالمقابل نستطيع القول عن العرب الذين يقطنون منطقة الجزيرة السورية المتمثلة في محافظتي الرقة والحسكة إضافة لريف ديرالزور الشرقي، ما هم إلا "عرب ٢٠١١"، وكذلك الأمر بالنسبة للعرب السّنّة في مناطق سيطرة النظام العلوي الصفوي، لذا نجد التضيق المطلق على هذه الفئة دون البقية، ما تسبب بالكثير من المتاعب وصعوبة العيش.

وبالعودة لموضوعنا، فالطوابير أصبحت منذ عام ٢٠١٦ وحتى اللحظة، رمزاً تشتهر به دمشق وباقي المناطق التي تسيطر عليها قوات النظام، بسبب احتكار المواد

الأساسية للعيش، وأهمها الطحين، وبالتالي نقص الخبز وهو المادة الأساسية لجميع شعوب الأرض.

ومع استيلاء قوات قسد على أهم حقول النفط في سورية، والمتوزعة في ريف محافظة الحسكة وديرالزور، بدا واضحاً لدى الجميع النقص في النفط ومشتقاته، وهذه المواد هي العصب الرئيسي لاقتصاد أي دولة في العصر

الحديث. ولا يخفى على أحد كمية النفط التي تستخرج من هذه الآبار في المناطق المذكورة، والتي تقدر بآلاف البراميل يومياً، والسؤال هنا، أين هي؟

في شهادة لأحد سائقي الصهاريج التابع لقوات قسد قال:

كنّا نورّد بشكل يومي ما بين عشرة إلى عشرين ألف برميل، لمناطق سيطرة النظام، لا أدري ما المقابل ولكن أعتقد أنه مادي ومعنوي، والمعنوي هنا أقصد فيه غضّ النظر عن انتهاكات قسد والمتمثلة في قوات PKK & YPK.

وبدوره النظام يستخدم هذا النفط لتصنيع وتسيير أدوات القتل التي يستخدمها ضد بقية الشعب السوري، وتسيير مصالحه ومعامله فقط، دون إعطاء كل ذو حق حقه. لتعود الدائرة لنقطة البدء حين يحتكر رجال الدولة في مصانعهم أهم أساسيات الحياة للشعب السوري[3].

---

[3] المرصد السوري لحقوق الإنسان.

عاملون في محطة حقل رميلان في ريف الحسكة.

مصادر خاصة متجلية في شهادات للأهالي.

تقرير صادر عن الصليب الأحمر فرع الحسكة.

تقرير صادر عن مدير حقل رميلان في مقابلة له على تلفزيون روج آفا الكردي.

وائل

لم أكن اجتماعياً في إسطنبول، كان جلُّ تفكيري الهروب منها رغم جمالها، منذ أول ساعةٍ لي فيها لم أخطط للبقاء لأكثر من شهر، ولكنّ عامَيَ الثاني شارف على الانتهاء، وما زلت عالقاً بين أضراسها.

الحياة الاجتماعية في تركيا عامة تقتصر على الاطمئنان عبر التواصل الهاتفي، لا زيارات ولا لقاءات بين الأصدقاء، إلا للسياح أو بعض الأتراك من رجال الأعمال أو المتفرغين، لذا اقتصرت حياة السوريين عامّةً على العمل فقط.

العمل هنا يأخذ منك نصف يومك، والمحظوظ من يبقى له أربعة ساعات قبل النوم، حياة مميتةٌ مهما حاولنا تجميلها.

كنت قد اتخذت قراراً بأن أكفّ عن محاولات التهريب، والتركيز أكثر على دراسة اللغة الألمانية لأستطيع تقديم الامتحان اللازم للقبول الجامعي في إحدى جامعات ألمانيا، كي استطيع السفر عبر فيزا نظامية وإن كانت مشروطة.

وكنت قد وضعت لنفسي حتى شهر رمضان القادم، إن لم استطع الخروج من تركيا بأي شكلٍ من الأشكال، سأعود لسوريا.

اتصلت بياسين بعد يومين من محاولتي الأخيرة، طلب مني اللقاء لأمرٍ هام.

كنت أتوقع كلامه هذه المرّة عن قراره بالسفر معي، ولمعرفة تفاصيل أكثر.

تفاجأت حين طلب مني لقاء فرح وإعطاءها خاتم خطوبتهم، كان القرار غبياً وقد قلت له ذلك، حاولت جاهداً الابتعاد عن هذا الأمر وعدم وضع نفسي بموقفٍ مخجل مع فرح، لكنه ظلّ يرتجي قبولي بكلامٍ لم أفهم منه شيء.

فهمت أنه لا يريد البوح بالسبب المباشر، وأن فرح لا تدري عن هذا الأمر شيئا، ولهذا السبب كنت أرفض مساعدته.

حتى قال لي أنه عائدٌ لسوريا ولن يعود لتركيا أبداً، شعرت بأنه طلبه الأخير.

كنت خائفاً حين لقاء فرح من أيّ سؤالٍ قد تطرحه عليّ، لكنها لم تفعل، كانت فتاة ذكية وتضع كرامتها قبل أيّ شيء.

جاءني عدي، صديق لي ويسكن معي في المنزل، قال لي أن هنالك مهرباً مضموناً وطريقه سالك لمعرفته التّامة بأغلب ضباط الحدود في اليونان، وأخبرني أنه سيذهب معه غداً ليلاً.

كان آذار قد انتصف تقريباً والجو مناسب بعض الشيء للسفر عبر الغابات اليونانية، سألتهُ إن كان يوجد شاغر لي، فقال طبعاً الرحلة غير محدودة العدد.

فكّرتُ لساعاتٍ قليلة، أحياناً أشعر أن المحاولات فيها شيء من الإدمان، قبل أيام قليلة كنت قد اتخذت قراراً بتركها وها أنا الآن أفكر بمحاولة جديدة.

ما شجّعني أكثر هو سؤالي عن المهرب، جميع من سألتهم أكدوا لي أنّ رحلاته مضمونة الوصول، ولا يوجد فيها مسافات نقطعها مشياً على الأقدام.

توكلت على الله واتفقت مع عدي لاصطحابي للمهرب والاتفاق معه، لكن الأمر تم عبر الهاتف ولم يكن هنالك داعٍ للذهاب.

بعد منتصف الليل جاءني اتصال من المهرب لتأكيد السفر، وأكد عليّ بأن غداً في نفس التوقيت سنكون في أدرنه.

حقيبتي جاهزة دائمًا، لم يكن عليّ سوى الذهاب لمكتب التأمين الذي وضعت عنده نقودي لإخباره باسم المهرب الجديد واستلام الشيفرة الرقمية التي من خلالها يستطيع المهرب أخذ النقود حال وصولي لأثينا.

اجتمعنا في بيت صغير بالقرب من ساحة تقسيم في وسط اسطنبول، كنّا عشرون شاباً، لم يكن معنا أطفال أو نساء لحسن الحظ، الأطفال والنساء يُعيقون حركتنا خاصة في الغابات.

انطلقنا نحو أدرنه بسيارتين منفصلتين، كان السفر مريحاً جداً لأوّل مرّة عبر المحاولات الثمانية السابقة، تزودت ببعض الماء والطعام وقد أوصانا المهرب بعدم أخذ الكثير لأننا لن نحتاج إليه (بإذن الله).

من الجانب التركي ساعدنا أشخاص من الجاندرما الحدودية لعبور النهر الذي يفصل بين الدولتين، وكانت السيارة تنتظرنا في الجانب الآخر بكل وضوح.

اختلط عندي شعور الخوف مع الفرح، لم أعد أصدق عينيّ، هذه المسافة كنّا نقطعها بليلة كاملة، كيف قطعناها بساعة... لا أعلم.

وكنتُ كلما وقعت عيني في عين عدي يقول لي: "ألم أقل لك... يا هيك المهربين يا بلا"

تذكرت محاولتي الأولى، حين كنت متفائلاً جداً، وكان الطقس أفضل بكثير وقتها، كان شهر تموز أما الآن فنحن على مشارف نيسان، الهواء ما زال بارداً، والغيوم في السماء ما زالت تنذرُ بمطرٍ قريب.

وقفنا عند أول الطريق الدولي المشترك بين حدود تركيا وبلغاريا مع اليونان، وراءنا نهر إيفروس، يمتد كأفعى عملاقة طول الحدود التركيا اليونانية، وأمامنا غابة ضخمة يتوسطها عدد كبير من السهول والوديان والهضبات، علينا قطعها إن لم تأتِ الشاحنة التي وعدنا بها المهرب.

وقفَ أمامنا بكل ثقة وبصوته المرتفع بدأ يعطينا تفاصيل الرحلة والتعليمات التي يجب أن نتقيد بها، وفي آخر كلامه أضاف " هذه آخر نقطة أصل معكم إليها، سيكون برفقتكم مساعدي " جوان".

لم ننتظر طويلاً، جاءت الشاحنة وبدأنا بالصعود إليها، ركب جوان مع السائق دون أن نعرف منه إلى أين وجهتنا، وكم سنستغرق من الوقت، ولكن أياً كان يبقى أسهل من المشي فوق طابات الشوك المتناثرة بين الأشجار العملاقة.

لم أعد أرى النهر أو أي شيء من الحدود التركية، مضت السيارة بنا نصف ساعة تقريباً، رأيت الهضبة التي أمسكنا عندها البوليس اليوناني في آخر محاولة، الطريق القادم مجهول تماماً، لكن أعرف بعض العلامات مما تتناقله ألسنة الناس الذين سبقونا وقصصهم المتناقلة بين المهاجرين.

توقفت الشاحنة فجأة بشكلٍ جعلنا نتخبط ببعضنا، رأيت جوان ينزل من الشاحنة رافعاً يداه للأعلى، رأيت أشخاصاً ملثمين يخرجون من بين الأشجار.

كان عددهم عشرة تقريباً، مسلّحون وقد التفوا حول الشاحنة، قلت لنفسي،

ما أتعسنا، هل سنُبَاعُ قِطَعاً؟...

فُتِحَ علينا الباب وركِبَ جوان معنا، كان يتحدث معهم بلغةٍ إنكليزية ضعيفة، وهم يصرخون باليونانية.

ركب خمسةٌ معنا من الخلف، وركبَ اثنان مع السائق، والباقون أخرجوا دراجاتٍ نارية من بين الأشجار ولحقوا بنا.

حاول أحدنا وكان في المقدمة أن يتحدث، فلكمه أحدهم قبل أن يُكمل كلمته الأولى، أحسست باللكمة تنزل على وجهي، أعتقد أن الجميع أحسّ بذلك.

تابعنا على نفس الطريق لمسافة قصيرة، ثم دخل في طريق ترابية بين الغابات.

نظرت لعدي الذي جاء بي لهذا المُهرب، نظر إليّ بخجل، لم يقل شيئاً، ابتسمت في وجههِ، كنت خائفاً جداً، كنت أفكر بألفِ أمرٍ في الوقت ذاته.

توقفت الشاحنة، أمرنا أحدهم - وكان يتحدث الإنكليزية بطلاقة – أن ننزل من الشاحنة دون حقائبنا، واحداً تلو الآخر.

جمعونا في مبنى قديم، أعتقد أنه كنيسة مهجورة، أخذوا حقائبنا وأحرقوها بعد أن أخذوا منها جميع ما هو ثمين.

جاء اثنان وأخذوا جوان بعد أن ضربوه، لا اعرف مصيره ولكن أشك بأنه نجى وكان يعلم بجميع التفاصيل التي سنمر بها؛ لم أشعر أنه كان خائفاً.

كنت أحاول استراق السمع حين يتحدثون، لعلّ أحدهم يتحدث الإنكليزية فأفهم مصيرنا، لكنهم كانوا يونانيين غالباً، لا أميز لغتهم.

قبل الفجرِ بقليل جاء أحدهم وسألنا إن كان بيننا من يتحدث الإنكليزية، رفعت يدي وقلت له أني أتحدث الإنكليزية والألمانية.

أخذني بعد أن قال لي أن آمر الجميع بالنوم حتى الصباح.

دخلنا لغرفة مجاورة، كان بها أثاثٌ وشعلة نار تضيء المكان، وطعامٌ وماء.

طلبت من الشخص الذي معي الماء، صفعني وشتمني ثم أعطاني القليل، لم يكفي لبلّ لساني.

أعطاني ورقة وقلم وأمرني بكتابة أسماء من معي وبجانب كل اسم رقم هاتف أحد افراد عائلته أو أقاربهِ المتواجدون في أوربا.

اعتقدت أن الأمر سيكون اختطاف مقابل فدية مالية، أخذني وأعادني للصالة التي كنّا بها.

رأيت في الخارج اثنان حول برميلٍ مشتعل، كانوا يسكرون، وآخرٌ معي وفي جانب بعيد يوجد اثنان حول نارٍ ضعيفة.

دخلت وبدأت بكتابة أسماء من معي وإخبارهم بما رأيت لعل أحدنا يفكر بطريقة نهرب بها، لكن الخوف كان قد شلّ أدمغتنا ومنعنا من التفكير بأيّ شيء.

لا أدري كيف غفت عيني يومها لساعة او اثنتين، استيقظت على صوت فتح الباب، دخل علينا رجلان يحملان بيدهم حقيبة طبيّة، أيقنت يومها أنها النهاية، وبأنّ أعضاءنا ستزرع بأجساد غريبة.

"سأقتل نفسي" قال الذي بجانبي، وكان شاباً في الثلاثين من عمره، قلت له: الأفضل أن نفكر بطريقة ما نهرب بها بدلاً من الاستسلام، فقال: سأقتل نفسي ولن أسمح لهم ببيع أعضائي.

صاح أحدنا وكان من درعا -غالباً – لا تأكلوا من طعام أو شراب يقدّم لكم، غالباً سيضعون لنا مخدراً.

أشار أحد الرجلان لشخص بيننا، كان ضعيف البنية في العشرين من عمره، وقف وهو يتلفت حوله يحاول استنطاقنا، كان يريد أيّ كلمة تنتشله من بين أنياب الحيرة التي هو فيها، أخذوه وذهبوا.

لم يغب طويلاً عشرة دقائق ثم عاد، سألناه عن الأمر فقال: أخذوا مني دم، وأعطوني دواء، شربته بالغصب، لم أُكن أملك أيّ خيارات.

وقف أحدنا بعد أن خرج جميع الحراس وأغلقوا الباب خلفهم، بدأ يتلفت حوله ويطوف بأرجاء الصالة، كان يشير إلينا بالهدوء وترقب الباب.

وصل لحائطٍ صغير فيه نافذة مغلقة وتمثالاً حجرياً مكسور، أعتقد أنه تمثال السيد المسيح عليه السلام، التفت إلينا وقال بصوت منخفض:

- هذه حجرة المغفرة، أريد مساعدة من أحدكم، غالباً يوجد بداخلها سرداب يأخذنا للخارج أو للسطح.

كنت أقربهم إليه، قال أريد أضعف شخص بيننا، ليسهل عليه الصعود أو النزول.

اقتربت منه وقلت:

- أمتأكد أنت مما تقول؟
- أنا مسيحي، من القامشلي، أغلب الكنائس القديمة فيها هذا السرداب، أرجو أن يكون للخارج أو للسطح، وألا يكون لسردابٍ كبير تحت الكنيسة، وفيها باب أيضاً، لقد رأيتهُ ولكن كسرهُ صعبٌ وسيفضح أمرنا بسبب صوت التكسير، لذا يجب علينا الصعود من فوق هذا الجدار.

الجدار كان عالياً، ولا يوجد أي شيء يساعدنا في الصعود، رفعنا الشاب فوق الجدار ليرى الحجرة ويخبرنا، قال إنها صغيرة وفي جدارها المقابل ممر.

رفعناه أكثر حتى صار فوق الجدار ثم نزل بالحجرة، انتظرنا لبضع دقائق لكنه لم يأتِ ولم نسمع صوته، قلت للمسيحي سأرفعك وانزل وراءه وانظر ما الأمر.

تجمّع حولنا بعض الشباب وبقي آخرون يحرسون الباب لتنبيهنا إن جاءوا.

تسلق الحائط ونزل للحجرة، بعد ثوانٍ قليلة جاءنا صوته يقول: الممر يأخذنا للخارج، ولكن الكنيسة على سفح منحدر، علينا الحذر، لا تحاولوا كسر الباب

سيفضح أمرنا إن أصدرنا أيّ صوت، ساعدوا بعضكم والحقوا بي.

بدأنا بتسلق الجدار بمساعدة بعضنا، رفعني عدي حتى وصلت أعلى الجدار، كنّا أنانيين جداً، لم ننتظر بعضنا، لكن الموت أيضاً لن ينتظرنا لنؤثِر بعضنا على الموت. سحبته للأعلى ثم نزلنا وركضنا نحو الخارج.

تفاجأت بالمنحدر، كان قاسياً جداً ويصعب النزول من خلاله، ولكن نستطيع المشي بمحاذات الجدار ثم الهروب إن لم يشعروا بنا أو يرونا.

مشينا خلف بعضنا أنا والمسيحي وصديقي، وكان وراءنا شابان، لم نستطع انتظار بعضنا، كان يجب علينا أن نمشي كي لا نتزاحم عند فوهة السرداب.

سمعنا صوت رصاصة، ثم عدة طلقات كانت كافية بشلّ حركتنا، قال أحدنا بلهجةٍ جزراوية: (خيو إحنا ميتين ميتين، اركضوا بلكي الله يفرجها ونقدر نهرب).

كانت فكرته صائبة، سنموت إن عدنا، وسنموت إن توقفنا، لذا لم يكن أمامنا إلا الركض لعلّنا نصل لطريقٍ يأخذنا بعيداً عن دائرة الموت التي نحن فيها.

انزلقت قدم الجزراوي، سقط بالمنحدر ولكن لحسن حظه لم يكن قاسياً جداً.

توقفنا لسحبه فقال لنا: يوجد كهف صغير، إن اردتم سنختبئ به حتى نرتاح قليلاً ونفكر.

لم تكن فكرته صائبة هذه المرّة، كان علينا استغلال الثانية حتى ننفذ بأرواحنا، سحبناه وتابعنا ركضنا.

ابتعدنا كثيراً عن الكنيسة، أصبحنا في طريق ترابي بين الأشجار، لا ندري أيّ الجهات نسلك، ولا نعرف إلى أين يأخذنا هذا الطريق، نظر إليّ صديقي مبتسماً فقلت له: يا هيك المهريين يا بلا...

قال أحدهم: يا شباب لم أعد أستطيع سحب النفس، أنا مريض ربو، دعونا نختبئ بين الأشجار لعل الله يرسل لنا دورية حرس يمسكون بنا.

ضحكت بصوتٍ مسموع، لم يسبق لأيّ مهاجرٍ أن دعا الله بإرسال دورية حرس يمسكون به.

دخلنا بين الأشجار لنختبئ حين سمعنا صوتاً، اقترب الصوت أكثر، كان أحدهم يصيح... – في حدا هون – كان الذي خرج أولنا، قال المسيحي، هذا الأناني، سأدفنه بأرضه.

جاءنا مبتسماً وبدأ يحتضننا واحداً تلو الآخر.

قلت له: لمَ هربت؟

- اعذروني... أعلم أني مخطئ، رأيت الحياة بعد أن نطقت الشهادتين، أخذوا مني دم، سأباعُ قطعاً لو أمسكوا بي، حين خرجت لم أفكر بشيء، لا تلوموني، أنتم أيضاً هربتم دون النظر لمن ورائكم.

أكملنا مسيرنا نحو هضبة كبيرة، لعلنا نرى من خلالها طريق أو قرية أو أيّ شيء يساعدنا في معرفة مكاننا.

لم نرَ حين وصلنا الهضبة سوى سطح الكنيسة، شعرت بالحزن لمن بقيَ، أيقنتُ كم نحنُ أنانيون، الحياة تفرض علينا أن نكون أنانيين أحياناً، الغابة التي نعيش فيها تسمى مجازاً حياة، ولكنّ قانون الغابة هو الذي يسيطر عليها، "البقاء للأقوى" كلمتان تحمل حروفها روح الأنانية، إما أن تكون مفترساً فتعيش، أو فريسة لتموت ويعيش غيرك.

قال أحدهم: تركيا شرق اليونان، والكنيسة في اليونان، لذا يجب علينا أن نتجه شرقاً لنصل الطريق الدولي، المسير ساعة في السيارة سيأخذ منّا يوماً ونحن تائهون.

رد عليه المسيحي، لماذا لا نتجه نحو الغرب سنجد قرية أو أيّ شيء آخر، أعتقد أنها ستكون أقرب من الطريق.

قال آخر: وما أدراك أن الغرب سيأخذنا للعمق نحو اليونان؟ نحن لا نعرف أيّ اتجاه سلكت الشاحنة.

الجميع كان محقاً، الجميع كان حائراً، كان الخوفُ ما يزال يسيطر علينا وعلى تفكيرنا.

اتجهنا نحو الشرق، خطواتنا سريعة، نمشي وراء بعضنا، الأول يتقدمنا بعشرة أمتار لاستكشاف الطريق، وجدنا في طريقنا بعض العصي، أعتقد أن أحدهم كان يستخدمها للدفاع عن نفسه، أخذنا ومضينا.

بدأ العطش والجوع يسيطران علينا، لم يكن مع أحدنا أيّ شيء، شكرت الله أنهم لم يأخذوا أحذيتنا.

صاح الذي في المقدمة، يوجد بيت وحوله زرع... أعتقد أنها مزرعة، إن شاء الله سنجد فيها من يساعدنا، أو على الأقل نجد فيها ماء وشيء نأكله.

كانت خاوية تماماً، المنزل مهجور تماماً والزرع الذي فيها لا يؤكل، حولها نبات عباد الشمس، ولكنهُ يابس، لم نجد فيها ماء رغم وجود بئر، لم نجد طعاماً، لكننا وجدنا فيها قضبان حديدية، أخذنا بعضها لضمها لمجموعة السلاح الخشبي الذي بحوزتنا.

مشينا عدة كيلومترات، لم نجد شيئاً في طريقنا، العطش نال مني تماماً، مريض الربو لم يعد يستطيع المشي، كانت الشمس على وشك الغياب، والبرد أصبح ينهشُ ظهورنا، رأينا هضبة صغيرة، صعدنا إليها لعلنا نجد ما يأوينا في الليل، لم يكن حولنا سوى الأشجار على مدّ النظر.

جميعنا قرر أن نقضي الليلة فوق الهضبة، كان فيها أشجاراً خفيفة، بعضها صغير، كان القمر هلالاً يختبئ وراء الغيوم، يظهر أحياناً لكنه لا يمدنا بأيّ ضوء.

قام الجزراوي نحو إحدى الشجيرات الصغيرة وكسر غصنها. بدأ بقشرها حتى يُخرج لُبها، سألته ماذا تصنع؟ ضحك وقال: سأتعشى... تفضلوا.

مدونة عرب ٢٠١١

رحلات الموت

أعداد من يعبرون الحدود البرية بين تركيا واليونان التي يرسمها نهر إيفروس في ازدياد مستمر. لكنّ عبور هذا النهر ليس سهلاً ولا يخلو من المخاطر. كما أنّ كثيرين ممن حاولوا العبور أفادوا بتعرضهم للعنف من قبل السلطات على الحدود.

منذ وفاة 39 مهاجراً تمّ تهريبهم داخل شاحنة إلى بريطانيا، ركزت العديد من التقارير الصحفية على مهاجري الشاحنات، حيث ذكرت إحداها عن 41 شخصاً اختبأوا داخل شاحنة متوجهة من تركيا صوب اليونان، كان معظمهم من الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين 20 و30 عاماً. وذكرت التقارير أنهم كانوا معرضين لخطر الاختناق داخل الشاحنة قبل أن يتم اكتشافهم.

على الحدود اليونانية التركية، يتم القبض بانتظام على مهربين وهم ينقلون المهاجرين في حافلات صغيرة أو شاحنات. وهناك تقارير عديدة حول عدد الأشخاص الذين يعبرون هذه الحدود. ووفقًا للمنظمة الدولية للهجرة التابعة للأمم المتحدة.

ارتفع عدد اللاجئين القادمين في الأشهر الأخيرة من 255 شخصاً في مايو/ أيار إلى 1233 شخصاً في سبتمبر/ أيلول من عام ٢٠١٦.

وبينما لا يزال التركيز منصبّاً على مخيمات المهاجرين المكتظة في جزر بحر ايجه، التي شهدت موجة أكبر بكثير في الوافدين خلال الفترة نفسها، فقد كان هناك اهتمام أقل بما يحدث علي الحدود البرية.

وقد وردت تقارير عن قيام أفراد من السلطات اليونانية بأعمال عنف وأنشطة غير مشروعة ضد المهاجرين العابرين لنهر إيفروس ابتداء من منتصف ٢٠١٦. وشملت

هذه الادعاءات بحق أفراد الأمن المطالب بإلقاء القبض على المهاجرين وضربهم وسرقتهم واحتجازهم وإعادتهم قسراً إلى تركيا.

وتقول دورثي فاكاليس من منظمة نعومي، وهي منظمة لمساعدة اللاجئين في مدينة سالونيك في اليونان، إنّ المهاجرين ما زالوا يتعرضون "للمعاملة الوحشية" من قبل السلطات على الحدود. وتوضح "كل شيء يصادر منهم: الهواتف والمال وحتى الملابس في بعض الأحيان.

الضرب من قِبلِ مقنعين..

وفقاً لتقرير عن حالة نُشرت في شهر فبراير/ شباط الماضي من قبل موقع يورونيوز الإخباري، قام رجال مقنعون بضرب العديد من المهاجرين بالهراوات قبل إعادتهم من حيث أتوا. في المجموعة كانت امرأة حامل تبلغ من العمر 28 عاماً تدعى فاطمة نجيب. وقالت فاطمة "لقد نسيت كوني حاملاً من هول ما رأيت، حاولت المضي في سيري قدماً، لكنّ الشرطة اليونانية دفعتني وطرحتني أرضاً.

لقد كان أمراً لا يصدّق أن أرى زوجي يتعرض للضرب أمام عيني".

وكان موقع مهاجر نيوز أيضاً على اتصال مع زوجين كرديين، قالا إنهما كانا محبوسين في كانون الأول الماضي، في غرفة مظلمة صغيرة مع العديد من الأشخاص الآخرين قبل أن يتم نقلهم من قبل مقنعين عبر الحدود إلى تركيا.

وليس واضحاً من الذي ينفذ هذه الهجمات بحق المهاجرين، فغالباً ما يرتدي المهاجمون أقنعة، ولا يمكن معرفتهم بسهولة. وتقول الرابطة اليونانية لحقوق الإنسان إنّ هذه الجماعات شبه عسكرية، ووفقاً لشهود عيان قابلتهم منظمة هيومن رايتس ووتش فإنهم يشبهون الشرطة أو الجنود، فضلاً عن تسلحهم بأصفاد وأسلحة وهراوات ومناظير وأحياناً بنادق.

وتقول الرابطة: "إنّ الشرطة اليونانية إما هي غير مدركة لوجود هذه الجماعات شبه العسكرية أو أنها تغضُّ الطرف عنها".

دعوات للتحقيق..

ونشر مجلس اللاجئين اليوناني ومنظمات غير حكومية أخرى تقريراً قبل أشهر قليلة في بداية عام ٢٠١٧ يتضمن شهادات من أشخاص قالوا إنهم تعرضوا للضرب، وأحيانا من قبل رجال ملثمين، وإعادتهم إلى تركيا. وقد طالب المفوض الأوروبي لحقوق الإنسان اليونان بالتحقيق في الادعاءات. وفي أواخر العام الماضي، أفادت الكثير من التقارير لنفس الأمر، فهو واقعٌ يعيشه المهاجرون منذ بداية هجرتهم حتى يومنا دون أيّ تغيير.
وتقول تركيا إنّ لديها أدلة على أنّ عمليات إعادة اللاجئين تحدث بشكل غير منظم. ودعت الحكومة اليونانية إلى "العمل على تصحيح السياسة".
بيد أنّ اليونان لم تعترف بحدوث أيّة ممارسات عنيفة بحق اللاجئين. لكن وفقاً لبعض الشهادات الواردة في التقرير الصادر عن مجلس اللاجئين اليوناني، فإن تركيا أيضاً مسؤولة عن القيام بعمليات إرجاع للاجئين سوريين وعراقيين.
ناتاشا بيرتود، المتحدثة باسم المفوضية الأوروبية، أكدت أنّ المفوضية اتصلت بالسلطات اليونانية بشأن تقارير تفيد بإعادة لاجئين في وقت مبكر من هذا العام. وقال بيرتود "تتوقع المفوضية أن تتابع السلطات اليونانية هذه المزاعم وتواصل مراقبة الموقف عن كثب."

الاتفاق الأوروبي التركي

ويمتد نهر ايفروس على طول 194 كم من أصل 206 كم من الحدود البرية بين الاتحاد الأوروبي وتركيا. وهذه الحدود غير مشمولة باتفاقية اللجوء بين الاتحاد الأوروبي وتركيا عام 2016، والتي تسمح بإعادة المهاجرين السوريين الذين يصلون بشكل غير شرعي إلى اليونان عن طريق البحر إلى تركيا.
الحدود البرية كانت مشمولة باتفاقية ثنائية منفصلة، تقضي بإعادة المهاجرين بين تركيا واليونان. وقد ألغت تركيا هذه الاتفاقية في يونيو/ حزيران الماضي لأن اليونان رفضت تسليم العديد من الضباط الأتراك الذين فروا اليها بعد الانقلاب العسكري الفاشل الذي وقع في تركيا في 2016.

ويحظر قانون اليونان والاتحاد الأوروبي، فضلاً عن المعاهدات والاتفاقات الدولية، بما في ذلك اتفاقية جنيف بشأن اللاجئين، العودة القسرية للأشخاص إلى الدول التي قد يتعرضون فيها للاضطهاد[4].

[4]موقع مهاجر نيوز
وكالة أسوشيتد بريس
المفوضية السامية لشؤون اللاجئين
أكاديميةWD الإخبارية.

حنين

اتصلت بي أمينة ثلاث مرات، لم أكن في إحداها قادرة على الرد، خفتُ أن تسألني في أمرٍ ما، ولا تكون إجابتهِ حاضرة.

حاولت الهروب من صوتها الذي سينهش قوّتي؛ لو أنها لم تعلم بمجيئ سارة ليزن لكان الأمر أسهل، ولو أني أخبرت يزن بالأمر لحمل معي بعض الهم الذي اعتلاني منذ سماعي صوتها، لكني لم أخبر حتى زوجي لألا أفسد عليه ابتسامته التي غابت منذ أكثر من عام.

حين اتصل به يزن واقترح عليه إنشاء المدونة، تحول ياسر فجأة لرجل مبتسم متفائل، لم أكن مقتنعة في بداية الأمر بما سيقومون به، ولكن بعدما شرح لي ياسر الفكرة، لم يكن عندي أيّ جواب غير المباركة، قال لي يومها" يبدو أنّ التاريخ استخدمنا لكتابته، سينتصر الشهداء ثانية، وسيهزم الظالم لآخر التاريخ".

استغربت كلامه، ليسوا وحدهم من كتب ورسم وهتف وغنّى، مئات المدونات تُنشر يومياً دون أيّ تغيير يحصل، فهمت لاحقاً أن التغيير يحصل في نفوسنا حين نقدم شيئاً ما حتى لو كان قليلاً، فهمت كلامه بعد فترة، حين كان يبحث ويدقق ويحاول دوماً تقصّي الحقائق ليضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب.

كانت أمينة تحاول استجراري بالكلام، كان واضحاً أنها ضائعة ومترددة، أو أنها لا تعرفُ ما تريد، وتتصرف دون أي تفكير مسبق.

لكنها حاصرتني ذلك الصباح حين اتصلت بي فجأة وقالت:

- أعلم أن يزن قبل سفركم إلى ألمانيا كان كثير التردد إليكم، أيعقل أنه لم يتكلم أمامكِ عن شيء ما يخص سارة؟

حاولت جاهدة أن يكون جوابي مقنعاً لها، لا أدري إن كانت صدّقت كلامي بعدم معرفتي أيّ شيء عن يزن منذ عامين.

رغم هروبي الدائم من التحدث معها، وإنكاري لجميع ما تحدثت بهِ، ورغم وضوح مراقبتها لنا، أو مراقبتها ليزن في أقلّ تقدير، إلا أنني لم أُعارضها بما طلبت، الحق أن ترجع قمر لأهلها وتعيش بينهم، الفتاة تكبر سريعاً وعمتها أولى برعايتها حين تكبر قليلاً وتدخل سن البلوغ، أياً كانت صفاتهم وطريقة عيشهم وأحوالهم، يزن غريبٌ عنها ولن يصبح والدها مهما حاول.

لم أجرؤ أن أقول هذا الكلام من قبل، لكني على يقين أن جميع من حولي يعلم ما يدور في عقلي، كان الأمر أسهل بكثير لو أنّ سارة على قيد الحياة، ولكن سارة ماتت ومات معها حق يزن بحضانة قمر، لو افترضنا أن لديه حق.

حتى أن سارة بطريقة ما، كانت قد فكّرت بهذا مسبقاً، لولا ذلك لَما أعطت يزن طرق التواصل مع أمينة عمة قمر.

أتعبني التفكير بمفردي لذا اضطررت أن أخبر ياسر بما يدور في رأسي.

لم يسعفني جوابه حين قال: دعي الأيام تمضي كما يشاء القدر، أعرف يزن، دائماً يقول عكس ما سيفعل، ويتصرف دون تفكير، وأخشى أنّ كلامنا سيشكل لديه ردة فعلٍ فيختفي إلى الأبد.

تحدثنا عن المدونة، أخبرني أكثر عنها، لا أدري إن كانت صائبة في هذا الزمان، زماننا خدعة محاكة بحرفية، حتى التاريخ لن يجرأ على تغيير حكاياته، التاريخ يرضخ دوماً للمنتصر.

أتخيل أحياناً موقف أبنائنا حين يكبرون بعيداً عن وطنهم، هل سيقولون أننا فعلاً كنّا مجرمين وإرهابيين، هل سيصدقون الكتب والحكايات التي سيرويها المنتصر، أم أنهم سيبحثون بين سطور القصص عن كلام ينصف أباءهم.

في ألمانيا يعتقد البعض أن هتلر كان مظلوماً وقد اجتمعت كل الدنيا ضده، بينما يقول آخرون أنه كان طائفياً قتل اليهود لينصر أبناء دينه المسيحيين، والبعض يقول أنّ جنون العظمى الذي كان يسيطر عليه هو السبب بقتل الملايين من البشر.

هل سيقول أبناءنا أنّ النظام السوري كان مظلوماً أيضاً، وبأن الطائفة السنيّة أرادت أن تقتلعَ العلويين من جذورهم، وبأنه فعلاً قد تعرّض لمؤامرة كونية، أم إنهم سيقولون أنها ثورة مظلومٍ ضد ظالم قتل وهجّر الملايين، ونصر طائفته الحاكمة وسحق بقية الطوائف والأديان، هل سيروي التاريخ ما جرى كما جرى؟، لا أعلم... لكنّ التاريخ لا يكتب أسماءً إلا إذا كانت ملطخة بالدماء، الأسماء النظيفة تدفن بين طيات التاريخ.

حين سألت ياسر عن هدفهم من هذه المدونة قال:

- في الجاهلية كانوا يعبدون الأصنام، وحين جاء الإسلام ليحررهم مما هم فيه قاتلوه فقط لكي لا تتضرر تجارتهم، كانوا يعتمدون على الأصنام التي صنعوها ووضعوها حول الكعبة لاستجرار من حولهم والنهوض بتجارتهم.

وحين دخل المسلمون مكة وحطموا الأصنام، لم يحطموها فقط لأنها أحجاراً تُعبد من غير الله، بل كان الهدف أن يتخلى الإنسان عن أيّ شيء مادي من أمور الدنيا

ويكون قلبه خالصاً لله، وأن يعرف المرء أنّ عليه تحطيم جميع الأصنام التي حوله لينهض من جديد.

وفي زماننا، أصبح الأنترنت صنماً، أو حتى " هُبل" كبير الأصنام، وأصبح الجميع يلتف حوله طيلة يومه ليتابع أو يعبد الأصنام الأخرى في حياتهِ، ولأنّ هذا الصنم يعجّ بالخرافة والأكاذيب، استخدمناه لكتابة التاريخ كما جاء، دون التحيّزِ لجهة ما.

أعلم أننا لسنا الوحيدين ممن كتب ورسم وغنّى، ولكن من خلال ما نقوم بهِ، نحن نحاول تكسير جميع الخرافات التي يزعمها هذا الصنم، والتمسكِ بحقيقة واحدة.

كنت أنصت إليه وأفكر بكلامهِ وأتسأل هل يا ترى سيقرأ أبناءنا حقيقة ما عشناه، وإن قرأوا هل سيصدقون؟

بعد أيام سمعت ياسر يتحدث مع يزن، يخبره عمَّا دار بيني وبين أمينة، وبأنّ لديه شكوكاً بموت حسام.

كان ذلك الشعور يراودني بين الحين والآخر، لم أفكر بهِ أو أخبر أحداً، لم أشعر حقاً أنه مات، حسام كان مخبراً للنظام، وقد أثبتت الوقائع أنه كان مخبراً ضدّ النظام أيضاً، والمخبرون أبديون يموت الوطن ولا يموتون.

لذا لم أجد خياراً سوى التحدث مع أمينة بصورة واضحة لمعرفة الأمر الذي تسعى إليه.

اتصلت بها في اليوم التالي، قلت لها: من قال لكم أنّ سارة جاءت إلى تركيا، أعتقد أن الشخص الذي نقل لكم الخبر مخطئاً؛ لو أنّ سارة ستأتي لتركيا، لكنت أول من يعرف بمجيئها.

شعرت بابتسامة خبيثة تشق وجهها حين تنهدت وقالت:

كانت سارة على اتفاق مسبق مع جارتنا للسفر لتركيا، لكنّ ظرفاً حال بينهم وبين السفر، ثم فكر زوجها أن يسافر إلى مصر بدلاً من تركيا، لاجتناب المصاعب التي قد تواجههم أثناء قطع الحدود.

وحين عرضتُ الأمر على سارة قالت أنّ لديها أقارب في تركيا، وقد اتفقت معهم على كلّ شيء، وخلال أيام قليلة ستسافر.

حاولت جاهدة أن أخفي التلعثم في كلامي لكنها سبقتني حين قالت:

- لا عليكِ ياحنين، أريد منكِ فقط إخبارنا إن كانت بخير وأين هي، فحسام قد مات ولم يبقى من ذكراه سوى قمر، وأريد فقط الاطمئنان عليها، سارة لا تهمني، كان من المفترض أن تسافر سارة مع جارتنا، ولكنّ الظروف شاءت أن يتأخر سفرهم، وقد أخبرتهم سارة أنها ستسافر إلى أورفا، وقد ذكرتكِ بالاسم، وذكرت أيضاً يزن، وقد علمنا لاحقاً أنه يزن الذي كانت مخطوبة لهُ، هل تعرفين عنها شيء؟

شُلَّ لساني للحظات، لم استطع وقتها سوى إغلاق الهاتف والهروب مما وضعت نفسي فيه.

يزن

هل علينا أن نتخلى عن إنسانيتنا لكي نعيش في مجتمعنا؟

أخطاء كثيرة حولنا، إن حاولنا إصلاحها ستقطع يدنا، ولو شئنا التحدث عنها سيقطع لساننا، حتى لو اخترنا الصمت سيأتي يوماً ونسحق تحت عجلاتها.

حاولت جاهداً أن أكون وحيداً، حاولت أن أكون هارباً من أيّ شيء حولي، رغم أني أعرف أن القناعة حجة الضعيف إلا أني اكتفيت بقمر ورضيت بما قُدِّرَ لي، لأنني لا أستطيع مناطحة القدر، رغم هذا لم يرضَ القدر إلا أن يكسرني أكثر.

حاولت تقسيم يومي بين عملي في المدرسة والمنظمة وبين قمر، لا أريد شيئاً آخر، لكن لم أُترك لشأني، حتى فرح التي استطعت أن أقتلعها قبل أن ينبت جذرها في قلبي، اكتشفتُ متأخراً أنها ريحانةٌ ذات جذورٍ متجددة، الحب والحزن في القلب كجذور النعناع، يكفيه القليل من التقليب لينبت من جديد.

لكن القلب لا يقبل القسمة، ووجه روحي أصابه اليباس وسيتشقق لو حاول الابتسام من جديد.

شعرت بالآونة الأخيرة أنّ فرح تريد العودة لأورفا، كان كلامها واضحاً وكنت أحاول أن أكون غبياً، لكني نسيت أن التذاكي في الغباء هو عين الغباء.

وحين طرحت عليّ فكرة عودتها بشكلٍ مباشر، حاولتُ إبعادها بحجة قلّةِ العمل والسكن، قلبي لم يعد قادراً على النهوض من جديد، سيصبح جثّة لو لفظ آخر أنفاسه.

كذلك حنين، شعرتُ بتغيرها تجاهي واتجاه قمر، قلت لنفسي لعلّ ظروفها صعبة ولم تعد كما كانت، لكنها أخيراً تحدثت بكلّ وضوح عن وجود قمر معي.

كيف لعاقل أن يسأل أحداً لماذا قلبك ينبض، بالنسبة لي قمر كانت النبض المتبقي في قلبي، قدّرها الله لأعيش، وقدّرني لأكون لها كلّ شيء.

أرسلت لي فرح رابطاً محتواه أن قوات الأمن اعتقلت "ياسين الزيّات" من منزله، الكثير من الصفحات المعارضة تداولت هذا الخبر، رغم أن الأمن يعتقل كل يوم العشرات ولا يدري بهم أحداً.

سألتها عن الأمر فقالت إنها لا تعلم شيء، فقط أنّ خالته أرسلت لها بأنّ اعتقاله تم من المنزل بعد أسبوعين من وصوله دمشق.

قلت لها أنّ الأمر فيه شيئاً غير مفهوم، لو أنّ ياسين مطلوب لتم اعتقاله في المطار كالكثيرين، إلا إذا قام بفعلٍ ما أثناء تواجده في دمشق.

اقترحت عليها الاتصال بوالده لعلّه يعرف شيئاً، قالت أنّ والده لا يعرف عنه شيء منذ اعتقاله، ولم يستطع الوصول لأيّ نتيجة.

قبل ساعات كنت أتحدث معها بشأن المدونة، كانت تسألني عن سبب التسمية، لماذا "عرب ٢٠١١" قلت لها: قمر من اختارت هذا الاسم.

حاولت بطريقة لطيفة أن أشرح لقمر مجدداً من هم عرب ال٤٨ بعد سؤالها عنهم مرّة أخرى، حين سمعت عنهم أثناء سماعي الأخبار.

حاولتُ جاهداً إنهاء الحديث، لكنها عادت إليه بعد أن سكتت قليلاً، كأنها تفكر بأمر ما وتحاول من خلال أسئلتها تكوين فكرة محددة.

حاولت أن أعطيها أمثلة مبسطة تستطيع من خلالها فهم الأمر، لكنها كانت تحرجني بأسئلة لم استطع شرحها بطريقة مبسطة تناسب عقلها، خاصة أنها دائماً تدهشني بأسئلة ليست لعمرها.

ثم سألتني: هل سنصبح يوماً مثلهم؟

توقفت كثيراً عند هذا السؤال، تمنيت لو استطيع شرح الأمر لها، لكنّ عمرها لم يكن يساعدني، لا أريد لروحها البريئة أن تتسخ كما اتسخت أرواحنا.

كيف أشرح لها أنّ عدوهم واضحٌ وغريب عنهم، وبأنه جاء لسلب أرضهم وما يقومون به هو جهاد حقيقي في سبيل استعادة أرضهم وحقوقهم، كيف أريد أن أشرح لها إنّ عدونا هو ابن جلدتنا، هو أخونا في الوطن، هو النظام الذي يحكم هذا الوطن، لكنه أشدّ عداوة علينا من إسرائيل، وبأنّه قتل وشرد وفعل بنا أموراً تشبه ما فعلوه الإسرائيليون بفلسطين وبوقت أقل بكثير.

سألتني، لماذا "٤٨" قلت لها إنّه العام الذي بدأت به الحرب في فلسطين، فقالت: نحن متى بدأت، قلت ٢٠١١، فكّرتُ قليلاً ثم قالت، هل نحن

عرب ٢٠١١، لم أعرف بماذا أجيب، استطعت تغيير الحديث، لكنّ كلامها بقي معلّقاً في رأسي،" هل نحن عرب٢٠١١"؟؟

حين أخبرت ياسر بما دار بيني وبين قمر، قال لي بأنه سيغير اسم المدونة ليصبح كما اختارت قمر، وافقت فوراً.

أخبرني ياسر بشكوكه حول موت حسام، وعن الحديث الذي دار بين حنين وأمينة.

موت حسام كان أمراً مقضياً بالنسبة لي، إن كان قد مات أو لم يمت، لن يستطيع الوصول لقمر مهما فعل، خاصة بأنّ سارة قد ماتت، ولكنّ معرفتهم بأنّ سارة جاءت لتركيا من أجلي، هذا ما لم يكن بالحسبان، لربما يعرفون أيضاً أنّ سارة قد ماتت.

شعرتُ يومها أنّ ياسر يخبئ أمراً ما، شعرت بأنه لم يقل كل ما يريد قوله.

خاصة بعد أن سمعت صوت حنين ينهيه عن الكلام.

قبل أن تظهر أمينة وقبل أن نسمع بخبر موت حسام، كان كلامهم واضحاً ومفهوماً تجاه قمر، رغم أسألتهم الكثيرة والمتكررة حول مصيرها.

حتى ردّة فعلهم كانت قاسية حين قلت لهم أني استخرجت أوراقاً رسمية تثبت أنّ قمر هي ابنتي وأني وسارة كنّا متزوجين.

سمعتُ حنين في إحدى اتصالاتي مع ياسر تقول بغضب: لا يمكن أن تبقى قمر عنده، هذا الأمر لن يكون لائقاً حين تكبر قمر قليلاً.

لم أجادلهما، قمر هي رائحة الذكريات التي أحتاجها لأعيش، هي ما بقيّ لي، لو ظهر لها ألف عائلة لن أتخلى عنها مهما كلف الأمر، حتى لو اضطررت لتغير مكان إقامتي والاختفاء عن جميع من يعرفني.

اتصل بي مثنى مُحتدّاً يطلب مني مشاهدة الأخبار، وحين سألته عن الأمر، قال بأنّ النظام السوري ارتكب مجزرة جديدة في بلدة خان شيخون التابعة لمحافظة إدلب، هذه المرّة استخدم بها "غاز السارين" مما أدى لاستشهاد أكثر من مئة شخص جلّهم من الأطفال والنساء، وإصابة المئات بحالات تسمم.

وأنا أشاهد المقاطع المصورة لحظة الهجوم، والمقاطع المتداولة لحالات الاستشهاد والتسمم والاختناق، تذكرت وقتها المجزرة التي قام بها النظام ليكسر قوى المعارضة والجيش الحر في الغوطة الشرقية، ولولا ذلك لكان الثوار قد دخلوا دمشق.

ما زالت المشاهد حاضرة، لا تغيب عن مخيلتي كلما سمعت كلمة غاز، المجزرة التي أودت بحياة أكثر من ألف ومئتين شخص أغلبهم من الأطفال والنساء والشيوخ.

هكذا هو النظام دائماً، يضرب الضعيف ليخشاه القوي، لكني أتسأل دائماً، أين هم ممثلي المعارضة، أين من أطلقوا على أنفسهم "الحكومة السورية المؤقتة" هل هم حقاً معارضون؟ أم أنّ كروشهم أنستهم ما نحن فيه؟

بعد يومين، وفي الصباح الباكر، اتصلت بي فرح لتخبرني أنها وصلت أورفا وتريد عنوان بيتي لتشرب القهوة معي.

حين رأيتها شعرت بشيء ما يمسك لساني، كانت مضيئة رغم انكسارها، كانت تشبه سارة بحجابها الحريري، لست خبيراً بالنساء ولكني أعتقد أنّ جميع النساء تتشابه حين الحزن، أو أن الحزن يشبه النساء؛ وجع لا مفرّ منه.

*** *** ***

مدونة عرب 2011

المجاز الكيماوية

الغوطة الشرقية ٢١ آب -اغسطس ٢٠١٣ / أكثر من ١٢٠٠ شهيد، ومئات الإصابات.
هجوم خان العسل -ريف حلب – الكيماوي ١٩ آذار – مارس ٢٠١٣ / خلّف أكثر من ثلاثين شهيداً ومئات الإصابات، من بينهم ستة عشرة قتيلاً لقوات النظام.
مجزرة ريف حماة – عقيربات ١٢ كانون الأول ٢٠١٦ / أكثر من سبعين شهيداً ومئات الإصابات في قرى ريف حماة.
خان شيخون ٤ نيسان – ابريل ٢٠١٧ / أكثر من مئة شهيد وأربع مئة إصابة.
هجوم دوما الكيماوي ٧ نيسان – ابريل ٢٠١٨ / أكثر من سبعين شهيد ومئات الإصابات.
وغيرها الكثير مما نعلم ومما لا نعلم...
المجرم ذاته، الضحية ذاتها، الصامت ذاتهُ[5].

[5] المرصد السوري لحقوق الإنسان

فرح

رغم أني عشتُ طفولةً أُحسدُ عليها نوعاً ما، ولكن لم يكن لي من اسمي نصيب حين كبرت، لم يبقَ من اسمي سوى لحظات يرتعش قلبي حين أذكرها، يرتعش فرحاً أحياناً، ولكن حتى تلك الرعشة لا تطول.

حين اشتد على أبي المرض، طلب مني أن أدفنه في أيّ مكان سوى حلب، رغم أني كنت خائفة من أن يطلب مني دفنه في حلب كما كنت أتوقع حين افتتح حديثه عن الموت، قال لي وقتها إنّ حلب لم تعد لنا، النفوس فيها تغيرت ولم تعد ملاذاً للجميع كما كانت.

قلتُ حينها أنه يبالغ بعض الشيء، ولكني تأكدت الآن أن سوريا كلها لم تعد ملاذاً لأحد، أصبحت غابة كبيرة وسجناً مظلماً لا يعيش فيه إلا العفن والديدان، أصبحت عبارة عن مسلخٍ كبير، يعيش فيه الكبير على دماء الصغار والضعاف ممن بقي.

الخذلان الحقيقي أن يخذلك الوطن، الوطن الذي كنت يوماً على استعداد بفدائه بأيّ شيء، ليصبح فجأة حفرة من نار تحرق من فيها.

حين قابلت وائل وأعطاني خاتم ياسين، لم أكن لوقتها أحمل أيّةَ مشاعر كرهٍ لياسين رغم ابتعادي عنه، كنت أفكّر أن نبقى أصدقاء، لكن ابتعاده هكذا حوّلَ المشاعر في قلبي تجاهه لمشاعر كره، لو أنه هو من أعطاني الخاتم وأنهى كل شيء لكان الأمر أهون عليّ.

فكّرتُ وقتها بالاختفاء عنه لأنتقم منه لو اشتاق لي، لكن بعد اعتقاله تغيير الأمر، أعرف جيداً مصير من يُعتقل في أقبية نظام مجرم، شعرت بالخوف لئلا يكون اعتقاله نهاية حياته.

بعد أيام ذهبتُ للمنزل القديم لآخذ آخر أشيائي منه، كانت في المنزل الفتاة المغربية التي تسكن معنا، قالت لي وقتها أنّ ياسين ترك لي حقيبة،

وذهبت لإحضارها.

أخذت منها الحقيبة ومضيت ولم يخطر في بالي أن أسألها عن أيّ شيء.

حين فتحت الحقيبة في المنزل، كان في داخلها كيساً عائداً لأحد المحال التجارية في دمشق وبداخله ثوباً قد رأيته يوماً في إعلان على أحد المواقع، طلبت يومها من ياسين شراءه حين ذهابه لدمشق.

فرحت جداً حين رأيتهُ، ولم يخطر ببالي أيّ شيء حتى ارتديته، اجتاحتني صدمة مفاجئة، كيف وصلت الحقيبة ومتى؟

اتصلت فوراً بفاطمة، قلت لها متى أعطاكِ ياسين الحقيبة، فقالت اليوم صباحاً، حتى أنّه أعطاني رقمه الجديد وطلب مني أن أخبرك ولكني نسيت، سأرسله لكِ فوراً.

أحسست للحظة أن الدنيا بدأت تدور حولي، أحسست أني بحلم أو أنها تتكلم عن شخصٍ غير ياسين، كيف ذلك وهو معتقل في دمشق؟؟

حين وصلني الرقم اتصلت به فوراً، لم أنطق بحرف حين سمعت صوتهُ، تركته يتحدث ويسأل من المتصل حتى أشبعت عقلي وتأكدتُ أنه ياسين رغم أن كلمتهُ الأولى كانت كافية، أغلقت الهاتف فوراً دون أن أنطق بحرف.

شعرت بالخوف وقتها، لا أدري لماذا ولكن بقي الفضول يطرق عقلي، كيف يكون هنا في اسطنبول، وهو معتقل في دمشق، ولماذا الكثير من المواقع الإخبارية تنشر خبر اعتقاله.

أثناء ذلك جاءت صديقتي بالسكن والتي تعمل مع ياسين في المتجر، هنأتني بوصوله بالسلامة، لم استطع الرد عليها بأيّ حرف، تأكدت حينها أن ياسين لم يُعتقل وبأنه في إسطنبول.

اتصلت فورا دون أي تفكير بيزن وطلبت منه تأمين عملٍ لي وسكن لأعود لأورفا، لا أدري لماذا ولكن الأمر بدأ يُخيفُني.

لم أجد أمامي سوى يزن، لم أرَه يوماً كجدار أستطيع الاتكاء عليه، ولكن مع الأيام أصبح كذلك رغم التصدعات ورغم التشققات التي حصلت لهذا الجدار، ما يزال ملجئي الوحيد.

أشعر دائماً أنّهُ شخصٌ أستطيع الاعتماد عليه في أيّ شيء، لكني لم أشعر يوماً بأيّ شعور تجاههُ، رغم إحساسي - أحياناً – بأنه يحمل مشاعراً تجاهي، لكنها مشاعر متضاربة، لا جذور لها ولا قواعد.

احترم فيه حبه ووفاءه لساره، رغم موتها ما زالت الحدود بينه وبين أي فتاة أخرى قاسية تجعل الجميع ينفر منها، رغم أني متأكدة بأنّ عقله يرفض أحياناً هذه الحدود، لكن سلطة القلب أقوى دائماً.

حاولت الاتصال بوائل علّي افهم شيئاً لكن هاتفه كان مغلقاً، جمّعت طاقتي وعاودت الاتصال بياسين على رقمه الجديد، كان مغلقاً هو الآخر، حتى رقمه القديم كان مغلق.

أشياء كثيرة فكّرتُ بها في الوقت نفسه، حتى لم أعد استطيع التفكير، سرحت قليلاً ثم أغلقت هاتفي أنا أيضاً لأهرب من أيّ شيء قد يأتيني بصدمة جديدة.

تقلّبتُ كثيراً يومها، لم استطع النوم وهذا الكم الهائل من الأفكار يُحيطني، كان الضياع يُحيطني أيضاً، للحظة شعرت أني أحب ياسين وأكرههُ وأحقد عليه وأعطف عليه، تمنيتُ لو أقتلَ جميع المشاعر لياسين، وأُعيده زميل دراسة لا أكثر، لكن الأمر ليس بالسهل ويأخذ وقتاً، وهذا الوقت لن يتوفر وياسين بالقرب مني.

الهرب قوة أحياناً هو (ثلثي المرجلة) كما يُقال، لذا كانت خلاصة تفكيري بالهرب من إسطنبول كلها كي أهرب من ياسين وما يحمله من سرٍ اعتقاله لساعات.

لا أدري متى غفت عيني، استيقظت على صوت طرق باب غرفتي، كانت صديقتي بالسكن توقظني للذهاب للعمل، قلت لها أني تركت العمل وسآتي للشركة ظهراً لإخبارهم بذلك، سأعود لسوريا.

لا أدري كيف خرجت مني جملة (سأعود لسوريا) لكنها الحلُّ الأمثل لهروبي من الجميع والبدء من جديد.

فتحت هاتفي، جاءتني عدة رسائل، إحداها من ياسين كتب فيها:

- اعذريني فرح، لا أحفظ رقم هاتفكِ، ولم تتكلمي لأعرف صوتكِ، هاتفي القديم بقي في فرع أمن الدولة حين اعتقالي، ذهبت لفاطمة وأخذت منها رقم هاتفك لكنهُ كان مقفلاً، اتصلي بي فوراً، أحتاجك.

ضحكت بصمت، ثم ضحكت كثيراً، هذه أوّل مرّة يقول فيها ياسين أنه يحتاجني، حين كان يحتاجني بصدقٍ لم يكن يفصح عن ذلك رغم أنه يحتاجُ دائماً لأي أحدٍ يساعده في قرارٍ ما، شخصيته السياسية لا تسمح له بالانكسار لامرأة وطلب شيئاً منها.

لم أعرف ما أفعل وقتها، أتصل به أو أترك له رسالة أو أقابله، كان قلبي يصرخ بي أن أبتعد عنه وأتركه، وكان عقلي يستسمحني أن أقابله ولو لآخر مرّة لإرضاء فضولي ومعرفة الأمر الذي اعتقل لأجله، وكيف يكون في إسطنبول فجأة.

انتصر عقلي أخيراً، تركت له رسالة، طلبت لقاءه في مقهى كنّا نلتقي به دائماً.

عند الظهيرة ذهبتُ للشركة التي أعمل بها، أنهيت ارتباطي وأخبرت الجميع أني سأعود لسوريا، واتجهت للقاء ياسين.

أثناء تواجدي في الشركة، وصلتني رسالة من والد ياسين، يقول فيها بأنّه لا يعرف شيئاً عن ياسين منذ أن خرج من دمشق.

أرسلت له بأنّي ذاهبة للقائه، وأعطيته رقم هاتفه الجديد، فجأة كتب لي "وداعاً"، دون أيّ كلمة، كان الأمر غريباً جداً، كل شيء حولي كان غريباً وقتها.

في بداية خطبتنا، كنت أبتهج حين ألقاه، لم أكن أحبهُ كثيراً ولم أكن أكرههُ، وبعد أن بردت علاقتنا، كنت ألقاه كأيّ شخصٍ لا يربطني به شيء.

أما الآن، فقد رأيتهُ منكسراً ضائعاً مشتتاً كثير التلفت حوله، حين رأيتهُ ابتسم وجهي دون إرادتي، يبدو أن اللاوعي عندي يحبهُ أكثر من الوعي الذي أعيش فيه، رغم أنّ قلبي يصرخ بالابتعاد عنه لكنه ابتسم حين التقاه.

كانت لدي أسئلة كثيرة أنتظر إجابة لها، لم أذكر أيّ سؤال منها حين رأيته، أحسست أنّ الفضاء حولي فارغاً تماماً، وأنّ قلبي سبقني ليرتمي في أحضانه شوقاً، وأحسست أيضاً بيدي تود الهروب من جسدي لتصفعه أو تخنقه، أحسست أن قدميَّ تريدان الرحيل، أحسست أني لست أنا من شدة الخوف الذي أصابني لحظة لقاءه -لا أدري لماذا -.

وقف أمامي ينظر في وجهي، أحسست أن دمعة في عينه تأبى السقوط، لم يتحدث، أطال النظر فقط، ثم ابتسم، قلت لهُ:

- حمداً لله على سلامتك، كيف حالك، كيف هي صحة والدك؟
- والدي بخير، لكني لست كذلك، متعب جداً يا فرح، أشعر أن الفضاء الكبير هذا أصغر من عين النملة، أكاد أختنق، أحتاجكِ جداً.
- هوّن عليك، ما الأمر ماذا حدث معك، احك لي.
- لا أستطيع الآن، ما أستطيع إخبارك بهِ أني الآن معتقل، حتى المعتقل الذي في سجونهم يملك حريةً أكثر مني.
- لا تخف يا ياسين، احك لي لعلّي أستطيع مساعدتك بشيء.

تنهد قليلاً ثم قال: سيأتي يوماً تعرفين به كلّ شيء، ما أستطيع إخبارك به الآن أني معتقل عندهم، لم أعد استطيع الذهاب لسوريا، أبي يعلم أني وصلت إسطنبول، لكنه لا يستطيع الحديث بالهاتف، لقد هربت أثناء التحقيق، ولا أعرف أصلاً لماذا اعتقلوني، لكني أعرف أن الفرصة التي جاءتني للهروب لن تتكرر.

سألته حينها: كيف خرجت من سوريا وسافرت لإسطنبول، فقال:

جواز السفر والإقامة التركية معي، أحضرها لي أبي للزبداني، حين أخبرته أني هربت، وقد وصلت بيروت بمساعدة مهرب.

شعرت أنّهُ يخفي أمراً ما، لم يطمئن قلبي لما قال، كان متردداً بما يقول، ويسكت قليلاً بين الجملة والأخرى، كأنه يفكر بكلامه، ويتلعثم في أغلبه، حتى حين سألته عن انتشار خبر اعتقاله، ضحك وقال بأنه لا يعلم شيئاً عن ذلك.

ثم غيّر حديثه وقال بأنّهُ يريد أن نعود كما كنا وأن نتزوج بأسرع وقت.

نظرت إليه دون أن أقول حرفاً، كان الخوف يلبس وجههُ، يُحاولُ الابتسامَ، متوتراً دائماً وكثير التلفت حوله، لم استطع حتى التفكير بعرضه، تنهدت ثم قلت له أني سأعود لسوريا.

قبلها بساعات، جاءتني رسالة من رقم لا أعرفه:

"مرحبا... هذا رقمي الجديد، لا أحد يعرفهُ سواكِ، وأرجو أن يبقى كذلك".

كان يزن هو صاحب الرسالة، قال لي أنه غيّر رقمه لأسباب خاصة، لم أسأله عنها، لكنّي كنت سعيدة جداً بانتقائه لي دون الجميع.

مدونة عرب ٢٠١١

المعتقلات السورية، الظلام الذي لا نور بعده.

عن الشهيد نايف الرفاعي، بلسان أختهِ منال.

كان ذلك في ٢٢ من آذار لعام ٢٠١٢، كنتُ في زيارة لبيت أهلي، وكان أخي يجهز نفسه للذهاب إلى فرع الدوريات في الكسوة.

حاولنا كثيراً ألّا يذهب، كنّا نعرف أن الفروع الأمنية داخلها مفقود، لكن أحدهم أكد لنا أنها "سؤال وجواب" وعلى هذا الأساس قرر أخي مراجعتهم بعد الاستدعاء الذي جاءه منذ أيام.

كنا نتصل به بشكلٍ دوري، كل نصف ساعة، حتى الساعة التاسعة مساء حين أُغلق هاتفهُ ولم يعد يجيب على اتصالاتنا.

اشتعلت في قلوبنا النار، وضاق الفضاء بنا ولم يعد للحياة ألواناً كما كانت، حتى اللون الأبيض اختفى حين اكتست دنيانا بسواد قاتم.

كانت أول زيارة له بعد اعتقاله بستة أشهر، أمّنها أخي الثاني 'سامر' عن طريق أحد معارفهِ من الشخصيات النافذة، أذكر أن عقد أمي الذي كان بجيدها ذهب ثمناً لتلك الزيارة، ولكن لا بأس، فكل أملنا كان لقاءه مهما كلفنا الأمر.

ذهبت أمي وسامر وقتها، كان قد نَحف قليلاً، لكنّ وضعه ما زال مقبولاً.

وقد استطاعت أمي أن تؤثر على أحد الحراس، ففتح لها الشبك لتعانقهُ، همس أخي في أذنها لكنها لم تسمعهُ بسبب بكائها.

عبْر الشخص نفسه الذي كان أخي سامر قد توسطه سابقاً، استطعنا الحصول على إذنٍ ثانٍ للزيارة، وقد كانت أساور أمي ثمناً لذلك.

سررت أني سأراه أخيراً، اشتريت له بعض الملابس الداخلية والبيجامات بقياسات مختلفة، فأنا لا أعرف جسمه الآن، ولكن من المؤكد أن أحد المعتقلين سيستفاد منها إن كانت كبيرة أو صغيرة على أخي.

وضبنا أغراضنا وخرجنا باكراً، كان اليوم هو العاشر بعد السنوية الثانية لاعتقاله، أمي وسامر كانا يحاولان أن يُعدّاني نفسياً لِما سأشاهده، ويخبراتني

أنه سيكون نحيفاً ومختلفاً عن الشخص الذي أعرفه، وأن عليّ ألا أُصدم بما سأراه هناك.

بدأت أرسم في مخيلتي شكلاً نمطياً بناءً على هذا الكلام، أجهدت نفسي وعقلي باستخراج أسوأ صورة ممكن للعقل البشري أن يتخيلها، ومع ذلك انهارت هذه الصورة أمام السوء الذي رأيته لاحقاً.

أحسست أنّ الجبال المحيطة بنا اجتمعت جميعها فوق صدري حال وصولنا للسجن، كان الهواء يصرخ والجبال تصرخ والجدران تتصدع من ألم ما حولها، الهواء كان شديداً ورغم ذلك كان يلفني شعوراً بالاختناق، القحط، الجفاف، صيدنايا، هذا المكان لا يصلح حتى لعيش الأشباح.

كلّ الأهالي كانت عيونهم نحو الشبابيك، نظراتهم تصرخ" ابني ورا أي شباك"، وجوه العساكر كانت تقطر سواداً وحال نظراتنا يقول: أهؤلاء من يحيطون بأبنائنا!!.

كان الأمر مؤلماً للغاية، ومتعباً للجميع، أمي السّتينية، وجدت لنفسها طرف حجرٍ جلست عليهِ بعدما أتعبها الوقوف، وكان الوقت يمضي كأنّهُ حدّ سيف تجزّ بهِ

مشاعرنا، تناولت إحدى الملابس التي أحضرتها لأخي، ورميتها بحضن أمي، أملاً أن يشتم أخي رائحة أهله حين يرتديها.

نادوا على الأهالي ليدخلوا للصالة الثانية، لم تتمكن أمي من النهوض بعد طول قرفصاء على شبه حجر، حاولنا مساعدتها أنا وأخي سامر، ثم تقدم إلينا أحد العساكر، تراجعت قليلاً لأفسح المجال له بمساعدتنا، وحين وصل إلينا قال:

-" أفيكِ تقومي يا حجه، إذا مانك مستعجله لتشوفي ابنك ارجعي ع البيت لشو معطلة الدور؟.

لم يكن وحشاً، أو حتى شيطاناً، أتوقع أنّ البشرية لم تصل ولن تصل لوصف نستطيع من خلاله التعرف على هذا الكائن.

دخلنا إلى الصالة الكبيرة، كانت تشبه صفوف المدارس، بمقاعدها المتراصّة، واللوح والشبابيك المكسرة، ثم بدأوا بتفتيش الأغراض لتحديد المسموح والممنوع والمصادر، نعم، ففي شريعتهم المصادر شيء والممنوع شيئاً آخر.

قضينا حوالي ساعتين، أو ربما أكثر، كان الزمن يمر ببطيء شديد، وكانوا يُدخلون الأهالي بِمنّةٍ ليرون أبنائهم، كانوا يخرجُون سريعاً وهم يبكون!

صرتُ أسأل نفسي إلى أين يأخذونهم هذا المشوار القصير ولماذا يرجعون باكين؟!

جاء دورنا فنادوا علينا، كان سامر يسند أمي التي لا تستطيع صعود الدرج لوحدها، أما أنا فكنت أقفز الدرجات علّي أحظى بوقت زائد، بعد أن أخبرونا أنّ مدّة الزيارة هي أربع دقائق فقط.

دخلت إلى المكان، على اليمين شبكٌ مقسوم إلى ثلاث أقفاص، ووراء كل شبكٍ شخص، لم أعرف منهم أحداً، كانوا غرباء..

نادائي أحد الحراس كي أعطيه الأغراض لتسليمها لأخي، قلت " ولكن أخي ليس بينهم"، أخذ مني الأغراض وبنبرة حاقدة قال" روحِ لهنيبك".

التفت ورائي، كانت أمي وسامر يقفان عند الشبك الثاني، ذهبت إليهما دون أن أقنع، فقد تفحصت السجناء منذ قليل ولم أجد أخي بينهم، سمعت سامر يقول " كيفك يا نايف" سمعت أمي تقول " كيفك يا أمي" قلتُ " هذا ليس أخي، هذا ليس نايف، مع من تتكلمون".

أحسست فجأة أنّ الأرض من تحتي خُسفت، وأنّ السماء انطبقت، وأنا أقلب النظر بين أمي وسامر والذي يقولون أنّهُ نايف، بعد أن سألني: كيفا داليا؟

ما كبرت شوي؟

كان يسألني عن ابنتي التي تركها رضيعة، وهي الآن في عامها الثالث.

أيُّ وطنٍ هذا الذي يُنسي المرء أخاه؟

كان هزيلاً جداً، شعره يشبه شعر الأطفال أول ولادتهم، شيئاً كالوبر، كالشعر الفاهي على بطون القطط، فراغ كبير في مقدمة فمه يفصل بين شفّته السفلية وأسنانه التي فقد نصفها، وعيونه تحملق في السقف خائفة.

نظرت إليه، لم يكن يشبه نايف بشيء، لم يكن يشبه أيَّ شيء، لم يكن ينظر إلينا ولم يكن معنا، كان في عالمٍ آخر! ويداه وراء ظهره.

حاولت كثيراً أن أنظر إليه كأخي، أو أحادثه فلم استطع إطلاقاً.

حتى حين سألني عن ابنتي، جاوبته دموعي ولم أقدر على النطق.

كان جوابه واحداً، على جميع الأسئلة.

" شبك"

- الحمدلله.

" شو صاير فيك"

- الحمدلله.

" شو الحمدلله أخي، احكِ شبك"

- الحمدلله.

سألته أمي: "شبك يا أمي، ليش إديك ورا ظهرك، مقطوعة شي؟

فصاح به العسكري الذي يقف بالخلف: مدّ إيديك خليها تشوفهن.

ببطء وتثاقل استطاع أخي أن يمد يده، ثم أعادها فوراً وراء ظهره، آه كم عذبوه حتى وصل إلى هذا الحال...

انتهت الزيارة..

الزيارة التي استمرت لأربع دقائق فقط، كانت دهراً... دهراً من العذاب والقهر، لاحظت عندما استدار ليذهب أن بنطالهُ يسحل عن جسده ولم يكن لديه القدرة على رفعه، شعرت أن رجليهِ حبلان ذائبان، وكنت أتخيل كم سيضربونه الآن، لأني سمعت أنهم يضربون المعتقل أثر الزيارة.

قالت أمي بعد خروجنا، أنّ نايف سيموت إن تركناه، ويجب علينا إخراجه بأيّةِ وسيلة كانت.

حاولنا كثيراً، لم يبقَ باباً لم نطرقهُ، ولم تبقَ وسيلةً إلا واستخدمناه، لم نستطع إخراجه.

بعد شهرٍ من زيارتنا لهُ، اتصل بأخي سامر الرجل النافذ الذي أمّن لنا الزيارتين وقال له: "يمكن أخوك فيه شي، روح اسال بالأمن العسكري".

استشهد نايف، ارتاح، لم يعد بين أيديهم الآن، ولم يستمر في المعاناة التي كان فيها.

لكن وجعه مازال يحرقنا، وقاتله ما زال يقتل غيره، أيُّ وطنٍ هذا الذي يتلذذ بقتل أبناه.

حين ذهب سامر للسؤال عنه قالوا له: "روح حبيبي، هذا توفى من تسع أيام ودفناه، كان مريض بالسل،."

سُجن أخي أربعُ ساعات عندهم، على أمل معرفة من أوصل له خبر وفاته، كان ذلك ما شغلهم ولم تشغلهم روحاً تقتل.

في أواخر عام ٢٠١٥، خرج بعض المعتقلين بعفوٍ جمهوري، وكان من بينهم رجلٌ كان مع أخي في نفس الزنزانة، التقيت به، وأخبرني عن كل ما حصل معهم بالسجن.

وأخبرني أيضاً عن الجملة التي همسها نايف في أذن أمي ولم تسمعها وقتها بسبب بكائها.

"يا جبل ما يهزك ريح"

هذه الجملة التي حرقت قلبي وقلب أمي حين لم تستطع سماعها.

لكن وطني هزّ الجبال الشامخة وهدّ شباباً بنوا طوبهُ طوبةً طوبة.

لم يسمحوا لنا بأخذ عزاءه، واقتحم الشبيحة منزلنا حين بدأنا بمراسم العزاء، كيف سنتلقى عزاء الخائن الذي مات في السجن.

ما يعزّيني بأخي وبقية أخوتي الشهداء والمعتقلين، أنهم ماتوا مؤمنين بفكرة ماتوا من أجلها، اعتقلوا واستشهدوا وذهبوا إلى ربهم وهم مؤمنون أنّ ما ماتوا من أجله هو الشيء الذي إما أن يحيون به، أو يموتون لأجله.

ياسين

أن تضعك الدنيا بين خيارين فهو أمر كثير الحدوث، ستختار الأنسب وإن كان صعباً، لكنها وضعتني بين طريقين للموت وكان عليّ أن أختار بأي طريقة سأموت.

قرأت مرّةً أن نصف الحل أن تعرف ما هي المشكلة، أنا لا أعرف حتى الآن مشكلتي، لا أعرف أيَّ حظٍ عاثرٍ وضعني في طريقهم، وأيَّ سوادٍ سينتظرني.

لو كان أبي غير موجود في دمشق لكن الأمر أسهل، لكنهم بطريقة ما سيجبروتني على الاستمرار في لعبتهم بالورقة التي بيدهم، أبي.

لم أفهم شيئاً من حديث المحقق معي، ساعتين وهو يتغنى بأمجاد الوطن ضد الإرهابيين، لم أخالفه طبعاً، فأنا مقتنع تماماً بأمجاد وطني، رغم ما فيه من خراب وفساد، لكنه وطني الذي أحب.

رغم أنّ الضابط تكلم معي بكل وضوح، لكني لم أفهم شيئاً، لم أفهم لماذا أنا، أو ماذا بعد ذلك.

كنت أفكر بأبي، وبنفسي إن رفضت طلب الضابط، لم يكن عندي أي خيارات سوى أحد الخيارين، أتريد أن تموت الآن أم حين تنتهي مهمتك؟

هذا ما فهمته فقط من كلام الضابط معي، أعرف تماماً مصيري، إلا إذا تدخل القدر وأنقذني بأمر ما.

وصلت اسطنبول فجراً، لم استطع النوم، قبلها أو أثناء سفري بالطائرة، فتحت هاتفي، كان كل شيء فيه محذوف، أعادوه كما اشتريته أول مرّة، وقد أخذوا شريحة الاتصال من الهاتف.

استطعت فتح الفيس بوك، تفاجأت بكمية الرسائل التي وصلت من أقاربي وأصدقائي، تفاجأت بانتشار خبر اعتقالي، لم أكن استطيع الرد عليهم، ماذا أقول لهم حين يسألونني كيف خرجت.

فتحت الهاتف الذي أعطوني إياه، لم يكن في الهاتف أيّ شيء سوى برنامج الواتس أب، ورقم هاتف وحيد قد تم تخزينه دون اسم فقط اشارتي استفهام.

أوصلت الهاتف بالأنترنت، لتصل الرسائل إليه، وصلت رسالة واحدة (حمداً لله على سلامتك، اغلق الهاتف وافتحه مرّة كل يوم وانتظر مني تعليمات).

فرح كانت أول من خطر ببالي، فكّرتُ كثيراً أن أقول لها كل ما حصل معي لعلها تساعدني، لكني ترددت كثيراً، لا شك أنها ستساعدني أو على الأقل ستقدم لي الدعم النفسي الذي أحتاجه، لكنها ستشمت بي بالتأكيد، وقد حذرني الضابط أن أخبر أحداً بمهمتي.

فكّرتُ أن أخبر وائل وأطلب نصيحته، لكنه غالباً لن يساعدني بشيء، لا أدري أصلاً إن كان ما يزال بتركيا أم سافر.

لم أعرف ماذا سأفعل، لو أنهم أخبروني مسبقاً بمهمتي لكان الأمر أسهل.

انطلقت فور امتلاء الشوارع، اشتريت شريحة جديدة، واتصلت فوراً بفاطمة شريكة خالتي وفرح بالسكن، ذهبت إليها لإعطائها الفستان الذي اشتريته لفرح، كنت أعرف أن لفرح بعض الأشياء التي ستأتي لتأخذها، لحسن حظي أني أحتفظ بكرت العمل

الخاص بفاطمة، ولسوء حظي لم تكن تعرف رقم فرح، أوصيتها بإعطاء رقمي الجديد لفرح إن جاءتها أو اتصلت بها،

ثم اتجهت لمكان عملي لإعلامهم أني عدت وسأباشر عملي من الغد.

لم أجد مهرباً سوى النوم، نمت حتى المساء يومها، حتى جاءني اتصالاً أيقظني من سباتي، لم اسمع أي صوتٍ وقتها، أحسست أنها فرح، لكن لو أنها فرح لماذا لم تتكلم؟ فكّرتُ أنه الشخص الذي تكلم عنه الضابط، دون أيّ شعور أغلقت هاتفي، لا أدري لماذا لكنّي كنت أودُّ الهروب فقط، بعد دقائق فتحت الهاتف الآخر لم أجد أي رسائل جديدة من المجهول، أغلقته وفتحت هاتفي.

اتصلت فورا بفاطمة لأسألها عن فرح إن رأتها أم لا، أخبرتني أنها جاءت واستلمت الحقيبة التي تركتها لها، وأنها أعطتها رقم هاتفي الجديد.

اتصلت فورا بفرح لكن هاتفها كان مغلقاً، فتركت لها رسالة، كنت أحتاجها حقاً، اشتقت لها كثيراً، واشتقت لها أكثر حين وصلتني رسالة منها تخبرني بموعد اللقاء.

حين اتفقنا على اللقاء كنت خائفاً من مواجهتها، كنت أحاول توقع أسئلتها ولم يكن ذلك صعباً، لكن الصعب كان بِمَ أجيبها، ماذا أقول لها وأنا حتى الآن لم أفهم شيئاً.

كنت أتحدث معها وأنا بطريقي إليها، أتخيلها بجانبي أسمع أسألتها وأجيب عليها، أحاول تغيير الموضوع ببعض الكلمات الغزلية، تفاجأت أني لا أعرف الغزل، وهي لن تقبل بأنصاف أجوبة، وصلت إليها ولم استطع إيجاد أيّ جواب لأسئلتها.

رأيتها من بعيد، قبل أن أدخل وقفت أتأملها، كانت جميلة جداً وقوية جداً وحزينة جداً، كانت شاردة وكنت خائفاً من مواجهتها.

تقدمت تجاهها وقد قررت إخبارها بكل شيء، لكني فشلت حين التقيتها.

لم استطع، كنت خائفاً عليها أن تتأذى لو علمت بشيء ما، فكذبتُ عليها.

اعتذرت لأني تسرعت بإرسال خاتم الخطوبة مع وائل واعترفت لها بغبائي وتسرعي وطلبت منها أن نعود ونتزوج، بعد أن اخترعت لها قصة هروبي الهوليودية، القصة التي لا تمرق على ذهن طفل، ثم طلبت منها الزواج، لا أدري أصلاً كيف استرسل لساني بكلام عن ارتباط وزواج كل شيء حوله يدل على فشله، ابتسمت وقالت أنها ستعود لسوريا، ابتسامتها كانت تقول أشياء كثيرة، أولها أني كاذب، وآخرها أنها تكرهني، فكّرتُ أنّ هذا الحل هو الأنسب لحمايتها.

خرجت من المقهى أجرُّ ورائي حيرتي وتفكيري بما سيحدث، كان الظلام قد خيم كاملاً، وجاء الليل حزيناً هذا اليوم.

سمعت مرّة أنّ رقصة الديك أثناء ذبحه، هي أجمل الرقصات، أدركت وقتها أنّ الحزن يأتي مبتسماً أحياناً، لكنه لا ينسى غرس مخالبهِ في ظهورنا.

يبدو أني كنت ديكاً مذبوحاً وسيعاد ذبحه يومياً.

وقفت قريباً من شاطئ "أمينونو" الحزين، أتأمل أمواجه وهي تضرب الصخور، أتأمل باعة الذرة وبسطات شواء السمك، تأملت الناس كيف يضحكون، هل هم سعداء حقاً، أم أنهم اعتادوا على دفن همومهم والمضي في الحياة.

المشكلة أني سأخون وطني إن فعلت ما يُطلب مني، وسأخون وطني إن لم افعل ما يُطلب مني، المشكلة أني سأموت ظالماً في الحالتين.

جاءني اتصال خاص (اتصال دون رقم)، تكلم معي شاب بلهجة حادة، طلب مني الذهاب للمنزل، والتحدث معه من الهاتف الآخر.

ارتعش قلبي، جاءني الشعور ذاته حين طمّشوا عيوني بكنزتي واقتادوني للفرع في دمشق، حتى صوت الشاب كان صوتاً عسكرياً حاقداً.

ركضت دون انتباه، لم أكن أرى شيئاً أمامي، كان لساني يلفظ الاعتذار بعد كل كتف أضربه، دون وعيٍ منّي.

في لحظة وقبل وصولي بقليل، توقفت فجأة، توقفت كأنّ أحدهم صفعني ولكمني، سؤالٌ سمعته بأذني يطرق أبواب دماغي: كيف عَرِف هذا المجهول رقم هاتفي الجديد...

الخوف شلّ جسدي، خوف لم أشعر به في أيٍ من مراحل حياتي، حين قال لي الضابط بأني مراقب، لم تخفني كلمته كثيراً، أعلم أن جميع السوريين مراقبين، حتى لو كانوا بقارة أخرى، ولكن لا أحد يعلم رقم هاتفي الجديد، حتى أني لم أضع عليه أيّ برامج أخرى لمراقبتها.

أكملت مسيري هائماً، أتذكر من هم اللذين يعرفون رقم هاتفي الجديد، فرح، فاطمة، صاحب العمل، وجميعهم لا يعلمون عن وضعي الجديد أيّ شيء.

لم يعد أمامي سوى وائل، لم تعد أمامي سوى الهجرة والهروب من المجهول الذي يلحقني.

وصلت البيت وقد أنهكني التفكير، أخرجت الهاتف من خزانتي، فتحته وانتظرت اتصال المجهول.

مضت ساعتان وأكثر ولم يحصل شيء، تأكدت ألف مرّة من وصول الأنترنت للهاتف، وفتحت الواتساب ألف مرّة ولعنت حظي ألف مرّة.

حاولت الاسترخاء ونفض غبار الخوف عني، لكن دون جدوى، فكّرتُ بأمورٍ كثيرة، لم أخرج بنتيجة، لم يبق في ذهني سوى أمرٌ واحد، أنهم وضعوا في هاتفي جهاز مراقبة، ولكن هل هذا الجهاز يستطيع معرفة الرقم؟!!

فكّرتُ أن أغير هاتفي، لكن ما الجدوى من ذلك، بعد أن عرفوا رقم هاتفي، ولن أستطيع تغييره، فكّرتُ أن أستشير أحدهم وأساله عن جهاز المراقبة، لكني لن أحتمل نظراتٍ تصفني بالجنون، فلم أسمع قبل بذلك.

لم يعد أمامي سوى الثلاثة الذين يعرفون رقم هاتفي، فرح، فكّرتُ كثيراً، هل هي من أخبرتهم برقم هاتفي؟!! مستحيل، أين هم وأين فرح، هل يعقل أن تكون فاطمة؟!! هل يعقل أن تتعاون فتاة مغربية في اسطنبول مع المخابرات السورية؟!! لا..لا.. مستحيل، وكذلك صاحب العمل التركي.

هل يكون هذا المجهول قد استطاع الوصول لأحد الأشخاص في شركة الاتصالات؟!! يا الله هل ينقصني همٌ آخر، نظرتُ حولي كثيراً، خفت حتى من خيالي.

حين كنّا صغاراً كنّا نقول أنّ المخابرات في كل مكان، حتى لو فتحنا باب الثلاجة، سيخرج منها ماسح أحذية أو متسول أو بائع ورود أو بائع جرائد أو بائع بوالين أطفال، هذه المرّة أنا أفكر بذلك فعلاً.

ضحكت من كلامي وسألت نفسي: يا ترى لماذا يختارون لأنفسهم مهناً إنسانية، هل يشعرون بأنهم يعوضون ما عندهم من نقصٍ بتلك المهن، حين يُعطينا الورد في اليمين ويُلبسنا الكلبش في اليسار، أي عتهٍ ومرض يستوطن مخابراتنا يا الله.

قبل انتصاف الليل بقليل، جاءتني رسائل من المجهول، صورتان لرجل، مع عنوان بيته وعمله وبعض التفاصيل عنه، وطلب في رسالتهِ أن أرسل له يومياً تفصيلاً كاملاً عن جميع تحركاته، حتى لون جواربه.

قلت له: ولكن أنا في العمل من العاشرة صباحاً حتى الثامنة مساء.

- هذا الأمر لا يعنيني، أريد تفصيلاً يومياً.
- كيف سأعيش لو تركت العمل.
- الوطن أهم.

لعنت الوطن، ولعنت الثورة، لعنت الأحرار والعبيد، هل كنت سأكون مكان الرجل لو انضممت لصفوف الثورة منذ انطلاقها، أم أنهم سيتركونني أمارس ديمقراطيتي لاجئاً مشرداً، لكني لاجئ الآن، مشرد كبقية اللاجئين، الفرق الوحيد بيني وبينهم أنهم أحرار وأصحاب كرامة، وأنا يتخبطني الخوف من الدقيقة القادمة.

كنت أعرف الرجل جيداً، كان كثير الظهور في التلفاز، في برامج الأخبار وأثناء التحليلات السياسية، وأعرف أنه كان ضابطاً في القوى الجوية، وقد انشقّ عن صفوف الجيش والتحق بالثورة منذ بداياتها تقريباً.

فكّرتُ كثيراً، لم استطع النوم وقتها، كيف لي أن آتيهم بأخبارِ رجلٍ يعرفه القاصي والداني، فكّرتُ بمصيره بعد التقارير التي سأكتبها، فكّرت بمصيري أيضاً إن لم أقم بواجبي تجاه وطني " الأهم "، وطني الذي بكامل جغرافيتهُ لم أجد فيه وظيفة تجعلني محترماً فيه، وطني الذي يرضع أبناءه القهر مع حليب أمهاتهم، ليكونوا رجال المستقبل، وحين يصبحون رجالاً يطردهم لأنهم لا يملكون "الواسطة" التي تجعل منهم مواطنين درجة أولى.

أفكر أحياناً بالمعارضين وثورتهم، أفكر بهم بعقلٍ حيادي، أقول أنهم كانوا على حق حين خرجوا - أعلم ذلك - ثم أقول لنفسي: لكنهم لم يكونوا على حق حين استخدموا السلاح ضد جيش بلادهم.

ما أعرفه الآن أنّ الجميع ليسوا على حق، الحق لا يُقسّم، أما أن يملكه أحدهم، أو يخسره الجميع.

اتصلت بفرح باكراً في الصباح، كنت أريد لقاءها والتأكد من نيتها بالسفر، لكنها لم تجب، ثم تركت لها رسالة في الواتس أب بعد أن قمت بتفعيله.

قبل خروجي من المنزل بقليل، جاءتني رسالة من خالتي تطمئن عليّ، بعد دقائق قليلة، جاءتني رسالة من والدي، هنا شعرت أنّ عقلي لم يعد قادراً على التفكير بشيء، كيف وصلهم رقمي!!

لم يُطل عليّ أبي الأمر حين قرأت رسالته بأنّ فرح من أعطته رقمي، فهمت فوراً كيف وصل رقمي لهذا المجهول، وفهمت أيضاً أنّ عليّ القيام بكل ما يُطلب مني، وإلا سيبقى أبي رهنَ مراقبتهم.

خرجت من المنزل قاصداً عملي الجديد، العمل الذي أجبرت عليه، كنت قلقاً ضائعاً خائفا مما سيأتي.

لم أفكر يوماً بالوصول لمنطقة كالتي في العنوان الموكل إليّ، اللاجئون في اسطنبول يتركزون في مناطق محددة، حتى تحولت "اسنيورت" مؤخراً لحيٍّ سوري داخل اسطنبول، يجتمع فيه العرب من جنسياتٍ مختلفة، وكان أكثرهم من السوريين، أما منطقةً ك" اسكودار"، كيف للاجئ سوري معارض يحارب الفساد، وقد خرج من سورية "بثيابه" كما يقول على شاشات التلفاز، أن يسكن منطقة كهذه، لو لم يكن كتلة من فساد.

اتجهت من ميدان اسنيورت بعد أن انهيت ارتباطي في شركة الملابس التي أعمل بها، - فالوطن أهم – كما قال المجهول، إلى العنوان الذي أعطوني إياه، لم تكن المسافة قصيرة، عليّ ركوب الموصلات العامة في ثلاثة خطوط، للوصول لاسكودار، لا أعرف

إن كان هذا المعارض يعلم بهذه الموصلات، أو حتى يعلم أن هنالك اسنيورت وفيها سوريين.

وقفت صامتاً حين وصلت البناء، والآن... ماذا سأفعل؟

لم أخضع لأيّ دورة جاسوسية تدريبية، ولم يكن عندي أيّةَ خبرات سابقة.

أصبحت الآن جاسوساً، أو عميلاً سرياً، أو مخبراً متعاوناً وسيكافئني الوطن في نهاية خدمتي، أم أني صرت "عواينياً" حقيقياً هذه المرّة، كما كانوا يسمونني أصدقائي المعارضون، أم سأبقى كما سمّيتُ نفسي سابقاً "الميت الحي".

فكّرتُ أن أطرق باب المعارض، وأقول له أني هنا لمراقبتك فماذا أفعل، فكّرتُ أن أنشأ قصصاً قام بها هذا المعارض، ثم أرسلها في تقريري اليومي.

فتحت صورته واتجهت لبائع خضار تحت بيته مباشر، قلت لنفسي أتحرى قليلاً وأقوم بتدريب عملي.

سألت صاحب المتجر عنهُ، لكنه لم يعرفهُ، لم يكن في الشارع أيّ حياة أو محال لأسأل غيره، كان الحيُّ راقياً جداً، سكان هذه الأحياءُ أمواتٌ حتى الظهيرة.

أعطيت لصاحب المتجر صورته وسألته، تذكَّرهُ بعد مشاهدة صورته، ثم قال بعصبيةٍ وبلهجة تركية سريعة: هذا الرجل قد رحل، يقولون أنه سافر إلى ألمانيا، لقد رحل ولم يدفع ما عليهِ من دين.

قلت شكراً يا عم، هربت قبل أن أدفع عنه ديونه، هكذا شعرت من نظرات البائع لي.

اتجهت لشارعٍ آخر، لا أعرف إلى أين أمضي، شاهدتُ صالوناً للحلاقة الرجالية كُتبَ عليه بالعربية، لكنه كان مغلقاً، انتظرت ساعة تقريباً حتى جاء صاحبهُ.

اتجهت إليه فوراً وسألته عن المعارض. قال:

- من أنت، وماذا تريد من بيتهِ؟
- لا شيء يا أخي، إنهُ أحد أقاربي وأنا جديدٌ في اسطنبول وأريد الذهاب إليه، لقد أرسل لي عنوانه لكني لا أعرف المنطقة جيداً.
- انتظر قليلاً.

وقفتُ جانباً بينما كان يتحدث مع أحدهم في الهاتف، سألني: متى أرسل لك العنوان، قلت له: من فترة شهرين أو أكثر.

أنهى هاتفه وقال: صاحبك سافر إلى ألمانيا منذ ثلاثة أشهر تقريباً، يمكنك البقاء عندي إن لم يكن لديك سكن.

تشكّرت الحلاق ومضيت أخفي ضحكتي التي انطلقت دون وعياً مني، لا أدري إن كانت لانتهاء مهمتي فوراً، أم لأني لم أتسبب بأي ضررٍ أو سفكِ دمٍ حتى وإن كان معارضاً.

سافر منذ ثلاثة أشهر!!

لا أدري أهو اختبارٌ لصدقي وأمانتي الاستخباراتية، أم أنّ النظام كعادته يصل متأخراً، يبدو أنّ النظام في سوريا ما زال يعتمد البريد في مراسلاته، وأنّ معلومتي هذه ستصل إلى دمشق بعد زوال النظام.

وائل

لم أكن وحدي في غابات اليونان، كانت تحيطني الذكريات من كل جانب، مع رفاق الدرب الذين جمعتني بهم شاحنة الموت، أو حظنا العاثر.

كنت كالبقية، تُذبلني الذكريات تارةً، وتبعث فيَّ الأمل في الحياة أغلب الأوقات، وكلما حلّقتُ عالياً مع أحلامي، يصدمني الواقع ليعيدني لاجئاً نازحاً هارباً من الموت الذي يلاحقني منذ سنوات.

أوربا التي تطلّعتُ كثيراً للوصول إليها، لم تكن في نظري مُخلِّصاً من آلاف الهموم والعقبات التي أتعثر بها أينما اتجهت، إنما كانت محطةٌ للقاءٍ أضناه الشوق، كانت منديلاً يمسح دموع الحنين التي تُغرقني ليلاً كلما قررت عيني النوم.

عائلتي التي سبقتني إليها، كانت غايتي الأولى، ثم تلك التي نالت سهام عيناها مني منذ زمن، لم استطع نسيانها رغم الوقت، "النسيان مع الوقت" كذبةٌ ألصقوها بالحب، الحب لا يقتله الوقت، ولا تدرك شواطئه نعمة النسيان التي يتحدثون عنها.

جاءنا صوت يخترق العتمة التي تحيطنا والأشجار.

- أنا حنّا فؤاد، آشوري، أعتقد أني المسيحي الوحيد بينكم، لنتعارف، ألا تقولون دائماً "التعارف سنّة".
- علي خضرون، من حمص، دخلت الثلاثين وحيداً البارحة، درست القانون دون أن أراه.

- أنا عُدي الغانم، ثلاثة وعشرون عاماً، أنهيت الهندسة الطبية، من دير الزور.
- شادي عزيز، من درعا، كدتُ أن أُباع قطعاً للتّو، أنا مسيحي في الخامسة و العشرين من عمري، مدرّس رياضة.
- حسين الحمدان، من ريف حلب، لا أعرف كيف يُقاس العمر؛ فالخيبات لم تبقِ فيّ جَلَدٌ لذلك، لا أملك شهادات أذكرها لكن الحياة علمتني الكثير.

قالها وهو ينحت قطعة خضراء من لحاء شجرة يانعة ليطفئ صراخ معدته.

- فرهاد بكرو، كردي من حلب، عمري خمسة وثلاثون عاماً.

كان السُعال قد نال منه وهو يتكلم، كأنه أراد قولَ شيئاً لكن الريو أسكته.

قلتُ: لا عليك، هل نساعدك بشي؟ هل معك دواء؟

قال: الدواء بقيَ في حقيبتي، لم استطع إحضاره.

نهض حسين من مكانهِ وهو يقول: جدتي كانت مريضة ريو، أو حساسية، لا أدري، ولكنها كانت تضع قطعة قماش مبللة على فمها وأنفها حين تتأخر عن شرب الدواء.

وأخذ قطعة من كنزته التي يرتديها وأعطاها لفرهاد وقال: ضعها على فمك، ستخفف غبار الطلع قليلاً، وأنت أيها الصامت ما اسمك.

كان يقصدني، قلت: وائل محمد، عمري أربعة وعشرون عاماً، من ريف دير الزور، انهيت الهندسة الطبية، وقد نصحني عُدي بهذا المهرب وقال: "يا هيك المهربين يا بلا".

كنتُ أنظر في وجوههم، لا أعرف منهم إلا عدي، لكن القدر جمعنا رغم اختلاف كلِّ شيء فينا، الموت لا يعرف ديناً أو عرقاً، الموت يقبل الجميع.

كذلك الوطن، لا يعرف ديناً أو عرقاً، لكنّ الموت صادق، والوطن كاذب،

الوطن يكره الجميع.

لا أدري كيف غفت عيني تلك الليلة، لا نعرف الوقت، فقد أخذوا منا كل شيء في الكنيسة المهجورة، لم يبقُ معنا سوى بعض الذكريات والكثير الكثير من الأحلام العالقة الموءودة.

قبل ساعات وأثناء تواجدنا في الكنيسة، سمعت صوتاً أعتقد أني أعرفه جيداً، صوت ضحك متقطع، وكلام بلغة لم استطع تمييزها.

تذكرت الصوت وأنا بين أحضان العُتمة، كنت قد غفوت فعلاً، لكن الصوت عاد ضارباً رأسي كأجراس الكنائس.

جوان...!

هو بصوته وضحكته، الجميع كان نائماً، أو لعلّ الجوع لم يبقِ فيهم قدرة على فتح عيونهم، لا يوجد من استشيره أو أحكي له ما في قلبي.

شعرت بحركة فرهاد المستمرّة، كان يسعل بصوتٍ شبه معدوم، لم يكن لديه القدرة حتى على السعال براحة كاملة.

نهضت إليه وسألته إن كان بحاجة شيء، أحسست أنه نظر في عيوني، كان الظلام شديداً لا يسمح برؤية الملامح، قال شيئاً لم أفهمهُ، قلت اهدأ، ثم أقيظتُ الذي بجانبه دون أن أعرف من يكون، أجلسنا فرهاد وقد كانت حرارته عالية جداً، وأنفاسه تتقطع وهو يجرها كأنها روحاً تفلت منه.

أثناء حركتنا تلك استيقظ الجميع، كان ليلُ الغابات بارداً، رغم أنّ شمس النهار أهلكتنا.

تجمعنا حول فرهاد جميعنا، أحدنا يفرك صدره، وآخر يمسح على جبينه بلباسه، أما حسين فقد قام فجأة من بيننا واتجه نزولاً، لم يغب طويلاً، عاد وبيده عشباً قد اقتلعه من جذوره، أعطاني قسماً منه وقال ضعهُ على بطنه، وقد وضع بعضه على جبين فرهاد وقدميه، ثم قال:

- في الليل يكون العشب بارداً، حتى الجذور تكون باردة أكثر مما تكون عليه في النهار، هي لن تشفيه من الحمّى، لكنها ستخفف بعض الحرارة حتى الصباح.

لم نستطع فعل شيء، انتظرنا الصباح فقط كي نستطيع رؤية ما حولنا.

أنفاس الصباح كانت باردة جداً، لكنها بعثت فينا بعض الأمل والقوة، والأفضل من كل هذا، إننا استطعنا تحديد الشرق بدقة كي نعرف طريقنا، ضحك حنّا وقال: كدنا أن نذهب إلى بلغاريا لو أنّ الشمس لم تنقذنا من الضياع.

قام عدي وحسين بعد أن كانا يتحدثان لمدة، قال عدي: سنبحث عن ماء نشربه، لن نغيب طويلاً.

لم يحاول أحدنا منعهم، لم نكن نقوى على التفكير بشيء، كان شيئاً في قلبي يرتجف، لا أعرف الشعور الذي انتابني لحظتها، لكني لم أتفوه بأيّ حرف.

قام حنّا أيضاً متلهفاً يبحث عن عشبٍ بارد، لعله يخفف من حرارة فرهاد، أما أنا ومن بقي معي فكنّا نبحث عن أيّ شيء يمكن أن ندثر به فرهاد غير ملابسنا التي دثرناه بها منذ ساعة.

ارتفعت الشمس قليلاً، لم أشعر بمضي الوقت، لا أدري لعلها ساعة، لكنّ عدي وحسين تأخرا، هكذا كان حدسي يقول.

مرّت أكثر من خمسين ساعة على مغادرتنا اسطنبول، الجوع والعطش فتكَ بنا، الخوف من القادم والضياع الذي يحيط بنا، تجّار الأعضاء الذين لابدّ أنهم يبحثون عنّا الآن، كلّ شيء ينهش بنا، وعدي وحسين لم يعودا بعد.

مضت ساعة أخرى، ولم يتغير شيء، الشيء الوحيد الذي أراحنا قليلاً أن فرهاد غطّ في نوم عميق، وقد انخفضت حرارته قليلاً.

كان حنّا مستيقظاً، أما علي وشادي فقد نال منهما التعب وناما جالسين.

سمعتُ صوتاً بعيداً، نهضت واتجهت نحوه، كان عدي يحمل بيده كيساً ويلحق به حسين وهو يحمل كيسين آخرين، ركضت نحوهم أساعدهم ولحق بي حنّا.

كانت فرحتهم كبيرة جداً ببعض ثمار التفاح غير الناضج، والكثير من نبات الخس، وعلبة حديدية قد أكلها الصدئ مملوءة بماء لا أدري إن كان صالحاً للشرب أم لا.

ركضت بالماء إلى فرهاد، أخذت بعضه ورششته فوق وجهه، ساعدني حنّا وشادي برفعه ليشرب، كان ثقيلاً بعض الشيء، بدأ حنّا بضرب وجهه، كان علي بجانبي ماسكاً بيده، سمعت كلمة "مات" لا أدري من قالها، لكني لم أبالي لها، وضعت علبة الماء على فمه وقلت له: اشرب لقد حصلنا على الماء، سمعت كلمة "مات".

تراجع شادي قائلاً: كان الموت يمسك يدي، ظننت أني سأموت البارحة، لكنّ الموت رفضني واختار فرهاد، يبدو أنّ الله يحبهُ أكثر مني.

كان الجميع باهتاً حائراً والصمت يقتل الحروف في حناجرنا، لا أعتقد أنّ الله يفرق بحبه بين أحدٍ منّا، حتى الوطن لا يفرق؛ الوطن يقتل الجميع، أن تكون سورياً يعني

أنّ الخيارات محدودة جداً، إما أن تكون قاتلاً أو مقتولاً، لا يوفر هذا الوطن خياراً ثالثاً.

صرخ حسينٌ فينا بعد ساعة تقريباً:

- ماذا تنتظرون؟ هل سيقوم من موته ليرشدكم ماذا تفعلون؟ هيا ساعدوني لدفنه.

حاول علي التحدث لكنّ حسين أسكته، وطلب تأجيل النقاشات لبعد دفنه.

وقف حسين عند رأسه ورفع يديه مكبراً للجنازة، رأيت حنّا وشادي يصليان لله بجانب فرهاد، ورأيت علي يقف بجانبي دون أن يكتتف للصلاة، رأيت وطني القديم عند موت فرهاد.

بعد أن انتهينا وقف عدي وقال:

علينا متابعة المسير، الطريق الرئيسية تبعد مسيرة نصف ساعة تقريباً، لا أدري إلى أين يتجه الطريق، ولكنّ ثمّت مزارع كثيرة على طريقنا، أعتقد أنها مهجورة، لم نشاهد أيّ حياة أثناء طريقنا، رأيت بعض الشاحنات تعبر الطريق بفتراتٍ متقاربة، أعتقد أنّ الطريق ستعيدنا لتركيا، ولكن لا خيار لدينا.

يجب أن نصل الطريق قبل المغيب، لعلّ إحدى الشاحنات تقلنا معها.

كنا نمشي على أرواحنا، لدقائق أحسست أني أمشي دون إرادة مني، بدأ الشعور بالأشياء يموت، لم أعد أسمع شيئاً أو أرى شيئاً، ثم شعرت بجسدي يهوي على الأرض.

ثم بعد لحظة -كما شعرت بها – استيقظت على ماء يُصب فوق وجهي وجسدي، نظرت حولي، كان الجميع جاثياً ورافعاً يديه للأعلى، وحرس الحدود اليوناني يحيطنا.

فرحت جداً حين رأيت اليونانيين، كنت أحزن حين أراهم في المرات السابقة، ولكن هذه المرّة كانوا هم حبل النجاة الذي سيخلصنا من بئر الموت التي وقعنا فيها.

حين أمعنت النظر إلى من معي، كانت أجسادهم وملابسهم مبللة، نظرت خلفهم لأرى نهر "إيفروس" حاولت النهوض فلم استطع، فصرت أزحف إلى النهر رغم ضرب الحراس لي، عشرة أمتار تفصلني عن الماء الذي مات من أجله فرهاد، لم أشعر بشيء من ضربهم إلا بعد أن وضعت رأسي في الماء، شربت حتى بكيت فرهاد الذي جمعني به القدر وفرقتني عنه شربة الماء هذه.

حنين

على هامش سطور الدنيا، رِقابنا تحت رحمة سكاكين الشوق الذابح، تفوح منّا رائحة الهال المحمص التي تربينا عليها، وتدور حولنا طواحين جارفة لا نأخذ منها سوى الضجيج، ونمضي بصمت.

"في بعض الأحيان نحاول أن نستمر بكذبة ما، نذهب بها يميناً ويساراً، نقضي أياماً نحاول التعايش مع هذه الكذبة، لكن جدار الحقيقة أكبر وأقسى بكثير من خيط الكذبة."

هذه الكلمات كتبها لي ياسر قبل خروجه من المنزل صباحاً، لم أفهمها في البداية، لم أعرف مقصدهُ، وحين اتصلتُ به مستفسرةً، قال:

- لقد أخبرت يزن بكلّ شيء، تكلمت معهُ البارحة وشرحت له الضغوطات التي تعيشينها في ظل اتصالات أمينة المتزايدة، كان الصمت جوابه، لكنّه في النهاية استسلم للأمر الواقع وطلب منا أن نخبر أمينة بكل شيء.

أحسست للحظة أنّ الصخرة التي وضعتها فوق صدري، بتُّ الآن أقوى على إزاحتها، بل وتفتيتها إن لزمَ الأمر.

لم انتظر طويلاً، أرسلت لأمينة أن تتصل بي وقت فراغها، هي الأخرى لم تنتظر، اتصلت بي فور استلامها الرسالة وقالت:

-كنت أعرف أنّ إنسانيتكِ لن تسمح لك بالمضي أكثر بالسكوت.

طلبتُ من أمينة الإصغاء لي دون أيّة مقاطعة، شرحت لها جميع ما حصل مع سارة وقمر منذ خروجهم من دمشق حتى آخر لحظات سارة في هذه الدنيا.

كان بكاؤها بارداً حين أخبرتها بموت سارة، لم ألمس به أيُّ اندهاش، حتى أنها لم تستفسر عن موتها أكثر، ولا أين دُفنت.

عاتبتني كثيراً لأني أخفيت عنها الأمر، وأقسمتُ أنها لا تريد شيئاً، سوى الاطمئنان على قمر.

لم أحاول سؤالها عن شيء رغم الكثير من الشكوك التي بدأت تدور في رأسي، كنت على يقين إنها تعلم بموت سارة مسبقاً، لكني فضّلتُ الصمت لإنهاء ما وضعت نفسي فيهِ.

أخبرتها الكثير عن يزن وقمر، وأعطيتها رقم هاتفه للتواصل معه، بعد أن أخبرتها أنه بانتظارها، أحسست بارتياحٍ حين قلت لها موقفي من بقاء قمر عنده، أحسست بذلك أني أوفيت بعهد الصداقة بيني وبين سارة.

لم تكن فكرة بقاء قمر عند يزن تعجبني بكلّ أشكالها، قمر قد بلغت السابعة من عمرها، والعمر يمضي سريعاً، وهي بحاجة لأم أكثر من حاجتها لأب، يزن لن يستطيع تعليمها كلّ شيء، خاصة أنه لم ولن يتزوج، وكلنا يعرف ذلك.

مساءاً اتصلت بي أمينة، أخبرتني أنها اتصلت بشكلٍ مباشر على يزن، ولكن هاتفه كان مغلقاً، بعد أن حاولت التواصل معه كثيراً عبر الواتس اب أو حتى بقية البرامج.

حاول ياسر الاتصال به لكن النتيجة واحدة، ترك لهُ عدة رسائل ببرامج مختلفة، ثم سكت قليلاً، ثم بدأ بالضحك.

كان متوقعاً هذا التصرف من يزن، كتوقعي تماماً، واختفاء يزن سيعقّد الأمر أكثر، ولن تسكت أمينة هذه المرّة.

يزن

أتدري إن كانت حروب طاحنة تدور بداخلك وحطام أبنية، ومدن وأرصفة وشوارع تنهار في صدرك، وبقايا أطلال على مدّ النظر...

أتبقى صامداً؟

أتدري إن كان الأنين يصرخ بدهاليز وعيك طالباً الرحمة، وأعينٌ وحناجر وأفواهٌ تُكتم، وأنت كما أنت، ما زلت واقفاً على قدميك تسمع خفقات قلوب من تحب وتتمتم لهم بأدعية صادقة...

أستبقى صامداً كما وعدتهم حتى موعد رحيلك؟ هذا أنا...

لا وضوح، دون أيّة معالم أعيش، مهمّشةً أفكاري، منفيٌّ ومقيدٌ بسلاسل الشوق لِمن أحب، تتخبط بي المصائب، حتى أيقنت تماماً بأنه ثمّت أشخاص حولنا لا عمل لهم سوى العبث بحلاوة أيامنا، وانتهاك مشاعرنا وذبح الابتسامة التي نرسمها على وجهنا مكرهين.

وأيقنتُ أنّ تواتر الأيام ليس له أيّ علاقةٍ بعمرنا، بل نحن نكبر بعدد الخيبات والخذلان التي نلقاها في حياتنا، وبأنّ الحياة لا تستمر إلا إذا استطعنا تجاوز هذه الخيبات بأقلّ عدد من الدموع.

ولأنّ الجروح التي نهملها مصيرها التعفن، كذلك العلاقات التي بدا عليها العفن ليس لها إلا البتر، ولأني أدركت أخيراً أنّ مجاملة من نعرف سوء نواياهم جريمة، ولأني لم أجد سوى الهروب منفذاً لِما أنا فيه، قررت الابتعاد عن كُلِّ شيء.

وصلت فرح صباحاً، انتظرتها حتى انهت بكائها بين أحضان قمر، دائماً دقائق الحزن ظالمة، فهي لا تأتي إلا مع الأحزان التي عشناها سابقاً.

شعرتُ بفرح تبكي أخيها وأبيها وهي تحتضن قمر، أما قمر فكانت صامدة كزهرةٍ في قمة جبل تتخبط بها الرياح.

حينها ودون أيّة مقدمات، قلت لفرح أني سأترك أورفا وسأسافر، ولا أريد لأحدٍ أن يعلم مكاني.

لم تجبني بشيء، سوى أنها حركت رأسها للأسفل بإشارةٍ لموافقتي.

لم تسألني عن الأسباب أو عن وجهة سفري، قالت: سأساعدك بما أستطيع.

بقينا كذلك حتى المساء، حين همّت بالذهاب للفندق الذي حجزته صباحاً، ريثما تجد عملاً وسكناً لها.

قلت لها: أنا أعرف تماماً أنك صادقة، وبأنك لن تخذليني، ولكن حتى أنت لن أقول لك أين سأسافر.

لم تكن ردّة فعلها كما توقعت، ولم يكن كلامها كما كنت أخطط للإجابة عنهُ، حين قالت:

- لن أسألك أين ستسافر، ولن أمنعك إلا في حالتين، سوريا، أوربا، في هذين الطريقين سأمنعك ما استطعت.
- لن أغادر تركيا، لستُ هارباً من شخصٍ يُلاحقني، أنا هاربٌ من نفسي أريد أن أكون وحدي لا أكثر.

كانت نظراتها لي غريبة، كانت عيناها مليئة بالكلمات التي تُشنق قبلَ أن تولد، ولسانها يرتجف كلما حاولت الحديث، شعرت للحظة أن يداً خفية تمسك حنجرتها، وبأنها تُشنق بحبالها الصوتية كلما أرادت الحديث.

سألتها عن سبب زيارتها لأورفا، فقالت:

- هروب... أنا أيضاً هاربة، لكن الفرق بيني وبينك، إنك هاربٌ من نفسك، وأنا هاربة لأبحث عن نفسي التي أضعتها بين أزقة الحاضر.

حاولتُ أن استفسر عن كلامها أكثر، لكنها قالت:

- أنا لم أسألك شيئاً، فلا تسألني.

ثم ذهبت.

في اليوم التالي كنتُ قد رتبتُ الأمور مع صاحب المنزل، ومع مستأجر جديد واتفقت معهم على كلّ شيء، وأتممت بيع جميع ما أملك من أثاثٍ، وأخبرت الجميع في الحي أني سأترك أورفا وأذهب للعيش في ولاية أنطاكية.

وكنت على موعد مع فرح عند الساعة الثانية ظهراً في مقهى صغير، كنّا نتردد إليه أحياناً قبل عامين.

حملتُ حقيبتي بيد وأمسكت قمر بيدي الثانية ومضيت قاصداً فرح في المكان المتفق عليه.

في الطريق حاولت كثيراً الاتصال بها لكنّ هاتفها كان مغلقاً. انتظرتها في المقهى أكثر من ساعة ولم تأتِ أو تتصل بي، حتى بدأ الخوف عليها يدّق أركان قلبي، حينها ذهبتُ للفندق الذي ذهبتُ إليه فرح بالأمس، لأطمئن عليها.

دخلت الفندق ذو الصالة الضيقة خفيفة الإضاءة، كان صاحبه رجلٌ عجوز ومعه زوجته، ولا تتعدى غُرف الفندق عشر غرف، وكان أكثر قاصديه من البنات، حتى تحوّل بالفترة الأخير واشتهر بأنه فندقاً للفتيات فقط.

سألت الرجل عن اسمها وقلت له بكل ثقة إنها نزلت عندكم البارحة.

بدأ العجوز يبحث بين أسماء النازلاتِ عندهُ، ثم أعاد المحاولة مرّة أخرى بالبحث في الحاسوب، وفي المرتين كان يؤكد لي أنه لا توجد أيّةُ نزيلة بهذا الاسم.

طلبت منه التأكد للمرّة الثالثة، لكنه صرخ في وجهي مؤكداً كلامه، وأكّدّ أنّ الفندق لا يحتوي إلا على فتاتين منذ ثلاثة أيام.

بحثتُ في الفنادق المجاورة، لكن دون جدوى، حاولت فهم ما حصل، لكنّ عقلي لم يسعفني.

كانت نفسي تخاطبني بسخرية: شخص يهرب من نفسه كيف له أن يجد شخصاً يبحث عن نفسه، أنتما خطّان لا تلتقيان.

شعرتُ أنّ شيئاً ما يحدث حولي، شعرت أني متأخرٌ بفهم تفاصيل الدنيا، رغم التجاعيد التي غزت وجهي، ورغم البياض الذي اجتاح حتى سواد عيني.

كنت قبل ذلك قد استأجرت بيتاً وجهّزته ببعض الأثاث اللازم، في منطقة بعيدة عن مركز المدينة، لم يصل لها السوريون بعد، حتى أنّ المنطقة لا يوجد فيها سكان كثر، وما شدني إليها كثيراً، وجود مدرسة ابتدائية قريبة جداً من المنزل من أجل قمر، وقد وجدتُ في الحيّ عملاً مريحاً بمردودٍ جيد يغنيني حتى عن وظيفتي في التدريس إن ألغيت في بداية العام الدراسي القادم كما يقول الجميع.

ذهبت للمنزل ومازال لغز فرح ينهش عقلي، خطر لي أنّ هاتفها تعرض للسرقة مثلاً، أو أنّه قد ضاع، وبأنها لا تحفظ رقمي الجديد، وحين تأتي للمنزل ولا تجدني، ويقول لها الجيران أنه رحل إلى أنطاكيا، أنها ستذهب للمنظمة وتسأل عني أو عن رقم هاتفي.

فاتصلت بمثنى فوراً وأخبرته أن يعطي رقمي لفرح فقط إن سألت عني، وأكدت له ألا يعطي رقمي الجديد لأيّ شخص مهما كانت صلة القرابة بيني وبينه.

وها قد مضت ثلاثة أيام ولم يأتي أحداً للسؤال عني، حتى موظفي المنظمة لم ينتبهوا لغيابي، يبدو أنني قد خُدعتُ بجميع من حولي.

مضى الأسبوع الأول، والثاني، دون أيّ جديد، صباحاً أوصلُ قمر إلى الروضة ثم أتجه لعملي ولا أعود حتى تبدأ الشمس بالانكسار، ليُعيد الطريق نفسه، فآخذ قمر من الروضة وأعود بها للبيت.

حتى جاء ذلك الصباح، حين طُرق الباب بأكرآ، كان هنالك شرطيان يقفان خلف الباب، يحمل أحدهما بيده دفتراً والآخر يحمل لاسلكياً ويقف وراء صديقه الذي طرق الباب.

فتحت الباب فقال الذي يحمل الدفتر:

- مرحباً... نحن من إدارة النفوس وقد جئنا إليك لأخذ بعض المعلومات منك، بسبب ترشح اسمك للجنسية التركية.

كان كلامهم طبيعياً جداً وأسئلتهم ضمن القواعد القانونية، لم أشعر بأيّ شيء تجاههم بسبب أنّ الكثير من الأشخاص قد حصلوا فعلاً على الجنسية التركية، وكانت هذه الطريقة هي المستخدمة في معرفة تفاصيل حياة المرشح.

طلب مني الشرطي جميع الأوراق التي تثبت شخصيتي وشخصية قمر، وطلب رؤيتها والحديث معها، ثم طلبا مني مراجعة دائرة النفوس غداً في العاشرة صباحاً لوحدي.

اتجهت لدائرة النفوس في صباح اليوم التالي، لأتفاجأ حينها بأنهم لم يرسلوا أحداً للتحقيق معي ولم يُرشح اسمي لأيّة جنسية، وقد كنت مغفّلاً للمرّة المئة أو حتى المليون في أسبوعي الأخير.

خرجت فزعاً أسابق الهواء، لا أدري كيف خطر لي أنّ قمر في خطر، حين وصلت روضتها ورأيتها، كان قلبي ينبض بسرعة كقلب عصفور صغير بيدِ لاهٍ، أما رأسي فكانت تدقُّ فيه جميع أجراس المدينة، وكان الموت يُشنقُ عند أعتاب روحي.

أخذت قمر قبل انتهاء دوامها وعدتُ للمنزل، أحاول لملمة أفكاري المبعثرة يميناً ويساراً.

حاولت جاهداً الوصول لتوضيح ما يحدث حولي، لكنّ عقلي كان يدور في حلقة مغلقة ويعود لنقطة واحدة، لم يكن أمامي سوى إخبار ياسر بما حدث لعله يساعدني بفكرة ما، وحين اتفقنا على نقطة محددة، بأنّهم يريدون الوصول لقمر قال لي بكلّ وضوح:

- أنت لم تعد صغيراً، لقد تخطيتَ الثلاثين، واختلط الشيب فيك حتى وصل سواد عينيك، وقمر أيضاً لم تعد صغيرة، والفتاة تكبر سريعاً كأيّةِ زهرة، وأنت لن تستطيع أن تعتني بها أكثر، فمتطلباتهم ليست كمتطلباتنا، أعلم أنّك ترى الدنيا من خلالها، وأعلم أيضاً أنّ الموت عندك هو البعد عنها، ولكنها ليست لك، مهما حاولت أن تفعل، أعتقد أنّ الشرطيين الذين أتيا إليك، جاءا من قِبَلِ عمتها لأخذ قمر منك قانونياً أو عنوةً، ولا أعتقد أنّك تغامر بدفع قمر لأيّ مكروه، كما أعرف جيداً أنّك لن تفرط بقمر مهما حصل، ولكن إلى متى.؟ ها قد ظهرت عمتها، وقد تأكدتُ بنفسي من

صدق نيتها تجاه قمر، ومهما كانت النتائج فهي عمتها أولاً وآخراً، لذا أرى أن تتصل بها وتتحدث معها، ولا تدري لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرا.

لم أقاطعهُ، ولم أفكر بكلامهِ ولم أزد على كلامه شيء، أحسست أنّ سارة ستُقتل من جديد إن فعلتُ ما يقولون.

تركت هاتفي جانباً، وأغمضت عينيّ ورحتُ بعيداً حتى وصلت جدار بيتنا، أرحت رأسي على بقايا الجدار وصرت أبحث عن عطر بيتنا القديم بين أحجاره المتناثرة، بقيت كذلك حتى شعرت بقدم ضخمةٍ تهوي فوق رأسي تريد تهشيمه، فنهضت من غفوتي وجلاً.

نظرت إلى هاتفي، كانت قد وصلتني عدة رسائل من رقم مصري، كان أولها:

"كيف حالك؟ أنا أمينة السراج، عمة قمر."

وقد أرسلت لي أيضاً الكثير من الصور التي تجمعها مع قمر وسارة وحسام، وطلبت مني في رسالتها الثانية، أن أشاهد الصور مع قمر ومن ثم أتحدث معها.

لم أتوقع أن تفرح قمر بالصور حين رؤيتها، ولم أتوقع أيضاً أنها ستبكي حين رأت صورتها مع والدها، حتى أنّها ذكرت عمتها بشوق، حينها فقط شعرت أنّ قمر قد كَبرت فعلاً ولم أعد أستطيع العناية بها.

حينها شعرتُ أنّ الموت الذي شُنقَ عند أعتاب روحي، ما هو إلا موت الابتسامة التي استقرت مؤخراً في وجهي، حينها شعرتُ كأنّ عصفوراً يحتضر في حلقي.

فرح

"شكراً لكِ... انتهت مهمتكِ"

بين اتصال أمي الأخير قبل يومين، وبين هذه الكلمات التي وصلتني برسالة بعد خروجي من عند يزن، كنت كمن تُسحج روحهُ بأظافر من حديد، أو كمن يبتلع جمراً كلّما أراد استنشاق الهواء.

قبل يومين وعند انتهائي من لقاء ياسين، جاءني اتصال من رقم لا أعرفه، ليخبرني أنهم خطفوا أخي ويريدون فدية لإعادته، ثم انتهت المكالمة دون أن أتكلم أو أفهم ما يريدون.

عاودت الاتصال فوراً بذات الرقم لكنّهُ كان مغلقا، وبقى مغلقاً حتى اللحظة.
اتصلتُ بأمي فوراً لأعرف منها الأمر، لكنّ أمي أُكدت لي أنّه كلامٌ فارغ، وبأن أخي ذهب منذ نصف ساعة لشراء بعض الحاجات، وسيعود فوراً.
لم يطمئن قلبي رغم كلام أمي، لأنّ أخي لم يكن يردُّ على اتصالاتي، ومع ذلك لم أهتم لذلك الاتصال واعتبرته مجرد مزحة ثقيلة من أحدهم، خاصةً أنّ الاتصال من رقم تركي، وأخي موجود بسوريا.
قبل أن أصل المنزل بقليل، اتصلت بي أمي لتخبرني أنهم اتصلوا بها وأخبروها أنهم خطفوا أخي ويريدون أمراً، وقد أرسلوا لها صوراً ومقطعاً مصوراً يثبت كلامهم، وقالوا لها أن تنتظر مكالمة أخرى.

لا أعلم كيف مضت تلك الساعة، وجسدي يحترق بالنار التي اشتعلت بي منذ اتصال أمي، حتى اتصلت بي ثانيةً وقالت:

- قالوا أنهم وضعوا جهاز تتبع صغير جداً في الحقيبة السوداء في الخزانة الخاصة بك، وعليك أن تضعيها في الحقيبة الصغيرة الخاصة بيزن والتي يحملها أينما ذهب.

ثم بدأت أمي بطرح أسئلتها عن يزن ومن يكون وما علاقته بأخي، وأنا كنت أطرح على نفسي سؤلاً واحداً، لماذا أنا؟ ولماذا أخي؟ ولماذا يزن؟.

ثم أكّدت عليّ أمي أن يبقى الأمر سراً إلى الأبد وإلا لن نرى أخي ثانية، وإن أفشيت السر بعد عودة أخي فإنهم سيصلون إليه ثانية ويقتلونه فوراً.

لم تمضِ تلك اللحظة كسابقاتها، ملايين الأفكار والأسئلة طرقت خيالي واحتلت تفكيري، وضعت السنين الماضية أمامي على الطاولة وبدأت أقلبها وأتنقل بين أيامها، عليّ أن أجد مدخلاً أخون به يزن.

لا أعرف من يكون الخاطف، أو علاقته بيزن وما يريده، لا أعرف لمَ اختاروني أنا رغم المقربين الكثر حول يزن، ورغم البعد الجغرافي الذي يفصل بيني وبينه.

اتصلتُ كثيراً بذلك الرقم الذي اتصل بي أوّل مرّة لكنه كان مغلقاً، حاولت طلب المساعدة من أحدهم، لكني لم أجد أحداً أستشيره مثل يزن!

فكّرتُ بالاتصال به والحديث معه والتلميح بطريقة ما للأمر، لكنّي أثناء الاتصال لم استطع إخباره بشيء، كنت أحمل ذلك الجهاز الملعون بيدي وأشعر به كأنّهُ سكيناً تحزّ رقبة أخي، وكان عليّ الاختيار بين رقبة يزن أو رقبة أخي الذي لا يحمل ذنباً سوى أنّ أخته تعرف يزن.

لم أجد في نهاية اتصالي سوى نزع السكين عن رقبة أخي ورميها بعيداً عنه مهما كلّف الأمر.

كنت قد رتبت جميع أغراضي سابقاً، حتى أنّي قد حجزتُ تذكرة للسفر قبل لقائي بياسين، حاولت ربط الأحداث ببعضها، لم أتوصل إلا لنقطة واحدة، ألا وهي أني مراقبة بالفعل، وحين عرفوا أني متجهة لأورفا، قرروا تكليفي بهذه المهمة.

حين وصلت مدينة أورفا، ولحظة نزولي في كراجها، تفاجأت باتصال من رقم آخر لا أعرفه، قال:

- حمداً لله على سلامتك، نودُّ تذكيرك بالاتفاق الذي بيننا، وتذكري أنّ أخيكِ ما زال بكامل سلامته، لم تمسسه يد، وسلامته متعلقة بتفكيرك، ستصلين لبيت يزن، وتجلسين عنده حتى المساء، من ثم تغادرين منزله بحجة أنّكِ استأجرتِ غرفة في فندق" ليفار"، وحين خروجك من منزله ستتلقين اتصالاً أو رسالة تفيد بتعليمات جديدة.

كنتُ قوية حين أفكر بأخي، فيرفض عقلي التهاون مع يزن أو إخباره بأيّ شيء، وضعيفةً جداً حين أفكر بيزن وما سيحصل معه بسببي، ولكن لا خيار لدي، سوريةٌ أنا... والسوريون لا يملكون خياراتهم.

لكنّ قوّتي انهارت حين رأيت قمر، تذكرت أنّ الشيء الوحيد الذي يملكه يزن وليس له الحق في امتلاكه هو قمر، تأكدتُ أنّ يزن لا يهمهم بشيء بقدر ما تهمهم قمر، أو على الأقل هذا هو الاحتمال الوحيد.

حين سألني عن سبب بكائي، قلت أنّ أحزاني اجتمعت في وجه قمر، الحزن أنانياً بعادته، لكنّهُ حين يأتي، لا يأتي فرادا.

لا أعلم عن ماذا تكلمنا في نهارنا ذاك، لا أدري كيف تحوّلتُ بعد اللهفة للقاء يزن، لكتلة جافة تنتظر الرحيل، كنت أنتظر المساء لأخرج من عنده وتنتهي المأساة التي أحاطت بنا.

شعرت بشعور الخيانة، كنت أحتقره دوماً، هذا الشعور الذي لا يمتّ لشيء بصلة، شعور لم أتمنى يوماً أن أجربه.

أصبحت الآن خائنة، كالسياسيين السوريين وقادة الفصائل، أصبحت الآن بلا مبدأ، كسائر الفصائل المترامية فوق أرض وطني.
صعب جداً هذا الشعور، كأنّك تحمل حجراً وتهشم به رأسك، ستشعر بالضربة الأولى فقط، ثم لن تشعر بشيء، ولأن رؤوسهم لم تعد تشعر بضرب حجر الخيانة، لا يشعرون بنا.
خرجت من عند يزن منكسرة، أحمل الدنيا على ظهري، لا أفكر بشيء، أحسست بعدم وجودي؛ التفكير يخلق شعور الوجود، وأنا الآن لا أفكر.
حتى أنّي لم أفكر بمسح رجس الخيانة الذي لطّخ حياتي، لم أفكر سوى بالهروب من كل شيء، ومن نفسي الخائنة أولاً.
بتُّ ليلتي تلك في أحد الفنادق الشعبية البعيدة، بتُّ محمية بجدرانه، لكنّي لم أنم لحظة، بعد أن تأكدتُ من عودة أخي ونجاح مهمتي، لقد أصبحت خائنة بكل أمانة.
شريط طويل من حياتي مرّ أمامي، نظرت لثلاث سنوات مرّت من عمري دون شيء، حتى الشيء الوحيد الذي استطعت أن أفعله، لم أُكمله لعدم اكتمال شعور الحب بيني وبين ياسين.
ترددت كثيراً بالقرار الذي اختصر كلّ قراراتي، لكنّي لم أجد سواه.
اتجهت صباحاً لكراج مدينة أورفا قاصدةً الحدود التركية السورية. انتظرت ساعة تقريباً وأنا أقف متوترة حائرة بين السفر أو البقاء، بين العودة لسورية أو العودة لإسطنبول، توجهت إلى مكتب التذاكر ثلاث مرات، في كلّ مرّة كان الموظف يسألني عن وجهتي، كنت ألتزم الصمت ثم أخرج من المكتب.

أثناء خروجي الأخير، شعرت أنّ رجلاً يراقبني بنظراتهِ، كان وجههُ مألوفاً، لم أدقق كثيراً، عدتُ لركني في المقهى، رأيتهُ يتحرك نحوي، ثم جلس على طاولة ليست بعيدة، خمّنت الأمر صدفةً، ثم مضيت بأفكاري حتى اتخذت قراراً نهائياً.

اتجهت لمكتب التذاكر، طلبت منه تذكرة إلى الريحانية، كان قرار سفري لسوريا بالنسبة لي انتحار، ولكّن في بعض الأحيان يكون الانتحار هو الانتصار الوحيد، حين يحيطك الموت من كل جانب.

اتجهت للرصيف المحدد لصّعودِ الباص المتجه للريحانية، صعدتُ الباص وجلست في مقعدي منتظرة الرحيل، نظرت من النافذة، كان الرجل يقف بالجهة المقابلة، ينظر إليّ بابتسامة خفية، للحظة شعرت ببعض الخوف، ثم أرحت رأسي وأغمضت عيني منهية تفكيراً عقيماً، وأنا بكامل استعدادي لخوض حياة جديدة.

ياسين

حين كنّا أطفالاً، كنّا نهرب من المجهول لأحضان أمهاتنا، وكنتُ كباقي الأطفال أركضُ لحضنها حين أشعرُ بالخوف.

لكنّي حين كبرتُ قليلاً، قالوا إنّ الرجال لا يخافون، وأنّهم لا يبكون، وقد حرموني بذلك من لذةِّ الاحتماء بحضن أمي.

الرجال لا يبكون...

كلمتان كاذبتان قد كبرتا معنا، والحقيقة أنّ الرجال يبكون بصمت ينهش قلوبهم وعقولهم، الرجال يبكون ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، يبكون أحلامهم المندثرة تحت أقدام الفقر، يبكون أفراحهم وأحزانهم ثم يموتون واقفين كشجر السنديان وحدهم.

أتوقُ الآن لحضن أمي، اشتقت لها كثيراً، اشتقت لدموعي التي كانت تبلل صدرها فتنطفئ النار التي في صدري، اشتقت لبكائي حين أقول -لا- فيصغون إليّ ويتحايلون لمعرفة سبب بكائي، والآن أقول -لا- دون أن يسمعني أحدٌ.

بكيت البارحة كثيراً، بكيت في حضرة الظلام وحيداً، كان الليل يلقّني بعباءته، و كلّما حاولت رميَ همومي عليه، كان يلجمني.

آهٍ يا أمي...

حتى الليل لم يعد يتسع لآهاتي، هذا الفضاء الكبير يخنقني يا أمي وحتّم عليّ الموت وأنا على قيد الذكريات، كلُّ شيء أذكره يؤلمني.

أتدرين، حتى حين غفوت وجاءني طيفكِ في نومي، آلمني يا أمي...

حتى وسادتي التي اعتادت على حملِ همومي، قد ضجرت مؤخراً من أنيني.

أتدرين يا أمي، هنالك سؤال يُهشّمُ كلُّ شيء فيني، ولا جواب يسعفني، ماذا سيحدث لو تحوّلت أسرّتنا لأحضان من نحب، وصدورهم باتت وسائدنا، ماذا سيحدث لو غفونا آمنين؟

كثيرة هي أسئلتي، تخيلي يا أمي...

بات كلّ شيء حولي سؤال، وكلّ شيء مجهول، ولا حضناً أختبئ فيه.

كبرت كثيراً يا أمي، لكنّي كبرت بصورة مضحكة.

تخيلي أني صرتُ مُخبِراً، شيء مضحك أليس كذلك؟

حين قلتِ لي مرّة: لماذا اخترت العلوم السياسة، أتذكرين ما قلتُ لكِ؟

قلتُ حينها: لعلّي أصبح يوماً دبلوماسياً عادلاً يكسر الشكل المطبوع في ذهن الناس عن السياسيين.

ضحكتِ يومها وقلتِ: والله لن تصبح سوى أستاذاً للقومية بأقصى أحلامك.

ليتني صرتُ يا أمي، هي لا تفرق كثيراً، لكنهم صيّروني مخبراً.

بالأمس أرسلت تقريري، لم أذكر فيه أيّ شيء، لا تحركاته ولا لون جواربه، أرسلت مختصراً مهمتي(قد هاجر لأوروبا منذ مدّة).

لم يأتِ ردٌّ حتى الآن يا أمي، مرّت ساعتان على رسالتي، ومئة عامٍ على مهمتي، وألف عامٍ على سفر فرح.

لا أدري كيف غفوت البارحة، ولا أدري كيف استيقظت على صوت رسالة!

كنت أضبطُ المنبه في جوالي في أوقاتٍ أربعة، تصحوا المرايا والجدران وربما ساكني القبور، ولم أكن أصحو إلا عند آخر رنّة.

أما اليوم، باتت توقظني رنّة رسالة!!

كان الوقت باكراً، نسيت البارحة أن أغلق هاتف المهمة كما طُلبَ مني.

يداي ترتجف وهي تفتح الرسالة، شعرت أني أحمل لغماً بيدي، لغمٌ سينفجر حال لمس أزراره، ولكنّي مجبرٌ على فتح الرسالة، فهي من الوطن.

رغم أنّ المدّة التي استغرقتها في فتح الرسالة لم تتجاوز النصف دقيقة، إلا أني تخيلت أموراً عدّة قد أقراؤها فيها، وطبعاً لم يخطر ببالي أن تكون رسالة شكر وتقدير على مجهودي، ونجح ظني بهذا.

كانت عبارة عن صورة، فقط...

هم يتقصّدون إرباكي، ليس شعوراً فقط، أنا على يقينٌ بذلك، يحاولون نزع أيّةَ شجاعة فيني كي لا أقول " لا " يوماً، وما كنت لأقولها في وجه الوطن ليس حباً فيه، إنما خشية بطشه.

كانت صورة لامرأةٍ خمسينية مع أخرى عشرينية، تجمعهم ضحكة عفوية وشبهٍ كبير، لا أعرفهما أبداً، ولا أذكر يوماً أني رأيت وجيهما، ولكني أيقنت من الشبه الكبير أنهما أمٌ وابنتها.

بقيتُ ساعةً تقريباً أنتظر أيّ شيء عن الصورة، لكن دون جدوى، كنت في كل دقيقة أكتب رسالةً ثم أحذفها، ثم أكتب أخرى بعد تفكير طويل وتصميم بأني سأرسلها، ثم أحذفها، وأخيراً انتصر إبهامي على ذاك الزر الأخضر اللعين الذي يتوسط يسار الشاشة بعد أن وضعت إشارة استفهامٍ وأرسلتها.

ليأتي الرد فوراً – انتظر التعليمات – وعلمت بعدها أنه ردٌّ آلي.

كنت عاملاً نشيطاً في مخزنٍ كبير للألبسة الجاهزة، يملأ وقتي عملاً ممزوجاً بالضحكات والأغاني، والكثير من وقفات الشاي والتسكع في المحال المجاورة، لكن نداء الوطن جعلني ضمن فراغٍ كبير، لا أعرف كيف أعيش أو ماذا أفعل، كلّ ما أعرفه أني أنتظر التعليمات من مرسلٍ مجهول.

حتى أنّ المال الذي جمعته وكنت أريد الزواج بهِ بدأ ينقص، طبعاً... فالوطن أهم.

حاولت الاتصال بفرحٍ لكنّ هاتفها كان مغلقاً، نظرت للساعة كانت تقترب من العاشرة، فقررت إغلاق هاتفي والخروج.

خرجت للمخزن الذي كنت أعمل فيه، كانت نيتي أن أعود للعمل حتى لو غَضِب مني الوطن، لم أكن أعلم أن الوطن يحاسبنا على النوايا قبل الفعل، غضب عليّ الوطن فخسرت عملي حين رأيت أنّ شاباً قد بدأ العمل مكاني.

بحثت في المتاجر القريبة والبعيدة عن عمل ضمن الوظيفة التي تعلمتها فلم أجد، بحثت في عدة أماكن، في المطاعم والمقاهي والحانات، ولكن على ما يبدو أن غضب الله من غضب الوطن، لذا لم يوفقني الله في أيّ عمل.

لم أجد من يستقبلني بحزني وخطيئتي سوى كرسيٍّ قديم في حديقة ضمن أحد الجوامع القديمة.

لم يكن حولي أحد، فوجئتُ بشابٍّ وقف أمامي، في أواخر العشرينات من عمره، يرتدي طقماً رسمياً أسود اللون، ويحمل بيده حقيبة شخصية، وهاتفه "الآيفون" الفارِه.

- مرحباً... أنا سامر وأعمل في شركة خاصة للتسويق الإلكتروني، أعتذر على تطفلي، هل يمكنني الجلوس والتحدث معك قليلاً.

كان مهذباً جداً بكلامه وحركاته، وطريقة تقديم نفسه لي، كان يملكُ سحراً في جذب العملاء.

دعوته للجلوس مُرحِباً بهِ، فبدأ حديثه فوراً عن العمل كي لا يأخذ من وقتي على حد قوله.

- نحن مجموعة من الشباب، وأنا أعتبر نفسي منهم ولستُ قائداً عليهم، ليس لدينا قائداً يوجهنا، أيّ شخصٍ من الفريق يفعل ما يحلو له، ولكن بانتظام وبعد أن يخبرنا بما سيفعله، عن طريق إرسال فكرته ضمن الكروب الخاص بنا في الواتساب، عملنا سهلٌ جداً لا تحتاج لشيء أبداً، تستطيع القيام به من حاسبك الخاص أو حتى جوالك إن لم تكن تملك حاسباً، وأنا على يقين أنك ستشتري واحداً خلال أيام.

ثم بدأ بالضحك بطريقة مهذبة وأخرج علبة السجائر وقدمَ لي واحدة، شكرته وأكمل حديثه.

- عملنا لا يتطلب منك الاستيقاظ باكراً، أو الذهاب لمركز ما، تستطيع العمل وأنت على سريرك، أو هنا في الأماكن العامة، حتى إنك لن تدفع قرشاً واحداً، رغم أن أرباحك ستصلك بالدولار، في نهاية كل أسبوع، والأرباح تتفاوت لكنها جيدة دائماً وقد تصل شهرياً إلى ألف دولار إن كنت نبيهاً.

ثم بدأ بشرح المشروع لي، وأطلعني على مستندات عائدة للشركة، وعلى المنتجات التي تُطرح عبر الموقع الخاص بالشركة، وطريقة العمل على الموقع وشراء الأسهم لمن يريد.

وقبل أن أسأله عن الضمانات التي تقدمها الشركة، تحدث عنها في آخر كلامه حين قال:

- لا تقلق من شيء، فحقوقك مضمونة بالكامل عبر عقد بينك وبين الشركة، رغم أنّكَ لن تدفع قرشاً واحداً.

ثم سكت قليلاً وقال: ها... ما قولك؟

ترددت قليلاً لأني لم أفهم عمل الشركة بالتحديد، ولكنّي شعرت أنها فرصة جيدة لأستطيع تقسيم وقتي بين مهمتي الوطنية التي أُجبرتُ عليها، وبين العمل الذي لن أخسر شيئاً إن لم أربح منهُ، فقلت له:

- من حيث الفكرة لا مانع لدي، عندي الوقت كله، ولكن هناك بعض النقاط لم أفهمها حتى اللحظة.

فتح حقيبته والتقط عقداً وقال: سنملي العقد في الوقت الذي أشرح لك هذه النقاط، وقبل أن نوقّع العقد ستقوم طبعاً بقراءته مرّةً واثنتان وثلاثة، ولا تقلق من شيء، فالعقد الذي بيننا يخولك أن تنسحب في أيّةِ لحظة تشاء، ولا يعطينا الحق في فصلك مهما كان السبب.

أعطيته بياناتي الشخصية، الاسم والعمر ومحل الإقامة، وطرق التواصل، ثم أعطاني العقد لقراءته.

قرأت العقد مرتين، لم يكن هناك أيّ حرف يدعو للريبة، كان العقدُ مثالياً بمعناه أيّ عامل في أيّ مجال، تمنيت لو أنّ البند الأخير في العقد يكون أيضاً بيني وبين الوطن، فأترك مهنة المُخبر التي التصقت بي رغماً عني متى أشاء، ثم تذكرت أنّ الوطن لا يمضي عقوداً مع مواطنيه.

لم تمضِ ساعة حتى كنت عضواً في كروب "الواتساب" الخاص بالشركة وقد أرسل إليّ الشيفرة الخاصة للدخول الموقع.

لا أنكر أنّ هذا غيّر من تشاؤمي قليلاً، فقد وفّر لي سامر هذا الوقت والمال إن صح كلامه، وهكذا لن أكون عاقّاً للوطن، ولن أتقاعس عن مراقبة المرأتين.

المرأتان!! تذكّرت أنّ صديقاً لي له من الخبرة الكافية ما يجعله مرجعاً معلوماتياً لكل مجالات الأنترنت.

لم أكن أتواصل معه غالباً، لكنّي سمعته مرّة يقول أن لديه برنامجاً يستطيع إظهار الأغنية من موسيقاها فقط دون البحث عن اسم مغنيها أو كلماتها.

قلت في نفسي لعلّه يستطيع إخباري عن هاتين الامرأتين لأعرف كيف أتصرف إن أوكلت إليّ مهمة مراقبتهنّ.

اتصلتُ به وأخبرته عن حاجتي، قال لي وقتها، أنه يوجد بالفعل موقعاً يفيد في هذا الأمر، ولكنه ليس دقيقاً حتى أنّ نسبة دقته لا تتعدى الثلاثين بالمئة.

ثم قال لي: إن أردتَ، ارسل لي الصورة وسأكشف عن صاحبها إن كان مشهوراً، وقد يخطأ الموقع إن كان بين الصورة وبين أحد المشاهير تشابهاً.

ترددت قليلاً، خمّنت في نفسي، لابدّ أنهما معارضتان، وهو أيضاً مُعارض، وأنا مؤيّدٌ للنظام، فإن كانتا كذلك وعرفهما، فستكون أسألته كثيرة.

ومع ذلك كان الفضول عندي أقوى من تخميني فأرسلت له الصورة.

لحظة وصول الصورة له، ظهر لدي أنه يكتب الآن، ثم بعد ثانية جاءت رسالته، أعرفهم، لا داعي لأي برنامج، ثم أردفَ:

- لا أدري ماذا تفعل هذه الصورة عندك، فأنتم لا تعجبكم الحقيقة ولا تسمعون عنها. هذه السيدة تعمل ناشطة ومعارضة لنظامك، وابنتها التي معها صحفية، وقبل كلّ شيء هما صوت نسائي صادق، ماذا تريد منهما، فأني أعرفهما وأعرف أين تسكنان.

لم أعرف بمَ أجيبه وقتها، قلت لهُ أنّ الصورةَ وصلتني من رقمٍ لا أعرفه وشعرت أن وجيهما ليس غريباً عني، هذا كلّ ما في الأمر.

أرسل لي ضحكة وهو يقول: وجيهما حقيقة يعرفها الجميع إلا الجاهلين.

لم أكترث لما قال، لكنّ الهمّ زاد في قلبي حين تأكدتُ أنهما في اسطنبول، وأنهما معروفتان بين الناس، كيف سأقوم بمهمتي، وماذا سأفعل إن فشلت؟

فكّرتُ لثواني قليلة، ثم أكدتُ لنفسي أنّ الفشل مرفوض، فوالدي ما زال بينهم.

رنّ هاتفي نصف رنة، كان المجهول يتصل، أخذت الهاتف فوراً لأقرأ تعليمات الوطن، كنت خائفاً جداً، فما زالت مخالب الوطن في ظهري رغم أني أصبحت أحد أفراد قطيعه.

كعادتهِ، ذكر في رسالته اسميهما وعنوان بيتهما، لكن هذا المرّة، ذكر أيضاً طرق الاتصال بهما والأماكن التي يترددن عليها، ذكر عنهما أشياءً كثيرة، حتى ظننت أنهُ في آخر رسالته سيقول أنّ مهمتي انتهت وقد وجدوا مُخبراً أنشط مني، لكني كنتُ مخطئاً، فقد طلبوا مني هذهِ المرّة أن أكون صديقاً لهما خلال ثلاثة أيام، من ثم تقصّي جميع أخبارِهما.

يا إلاهي! ها قد حدد لي الوطن طريقة ثالثة للموت، الموت ضرباً بنعال المعارضين إن كُشف أمري.

حاولت إبعاد فرح كثيراً عن مسرح مهمّتي، لكنّ القدر لم يبعدها، لم أجد سواها أستند إليه وأشكي له حالتي لعلها تساعدني بشيء، لكن هاتفها مازال مغلقاً، حتى وائل اتصلت به كثيراً، لكن دون فائدة، لا أعلم بأيّ أرضٍ هو الآن، يبدو أنّ ذراعيّ تقطّعت وأنا من قطعتها.

قمت بإرسال رسالة لفرح ونفسها لوائل، قلت فيها: أرجو الاتصال بي فور وصول رسالتي هذه، أحتاج مساعدة، الأمر هام.

اغتيال الحقيقة

مدونة عرب 2011

تعدُّ الأكاديمية السورية المعروفة، عروبة عبداللطيف بركات، من أقدم معارضي نظام حزب البعث الحاكم في سوريا ورئيسيه، حافظ الأسد وابنه بشار، واختارت مدينة اسطنبول مكانًا لإقامتها منذ بداية الثورة السورية في العام 2011 لتكون قريبةً من بلدها فيما يبدو.

أقامت المعارضة السورية في عدّة دول بينها الإمارات العربية المتحدة وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، لتلقى حتفها في محطتها الأخيرة باسطنبول، منهية تاريخًا طويلًا من العمل السياسي المعارض يعود إلى ثمانينيات القرن الماضي.

وتنتمي الدكتورة عروبة لعائلة سياسية معروفة في مدينة إدلب في الشمال السوري، وسبق أن اعتقل والدها إبان عهد الحكومات السورية المتعاقبة التي حكمت البلاد بعد الاستقلال من الاحتلال الفرنسي.

وانضمت عروبة للمجلس الوطني السوري المعارض الذي تحوّل فيما بعد لكيان أوسع تحت اسم الائتلاف السوري، الذي ما زال يمثل طيفًا من المعارضة السورية، وعُرفت بمواقفها المناصرة للثورة السورية وناقدة لمؤسسات المعارضة في نفس الوقت.

وإضافة لظهورها الإعلامي المتكرر كواحدة من أبرز المعارضات السوريات، كانت عروبة حاضرة في غالبية الفعاليات والمظاهرات التي شهدتها مدينة اسطنبول ضد النظام السوري، وتضامنًا مع المدن والبلدات السورية التي تتعرض لقصف النظام.

وسارت الشابة السورية حلا بركات (22 عامًا)، على نهج والدتها، وإضافة لدراستها في الإمارات التي كانت تقيم فيها قبل أن تلتحق بوالدتها في اسطنبول، انضمت إلى إحدى الجامعات التركية لتكمل دراستها فيها وتتخرج حديثًا من قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية من جامعة "اسطنبول شهير" قبل أن تلقى حتفها.

كما شاركت الصحفية الشابة حلا في غالبية النشاطات والفعاليات التي نظمتها المعارضة السورية في اسطنبول، ناقلةً بلغتها الإنجليزية صوت المعارضة لوسائل الإعلام الغربية. ونشطت حلا في المجال الإعلامي المعارض، إذ عملت لحين مقتلها مع عدة مؤسسات إعلامية معارضة، من بينها قناة "أورينت نيوز"، إضافة لعملها في قناة "تي آر تي" التركية لمدة قصيرة، وشاركت في العديد من المقابلات وصناعة محتوى الأفلام حول معتقلات وسجون الأسد، ومناظرات حول سوريا.

واصلت الشرطة التركية تحقيقاتها حول الجريمة في محاولة لكشف ملابساتها والتأكد من كون مقتل المعارضتين السوريتين قد تم بدوافع سياسية.

وقالت مصادر في الشرطة التركية، حينها، إنه تم العثور على الصحفية السورية الدكتورة عروبة بركات وابنتها حلا بركات مقتولتين في منزلهما بمنطقة اسكودار، على الطرف الآسيوي من مدينة إسطنبول.

وأظهرت التحقيقات الأمنية الأولية أن جريمة القتل تمت باستخدام سكين، واستعمل القاتل مساحيق الغسيل لإخفاء رائحة جثتيهما.

أوقفت قوات الأمن التركية في ولاية بورصة، المدعو "أحمد بركات" للاشتباه بضلوعه في الجريمة، وأثناء التحقيقات تبين أنّ المشتبه فيه هو حفيد عم الضحية.

بعد إلقاء القبض على (أحمد بركات) المتّهم بجريمة القتل، اعترف المتهم بارتكابه الجريمة البشعة أمام محكمة الجنايات في إسطنبول بحديثه" أنا من قتل عروبة وحلا بركات، اعترف بذلك، وكلاهما أقربائي، وعروبة تكون ابنة عم أبي".

وروى المتّهم (أحمد بركات) قصته بأنّ والده وأخاه الكبير قُتلا في الحرب المندلعة بسوريا، الأمر الذي دفعه للهروب من الواقع والتخلص من الضغط الواقع عليه من أجل الانضمام لقوات النظام السوري ،بالوقت ذاته رحبت المغدورة عروبة بالمتهم حال قدومه تركيا وقالت أنها ستؤدي واجبها تجاهه دون تقصير.

الأمر الذي دفعني للمجيء إلى تركيا بالطرق المتاحة وبدأت العمل مع عروبة .

وزعم (المتهم) أن "عروبة لم تعطيه الراتب الذي وعدته به، رغم قيامها بتشغيله لديها، وهو أحد أقاربها".

وسرد المتهم قصته أمام القاضي "وبعد فترة من تركي العملَ مع عروبة، دعتني لتعطيني مالًا, وذهبت تلك الليلة (ليلة وقوع الجريمة) إلى منزلها، وعندما حل الصباح طلبتُ نقودي، فقالت أنها أعطت المال لشخص آخر، ولم يبق لديها المزيد من المال، لذا غضبتُ وبدأتُ بالصراخ بوجهها، فصفعتني فقمتُ أنا بدفعها".

وأكمل قائلًا "وقبل الخروج من المنزل أحضرت عروبة سكينًا ووجهته نحوي، إلا أنني أخذت السكين منها، وقتلتُها عندما بدأت هي بالصراخ عليّ، لتأتي ابنتها حلا التي كانت في الحمام آنذاك، وتبدأ بالصراخ عندما رأت أمها غارقة بالدماء، فطلبت منها السكوت لكنّها لم تنصت إليّ، فقمت بقتلها هي أيضًا، وتركتُ السكين في المطبخ وعدت إلى بورصة (جنوب إسطنبول)".

ونوّه (المتّهم) أنّهُ ليس هناك أيُّ جهة دفعته للقيام بارتكاب الجريمة مؤكداً ندمه الشديد على القيام بهذا الفعل المشين .

هذا وأمر القاضي بحبس المتهم بناء على اعترافاته على ذمة القضية . ولاحقاً وجّهَ له الادعاء العام تهمة القتل العمد التي من خلالها تم الحكم عليه بالسجن المؤبد مرتين، ليتم سجنه مدى الحياة، بعد اغتيالهِ للحقيقة[6].

[6] المكتب الإعلامي ل(أورينت نيوز).
شهادة أحد العاملين في القضاء التركي.
تسجيلات مصورة لاعترافات القاتل.
الموقع الرسمي للمرصد السوري لحقوق الإنسان.

وائل

توفيت أمي منذ خمس سنوات، لم أكن وقتها صغيراً، كنت في السنة الأولى في الجامعة، لكني لم أبكيها كما بكيت من ماتَ في غابات اليونان.

لا أعرف منهم أحداً، ولم تجمعني بأحدهم صداقة أو قرابة، ولكن حين يموت إنساناً من جوع أو عطش، فتلك لا يحتملها عقلٌ بشري، ولا نراها حتى في الأفلام الخيالية، آهٍ منك يا وطناً كل شيء فيك صار خيالاً إلا الموت حقيقة.

سوريون نحنٌ، جميلون جداً، والموت يعشقنا، نحن موتى مؤجلون، من سبقنا وفّر على نفسه الكثير من التعب.
فهمت الآن فقط لماذا يتقصّد الكُتّاب الابتعاد قليلاً عن الحقيقة المطلقة في رواياتهم، بعض الحقائق لا يصدقها حتى الخياليون، والحقيقة في وطني كاذبة.
بقيتُ وأصدقائي خمسة عشر يوماً في السجن، ننتظر دورنا في التّرحيل لسوريا كما قالوا لنا الحرس التركي حين استلمونا من الحرس اليوناني.
لكن لحسن حظي، كانت تلك أوّل مرّة أُحتَجزُ عندهم، لذا اكتفوا بتنبيهي وإمضائي على تعهد بأني لن أعيد المحاولة ثانياً، ثمّ أخرجوني من السجن، وكان معي زيداً.
لا أعرف ما حلّ بالبقية، لا أعرف إن كان حظي أفضل من حظهم أم العكس.

وصلت المنزل في صمتِ الليل، أخرجت هاتفي، أرسلت رسالة لوالدي ليطمئن عليّ، ثم أغلقت هاتفي ورحتُ في سباتٍ عميق.

تداولنا أحاديثاً كثيرة في السجن مع من وجدناهم قبلنا، كثيرون سردوا قصصهم بشكل كوميدي مضحك، وبعضهم كان يتألم حين يلفظ حرفاً، وآخر تعهد لنا أن نشاهد

قصصنا في فلمٍ تلفزيوني أو مسلسل، وآخر قرر أن يكتب قصته شعراً ويغنيه، وكثيرون يضحكون والدموع تحزّ حواف أعينهم.

أحدهم كان منزوياً، لم يبكِ حين بكينا، ولم يضحك، رأيته يقضم أضافره، رأيته أحيانا يرتعش كأنه عصفور صغير وسط الثلوج.

راقبته بصمت، شعرت بدمعةٍ حائرة تقف عند جفنه، شعرت بالكثير من الكلمات العالقة في حلقه، شعرت به يريد البوح ولا أذناً تسمعه، شعرت به كما شعرت بنفسي، فجميعنا هنا نتشابه، قلوبنا من زجاج لا تحتمل أحجار الغربة.

تقدمت إليه، كان الجميع حولي يبحلق بي، سمعت أحدهم ينادي باسمي، لكني لم أهتم بهِ.

خمّنت أنّ الصامت سيرفضني، أو يصرخ في وجهي، أو يبقى صامتاً، ولكن

لابدّ من محاولة لإخراجه مما هو فيه، لابدّ أن نتقاسم أحزاننا كما تقاسمنا المصير.

نظر إليّ بتعب حين ألقيت عليه التحية، بقيَ صامتاً، جلست وسألته عن حاله، بقيَ صامتاً، حتى أنه هذه المرّة لم ينظر إلي.

ربتُّ على كتفه محاولاً تصبيره وتهدئته، لكنه وقبل أن أتكلم بأي كلمة، طلب مني تركه والابتعاد عنه، احترمت رغبته وعدتُّ للبقية، سألني أحدهم: ماذا تريد منه، لمَ ذهبت إليه، كيف سمحت ليدك أن تلمس جسده النتن؟

فاجأني بكلامه، لم افهمهُ في بداية الأمر، تلفتُّ يميناً وشمالاً، ثم سألتهُ إن كان يقصدني، فقال: نعم أقصدك أنت، لِمَ تود الحديث معه والتقرب منه، ألا تعرف انتمائه وتفكيره، ألا تعرف أننا هنا بسببه وأمثاله، كنت أتمنى أن أدفنه في إحدى الغابات، غابات اليونان أخذت رجالاً صادقين، ولن تقف الأرض عن دورانها لو مات هذا الشبيّح.

فهمت الأمر الآن، لم أجداله، في أيامنا هذهِ رجلان لا يُناقشان، الجاهل المؤيد للنظام، ومثيله من المعارضة، هذان الصنفان، هم سبب ما جرى وما يجري وما سيجري.

كنت اسمع أحدهم يروي قصته أثناء حديثي مع الثوري المتعصب، كان يسرد لهم حكايته بضحكةٍ مليئةٍ بالدموع، ويحاول مقارنة ما نحن فيه بما كان أثناء سجنه في صيدنايا.

يضحك حين يذكر قصعات الطعام التي كانت تأتيهم في صيدنايا، حين يقارنها بالوجبات التي تُقدم لنا هنا.

وقف عند النافذة التي كانت تطل على ساحة السجن، أو الكامب كما كانوا يطلقون عليه الأتراك، أشار لنا بيده إلى السماء وإلى شجر الكستناء المنتشرة حول أطراف البناء، نظر إلى الشمس، إلى الناس الذين يمرون حول السجن والسيارات، ثم اتجه فوراً إلى باب غرفتنا المفتوح.

ضحك بهستيريا وصاح بنا، هل تحسبون أنفسكم مسجونين؟ انظروا حولكم، أنتم في نقاهة من الحياة، يأتيكم ما تطلبون وتتنقلون بين الغرف بكلّ أريحية، غرفتكم في الطابق الرابع، ولها نافذة كبيرة تطل على الحياة، أما أنا فكنت في الطابق الثاني تحت الأرض، ونافذتي لا تسمح لي إلا برؤية أحذية العساكر.

كان السجن الذي أقمنا به خمسة عشر يوماً، قيداً بالنسبة لشابٍ مثلي لم يدخل سجناً في حياته، ولكن معاوية كان يراه منتجعاً نرقد فيه فترة نقاهة من الحياة.

ذلك الصامت في زاوية الغرفة كان يستمع لحديثنا، رأيته يبكي حين ذكر معاوية كيف مات والده، وكيف كان يستمع إلى صراخ أخته وهي تغتصب وكيف قُتلت أخته الثانية أمام عينيه ولم يستطع فعل أيّ شيء.

حاول الثوري المتعصب أن يستفزه ببعض العبارات والشتائم التي يطلقها بعض المعارضون على الشبيحة والمؤيدين، لكنّه لم يحرك ساكناً، ظلّ على صمته وموقفه، حتى بدأ حنا وزيد بإسكات الثوري.

بعد ساعة تقريباً، كنت مع زيد في الممر المؤدي إلى الحمامات، رأيت الصامت يخرج من الغرفة متجهاً إلى النافذة البعيدة التي يُسمح لنا بالتدخين عندها.

ذهبت إليه ووقفت بجانبه ولم أتكلم بشيء، كنت أنتظر لأرى إن كان سيهرب أو يتحدث.

نظر إلي وقال:

- قال لي أبي قبل خروجي من المنزل، " إن لم تنطق حبالك الصوتية حقاً فاشنق نفسك بالسكوت".

ثم عاد لصمته الخانق، قلت له: هل أنت دمشقي؟

- نعم.
- ما اسمك؟
- هل يعني لك الكثير، أم إنك تحاول معرفة شيء ما من خلال اسمي؟
- لم أفكرّ بذلك؛ لا يهمني إن كنت شيعياً أو سنيّاً أو مسيحياً أو حتى ملحداً، ولا أهتم بميولك السياسي، إن كنت معارضاً أو مؤيداً، هذه حريتك ولا علاقة لي بها، يهمني فقط أخلاقك وإنسانيتك.
- اسمي قصي، دمشقي الأصل والمسكن، ابن ضابط، وابن حياةٍ عسكرية.
- وأنا وائل، من دير الزور، جئت لتركيا بقصد السفر لأوربا، ولكن لم يكتبها الله لي حتى الآن، حياتنا باتت كشبكة كبيرة، الكل يريد الخروج منها،

وأيّ حركة لا تزيدنا سوى ضياعاً والتفاف الشبكة حولنا، ولكن لديّ سؤال فضولي، لماذا تحاول السفر إلى أوربا، وأعتقد أن حياتك هادئة في دمشق؟

- لا شيء في دمشق يستحق الحياة، ولا شيء فيها يستحق الموت لأجله، قد أكون بنظركم خائناً للشعب، ولاهثاً وراء سراب سيزول يوماً ما، ولكني رأيت أموراً بعيني، جعلتني أرفض هذه الفوضى وأرضى بحكمٍ ظالم، ولكن يكفي أننا لسنا تحت رحمة عصابات أو مليشيات لا يُعرف أصلها، أرجوك، لا أريد التحدث بهذا الأمر، إن كنت فعلاً تودُّ مساعدتي، أريد منك طلباً صغيراً.
- تفضل، طبعاً
- أريدك أن تذهب معي إلى الضابط المسؤول هنا، لتترجم بيننا، إن كنت تجيد اللغة التركية، أريد أن ينقلني لغرفةٍ ثانية، وحين يُرحّلونا إلى سوريا، أريد أن أكون بعيداً عن الذي يسمي نفسه "أبو قتادة"، لا أريد أن تكون نهايتي على يدِ أحدٍ مثله.
- لن تموت على يده، وسأكون بجانبك لا تخف، أتعلم؟ أنا اجتمع معك في نقطة مهمة، ألا وهي " تحت رحمة مليشيات" أعتقد أنّهم تقصد الجماعات الإسلامية وداعش، أو بعض العصابات التي نَسبت نفسها للجيش الحر، أنا معك في هذا، ولكن من السبب برأيك، ومن أتى بهم؟

عاد إلى صمته مجدداً، بقيَ كذلك لثوانٍ ثم قال:

- هل تساعدني بالترجمة؟

- بالطبع، وسأكون معك إن رحلنا في اليوم نفسه.

لا أعرف ما حل به، فقد خرجتُ من السجن في اليوم الثالث بعد حديثنا، ولكن الضابط أكد له بعد الشرح الطويل بأنه سينظر في وضعه وسيحاول مساعدته.

استيقظت صباحاً على صوت بسّام، الشاب العابس دوماً، لا أدري كيف اختار أبويه هذا الاسم لشابٍ لا يعرف الابتسامة، والكآبة تحكمه منذ ولادته.

أخبرني أنّ ياسين اتصل بي كثيراً، وأنّه ينتظر أيّة أخبارٍ عني، قلت له سأتصل به اليوم لأعرف أخباره بعد أن سافر إلى دمشق، لكن بسام فاجأني حين قال أنه اتصل من رقمٍ تركي وأنه هنا في اسطنبول.

أخذت هاتفي فوراً وفتحت الرسائل، كان قد ترك لي عدة رسائل، كان يريد لقائي أو الاتصال به.

اتصلت به، أخبرته قليلاً عن رحلتي، واتفقنا على اللقاء بعد الظهر.

خرجت بعدها قاصداً المعهد الألماني الذي كنت أتعلم به اللغة الألمانية، أخبروني هناك أن نتائج الامتحان الذي قدمته منذ شهر قد ظهرت، وأني ناجح فيه، ويترتب عليّ الآن التقدم لامتحان آخر لأستطيع بعدها التقدم إلى السفارة الألمانية بكامل الأوراق المطلوبة.

فرحت كثيراً، وقفت عند جسر السلطان الفاتح وأطلقت صوتي نحو البحر، أصرخ فرحاً، وأصارع صوت البحر والنوارس بضحكاتي التي ملأت أرجاء اسطنبول، وأخيراً... يبدو أنّ "برلين" قد فتحت أحضانها لي أخيراً.

يزن

حين تعشق المرأة رجلاً بعمق، تعشق فيه تفاصيلاً لا يعرفها حتى الرجل نفسه، تعشق عروق يده، عرق جبينه، ذرات الغبار على كتفيه، تعشق وقفته في الشمس واتكائه في الظل، سعلته وبحة صوته، حتى أنها أحياناً تعشق صراخهِ حين يزجرها بقدر ما تعشق ضمّتهِ أو همستهُ في أذنها...

وحين يعشق الرجل امرأة بعمق، يعشق الحياة.

وأنا عشقتُ الحياة مرتين، مرّةً حين كنت عاشقاً لسارة، ومرّة حين كنت أباً مؤقتاً لابنتها.

لم أتصل بأمينة، ولم أرسل لها أيّ ردّ، ولم أغلق هاتفي أو أحظر رقمها من المراسلة، تركت كل شيء على ما هو عليهِ لعلّ صدفة ما تخبرني كيف حصلت على رقمي الجديد، هذا ما كان يشغلني.

أخذت حقيبتي لأُخرجَ منها الأوراق وأعيدها مكانها، بعد أن شعرت بغباء مطلق حين تذكرت حضور الشرطيين، كيف لشرطيين موظفين في إدارة الهجرة التركية أن يتكلما معي بلهجة دمشقية أصيلة، وأنا أعرف تماماً لهجة "عرب أورفا" الأقرب للهجة ريف الحسكة والرقة.

شعرت أنّ شيئاً سقط من الحقيبة، بحثت طويلاً لكني لم أجد شيئاً، فأكملت ماكنت أقوم به.

حينها جلست قمر بجانبي بعد أن أغلقت التلفاز وأحضرت لي علبة السجائر وطلبت مني أن أهدأ.

كنت أعرف حركتها تلك، فكلّ مرّة تطلب مني الخروج بها للحديقة أو للعب، كانت تحاول تهدئتي قبل ذلك بأن تحظر لي السجائر، كانت تظن أنّ السجائر تخفف من روعي، لا تعلم أنّ وجهها وابتسامتها وحدهما القادران على تفريح ملامح وجهي، ما أجملها! كأنها خُلقت من حبقٍ ونعناع.

كنت أفكر إلى أيّ مكانٍ ستطلب اصطحابها.

قلت لها قبل أن تتحدث، هل نذهب إلى حديقة الألعاب المائية، أم مازال الجو بارداً ،وكنت أرسم ابتسامة على وجهي التعيس، مسحت على وجهي وقالت:

- لا اريد الذهاب لأيّ مكان، كنت أودّ التحدث معك بأمرٍ للكبار، أعرف أني ما زلت صغيرة على أحاديثٍ كهذه، ولكني البارحة رأيت أن "سيرغان" قد تحسّن كثيراً بعد أن تزوج من الفتاة التي يحبها.

قاطعتها وسألتها عن سيرغان هذا، قالت بأنه بطل مسلسلها التركي التي بدأت متابعته منذ أيام، ثم أشارت بإصبعها ألا أقاطعها مرّة ثانية وهي تتحدث، وأردفت:

- أعرف أنك تتألم وأنت وحيد، وأنا أريد أن أجعلك سعيداً لذا قررت أن أزوجك من التي تحبها، ولن أتدخل في حياتك.

تفاجأت من كلامها وانتابتني موجة ضحك كضحكاتي القديمة، قلت:

- من علّمكِ هذا الكلام؟
- هكذا كانت أم سيرغان تتحدث معه حين شعرت بأنه يمر بحالة كآبة.

كانت تعابير وجهها وهي تتكلم مضحكة جداً، ولم أكن لأخفي ضحكتي أمام ابتسامتها.

فسألتها عن الفتاة التي اختارتها لي، فقالت بعجلة وفرحة مطلقة "فرح" قالتها وكأنها تنتظر سؤالي هذا.

قاطعتها وقلت لها بأنّ فرح مخطوبة وستتزوج قريباً، وبأنّ هذا الأمر للكبار فقط ولا يجوز للصغار التدخل به.

لا أدري كيف أدركت هذه الصغيرة أنّ قلبي قد مات حين دفنت والدتها، ولا أدري كيف فكّرتْ بإحيائه من جديد، كيف لي أن أخبرها بأنهم يريدون قتلي مجدداً وتمزيق قلبي حين يأخذوها مني.

لم أجد سوى ياسر أتحدث معه، دار بيننا حديث طويل، كان ينقسم حول المدونة أحياناً وحول حياتنا وحول الكلام الذي قالته قمر، كنت متوقعاً أن ياسر سيؤيد كلام قمر، وقد صاب توقعي، حتى حنين انظمت لحديثنا حين سمعت بموضوع الزواج.

طلبتُ منهما نسيان أمر الزواج تماماً، وأخبرتهما أنّ فرح مختفية منذ أسبوع ولا أعرف عنها شيء، حينها قال لي ياسر:

- هل فرح تعرف أمينة؟ هل يوجد من يعرف رقمك الجديد غير فرح؟

كان الشكّ قد احتل قلبي بأنّ فرح من أعطى رقمي لأمينة، ولكن كيف وصلت أمينة لفرح، نقاطٌ كثيرة توقفت عندها دون أجوبة.

في اليوم الثاني صباحاً خطر لي أن أتصل بفرح عبر برنامج السكايب الذي كنا نتحدث من خلاله سابقاً، خاصة أنّ رقمها ما زال مغلقاً منذ ذلك الحين.

اتصلت بها، لم انتظر كثيراً، حتى سمعت صوتها.

- فرح أين أنتِ، أين اختفيتِ، هل أنتِ بخير؟

- أنا أسفة يزن، لم استطع الاتصال بك، أنا بخير لا تقلق.
- أين أنتِ الآن.
- في أورفا
- ماذا؟!!، ظننتك قد سافرتِ إلى سوريا، لماذا لم تخبريني أنّكِ في أورفا
- يزن اسمع ما سأقوله، أنت الآن مراقب، لا أعرف مدى الخطر الذي يحيط بك، ولا أعرف أصلاً لماذا أنت مراقب، يجب أن نلتقي ولكن دون أن يراك أحد، أعملُ الآن في مستشفى بجانب المركز الثقافي، تعال أنت وقمر وادخلا إلى المستشفى وتصرف بطبيعتك، وحين تأتي اتصل بي وسأقول لك كيف سنلتقي.
- حسناً، سآتي فوراً.

لم أكن أعرف ما تخطط له فرح، ولكن كان عليّ المضي ورائها لأعرف من هم الذين يراقبونني، وماذا يريدون مني.

وصلت المستشفى، وبعد نصف ساعة تقريباً التقيت بفرح في الساحة الخلفية للمستشفى، حاولت مراقبة من حولي، لم أرَ أحداً ولم أشعر بأحدٍ وهو يراقبني.

أدهشني بكاءها الزائد وطلبها المتكرر بأن أسامحها على ما فعلت، أخرجت

هاتفها لأشاهد الرسائل التي وصلتها، شاهدتُ أيضاً صوراً لأخيها، وأخبرتني بأنها وضعت في حقيبة اليد الخاصة بي جهازاً صغيراً للتتبع.

أخذت الحقيبة من يدي لإخراجه، بحثتُ عنه كثيراً، لم تجدهُ، تذكرتُ وقتها الشيء الصغير الذي سقط من الحقيبة في المنزل، وفهمت الآن لماذا لم أشاهد أو أشعر بأحدٍ وهو يراقبني، هم غالباً يظنونني ما زلت في المنزل.

أعتقد أنهم لا يريدوني لشخصي أنا، أعتقد أنّ تحركاتي هي المقصودة، يريدون أن أبقى تحت أعينهم حتى وإن كانوا بعيدين عني.

عرفت أيضاً كيف وصلوا إلى شقّتي، وكيف وصلت أمينة إلى رقم هاتفي حين جاء الشرطيان وأخذوا مني جميع المعلومات التي يريدونها، ولم يبقَ أمامي سوى شيء واحد لمعرفته، هل أمينة من خطط لكلّ هذا، أم أنّ شبح حسام مازال يراقبني؟!!.

خرجتُ من المستشفى قاصداً بيتي، بعد أن أخبرتني فرح بجميع التفاصيل التي مرّت بها.

استغربت أيضاً أنها طلبت مني التفكير مليّاً بقمر وبأهلها الذين ظهروا، أحسست بكلامٍ خفي وراء كلامها، أو أنّ حنجرتها كانت تغتال الكلمات قبل نطقها.

فكّرت كثيراً في طريق عودتي، ماذا سأفعل، ماذا سأقول لو اتصلت بي أمينة ثانيةً، ولا تزال فكرة أن يخطفوا قمر مني تهش قلبي.

حين وصلتُ المنزل بحثت كثيراً عن جهاز الترقب حتى عثرت عليه، لم استطع التفكير كثيراً، فرسائل أمينة غافلتني من جديد.

فتحت هاتفي وبدأت بقراءة رسالتها.

- مرحبا يزن، كيف حالك، أعتقد أني أعطيتك الوقت الكافي للتفكير، أنا لا أطلب منك المستحيل، ولا ألومك على أيّ فعلٍ ستقوم به، ولكن مهما فعلت لن تصبح قمر ابنتك، الأوراق التي بحوزتك لن تنفعكَ بشيء لو طُلب منك إثبات القرابة بينك وبين قمر، بل إنّها ستكون حجّة عليك لا لك، فكّر بالأمر ملياً، ولا تدع الأمور تتطور أكثر، بانتظار ردّك.

فكّرت كثيراً، الساعة كانت ثقيلة جداً بحركتها، كنت أنظر إلى قمر، كبرت حقاً، لم تعد قمر الطفلة التي كنت أصحبها صباحاً للروضة وأعود بها ظهراً، أصبحت الآن طالبة ابتدائية، في صفها الأول وعلى وشك إتمامه.

رأيتها عند النافذة تضحك وهي تخاطب صديقتها في المدرسة والتي يسكن أهلها مقابل بيتنا، لقد أجادت اللغة التركية بطلاقة، أصبحت تتحدث أحسن مني، حتى إنها لم تعد تشاهد البرامج الكرتونية كثيراً، بل أصبحت -كجارتنا- تتابع المسلسلات وتحزن على موت أبطالها.

طلبتُ منها الجلوس بجانبي، بادرتني بالسؤال:

- هل سنذهب إلى الحديقة؟
- لا، هنالك أمراً أودّ التحدث به معك.
- هل يجب علينا التحدث الآن؟
- وصلتني البارحة رسائل من عمتكِ أمينة، وقبل قليل أرسلت لي رسالة وتريد مني جواباً، عمتك تريد منك السفر إليها والعيش معها، فما رأيك؟
- لا... هل ستتركهم يأخذوني؟ لا تريد... من عمتي؟ انا لا أعرفها.
- ألا تذكرين عمّتكِ! رأيتك تبتسمين البارحة حين شاهدنا الصور!!
- إنها صور أمي، كنت أبتسم لأنني رأيت أمي، فقط.

حين قالت "أمي" رأيت عينها تغرق بدمعة يتيمة، كأنّ الدمع في عيونها جفت منابعه، حتى أنها حاولت أن تمنع نفسها من البكاء، رأيت ذلك في ابتسامتها التي ارتسمت على وجهها حين نظرت إليّ.

لم تبكِ أمامي سابقاً، حاولتُ جاهداً ألا أرى دموعها، لكن هذه المرّة لم أقوَ على منعها، تركتها جالسة وهممت بالنهوض.

أمسكت يدي وقالت: هل ستتركني؟ هل سترسلني للعيش عندها؟ أنا لا أحبها، لا أعرفها أصلاً، أريد أن أبقى معك أنت، حتى وإن عادت أمي من السماء سأبقى معك، أرجوك يا أبي لا تدعهم يأخذونني.

أبي!! مرّ زمن على هذه الكلمة، لا أنكر أني كنت أفرح كثيراً حين تناديني ب "أبي" أمام الناس، ولكن في بعض الأحيان كنت أمنعها تحسباً لهذه اللحظة.

أحسست أن الشلل الفكري الذي أصابني منذ أيام، امتدّ ليشمل معظم جسدي، لا أعرف ماذا سأفعل، إلى من سألجأ واستنصح.

رأيتها تنسحب من أمامي، تتلاشى كآخر غيمات حزيران تجرُّ خلفها قهراً دون أن تمطره، دخلت لغرفتها ثم أغلقت الباب.

دخلتُ وراءها، كانت تحتضن صورة سارة وتجلس في زاوية الغرفة، كانت تبكي.

منذ ثلاث سنوات لم أرها تبكي، كانت آخر مرّة بكت فيها، حين قالت لي "قل للطبيب أنّ أمي لا تنام في هذا الوقت ولا كلّ هذه المدّة"، آخر مرّة بكت فيها حين ماتت أمها، وهي الآن تبكي.

رفعتُ رأسها بيدي ومسحتُ دمعتها، قالت: أنا خائفة، لا تتركهم يأخذوني، أنا لا أشعر بالخوف حين تكون بجانبي، حين أغفو بجانبك وأنا استمع لقصصك قبل النوم، هل أصبحت تكرهني، لا تنسَ إني أمانة في رقبتك كما قالت لك أمي قبل أن تذهب للسماء، أرجوك، أريد البقاء بجانبك، ألعب معك ونذهب للتنزه معاً، هذه المرأة أنا لا أعرفها، ولا أعرف إن كانت ستلعب معي وتحكي لي قصصاً جميلة كالتي تحكيها أنت.

كان صدري يشتعل، كانت النار تحرقُ ما في داخلي، وكنت أحاول منع نفسي من البكاء، كنتُ كطفلٍ يريدون أن يأخذوا منه أمه.

اتصلت بياسر لآخذ برأيه كعادتي، كان جوابهُ جافاً ومملاً، كأن أحدهم لقّنه الجواب ليقوله حين السؤال، لكنّ أسئلته التي طرحها عليّ لم أكن قد فكّرت بها مسبقاً رغم أنها خطرت في بالي مراراً.

من سيعتني بها حين تبلغ، من سيعلمها، من ومن ومن، ومن سيعتني بها لو أصابني مكروه...

الجملة الأخيرةُ، كانت تحرقني حين تخطر ببالي، ماذا لو أصابني مكروه، ماذا لو مات يزن؟ اين ستذهب ومن سيكون لها؟

كان أمامي حلٌ من اثنين، إما أن تعود قمر لأهلها أو أتزوج.

فرح

كنتُ حينها في مقعدي، في الباص المتجه للريحانية، لم أكن أرغب بالعودة لإسطنبول، وكان الخجل من يزن قد منعني من البقاء في أورفا، ولا أعرف أحداً في ولايةٍ ثانية.

حين بدأ الركاب بالتوافد والجلوس في مقاعدهم، وقبل أن يتحرك الباص، نهضت من مكاني بلا وعيٍ مني، وهربتُ من الباص كالهاربةِ من موت، لا أعرف لماذا، ما أعرفه فقط أني تائهة ولا أعرف أين سأصل.

كان سائق الباص يصرخ، لم أجبهُ، مضيت نحو المقاهي المحيطة بالكراج.

جلستُ قليلاً لألتقط أنفاسي، ثم اتجهت نحو المدينة.

لم تكن لديّ أيّةُ وجهةٍ أقصدها، أخذت هاتفي، كان ما يزال مغلقاً، لم أستخدمه منذ البارحة، اتصلت بأمي لكي أطمئن عليها، أخبرتها أني في أورفا وأني بخير، وسأبقى بأورفا فترة من الزمن ثم أرى ما تصنعه الأيام.

تلمست الشاشة كثيراً، كنت أبحث بين الأسماء عن اسم يُسعفني، ترددت كثيراً بالاتصال بياسين، لم أفهم رسالته، لم يكن فيها شيئاً غريباً، هو دائماً يحتاج لأيّ أحدٍ ولا يستطيع التصرف بمفرده.

أما يزن، فلم أكن أجرؤ أن أتصل بهِ، بعد أن قابلتُ صداقتهِ بخيانة لا أعرف ماذا ستكون نتائجها عليه لاحقاً.

خطر لي أن أُجازف بكل شيء، وأن أهرب إلى أي مكان، ويبدو أنها الفكرة الأنسب، ولكن إلى أين، لا أقارب ولا أصدقاء، والنقود التي معي ستنتهي قريباً إن بقي الوضع هكذا.

كنت أعرف امرأة عجوز، تسكن في بيت كبير في إحدى الحواري القديمة، تؤجر غرف منزلها للفتيات. لحسن حظي كان عندها مكاناً لي في غرفة مع فتاة من الشمال التركي جاءت للدراسة في أورفا.

وقد استطعتُ تأمين عملٍ في مستشفى قريب بواسطة إحدى الفتيات المقيمات معنا.

تأقلمت بعد أيامٍ قليلة، أخذت رقماً جديداً بعد أن أتلفت رقمي السابق، وقمت بإنشاء حساباتٍ جديدة في أغلب برامج التواصل وألغيت جميع الحسابات القديمة، إلا في برنامج السكايب، فهو قديمٌ ولا يعرفه أحد سوى يزن وحنين.

حين رأيت اسم حنين، خطر ببالي أن ألجأ إليها، لتكون صلة الوصل بيني وبين أخبار يزن. تفاجأت أنها كانت تبحث عني كما قالت، وطلبت مني ألا أقول ليزنٍ أننا تحدثنا، وبأن أحاول إقناعهُ بإرسال قمر لعمتها والاطمئنان من حضانتها، كانت تتحدث بكلامٍ منطقي بعض الشيء عن قمر ومصير بقاءها مع يزن حين تكبر قليلاً، كانت محقّة ببعض الأمور وقد بالغت في بعضها، لكني استنتجت شيئاً من كلامها كان هو الاحتمال الوحيد الذي لم استطع التفكير به. لابدّ أن أمينة عمة قمر هي وراء ما حلّ بي، بسبب قربي من يزن وثقته العمياء بي، ولكن كيفَ وصلت إلي، من دلّها عليّ ولماذا كلُّ هذا العناء إذ هم أصلاً يتواصلون مع يزن؟!!

مضى الاسبوع الأول على مضض، اتصالات حنين كانت كثيرة، وباتت مزعجة بالفترة الأخيرة، خاصة أني لم أخبرها شيئاً مما قمتُ به أو ما حل بي.

حتى اتصل بي يزن أخيراً بعد الأسبوع الثاني، نجحت خطتي بإبقاء حسابي في السكايب، كنت أنتظر اتصاله في كلّ ساعة، ولم أكن شجاعةً بأيّة لحظة للاتصال به، كنتُ خائفة أن يكون قد شاهد جهاز التتبع وبالتالي سيبدأ بالشك في صداقتي له.

لم أستطع إخباره بكلِّ شيء حين التقيتهُ في المستشفى، لم أشأ أن أزيد ما فيه من هموم، بالكاد استطعت إخباره بموضوع تتبعه، ثم سمعتُ الطبيب الذي أعمل عنده يبحث عني، فقطع كلامي يزن وخرج كي لا يتسبب بأيّ إحراج.

تلك الليلة كنت سارحة في خيالي، تأخذني أمواج الخيال لبعيد، لم يبقَ شيئاً إلا وفكّرت به دون أيّ نتيجة أو فائدة.

اتصلتُ بأمي للاطمئنان، كنت أخشى أن يكون قد أصابهم أيّ مكروه في فترة اختفائي وتغيير رقم هاتفي، ولم أكن قد أخبرتها برقمي الجديد.

كانت تحاول معي هذه المرّة بجدّة، تطلب مني السفر لإسطنبول والعودة لياسين وتسريع زواجنا، كانت تقول أنّ ياسينَ شابٌ جيد ومجتهد ويحبك وعليك مصالحته، رغم أنها لم تلتقِ به مطلقاً.

كلامها شدّني أن أتصل بياسين، خطر لي أن يكون قد تحدث معها لتتوسط له عندي، شتمته حين خطر ذلك ببالي.

لم أنتظر كثيراً، كان جوابه سريع، حتى قبل أن يرن هاتفهُ. ردَّ بصوتٍ مرتجف.

- ألو...
- مرحباً ياسين، كيف حالك، أنا فرح.
- فرح... آه كم أحتاجكِ، أين أنت فرح؟ أنا بأمسِّ الحاجة لك.
- أنا في تركيا، لكني لستُ باسطنبول، هل تستطيع التحدث؟

- آمم، نعم، لا شيء لدي، كيف حالك، كيف حال أمك وأخوتكِ.

تغيرت لهجته فجأة، أحسست أنّ شيئاً يمسكُ حنجرته، أيقنت أنه في مأزقٍ حقاً، خطر ببالي سريعاً يزن وقمر، ولكنّ ياسين لا يعرف الكثير عن يزن، ولا يعرف تفاصيل قصة قمر، فلماذا يُدخلانهُ في القصة. قلت له:

- هم بخير وأنا كذلك، وأنت؟
- بخير... بخير، أنا أعمل وصحتي جيدة، الصوت ليس واضحاً، ألو.. فرح هل تسمعينني.

فهمت وقتها أنه لا يستطيع التحدث، تداركت الموقف وقلت له:

- لا عليك، فقط أريد منك كلمة السر لحساب ال gmail

خرجت منه كلمة " تمام"كأنها حبل النجاة، فهم أنّ فكرته وصلتني، أرسلت له رسالة في الإيميل بأن يقوم بالاتصال عبر السكايب، بعد نصف ساعة تقريباً جاءني اتصاله، كانت مكالمة فيديو.

لم يكن ياسين الذي أعرفهُ، لم أرَهُ سابقاً بهذا الوجه المتعب، وجههُ شاحب وقد بدأت عظام وجهه تظهر بسبب ضعفه المفاجئ.

ما إن رآني حتى انفجر باكياً، أخبرني بقصته منذ وصوله دمشق حتى لحظتنا تلك، كنت في قمة اندهاشي بما أسمعهُ، شاهدت الهاتف الذي أعطوه إياه، شاهدتُ جميع الرسائل التي وصلته، شاهدتُ صورة الامرأتين اللتين سيتم مراقبتهما من خلاله، لم أحتج سوى لثانية لمعرفتهما، كانتا ألمع نجمتين نسائيتين في سماء المعارضة، أيقنت فعلا أنّ ياسين بخطر.

قلت لهُ أن يرمي كل شيء وراءه ويهرب، لكنّه أسكتني حين برر خوفه من الهروب بأنهم سيقتلون أبوه، أو يستخدموه كورقة ضغط.

كنت أغلي من الداخل، رغم ذلك أحسست بابتسامةٍ تشفي الغليل الذي بداخلي، وددتُ أن أقول له: "أريت النظام الذي تدافع عنه، ها قد أصابك بعض أشواكه وعليك أن تقلعها بيديك" ولكن هذا ليس وقتاً لإثبات الرأي أو التشفّي، الأمر الذي هو فيه أكبر بكثير من وجهة نظرٍ بين مؤيدٍ ومعارض.

اقترحت عليه أن يتعامل معهم بغباء، أن يقول مثلاً بأنّه لم يستطع الوصول إليهم، مهمة بعد الأخرى سيملون منه ويوظفون غيره، قاطعني وقال: "أو يقتلوه ويقتلون أهله ويلعنون سلالة أبيه"، كان محقاً، لقد فجّر النظام بناءاً فيه سبعة من خيرة ضباطه وأعوانه كي يحرق جميع الدلائل، ولم ترمش له عين، فمن ياسين بنظرهم؟

انتهى اتصالنا دون أن نصل لحل، أخبرني بنيته أن يلجأ لوائل، لكني لم أرحب بفكرتهِ كي لا تزيد دائرة العارفين حولهُ.

حتى ياسين الذي كنت أحاول اللجوء إليه وقت تضيق بي السبل، وجدته عالقاً بمستنقعهم أكثر مني، يبدو أنّ لعنة الحرب ستطال الجميع، حتى الذين سيولدون بعد انتهائها.

فكّرتُ في نفسي أن أخبر يزن، ولكنّي لم أجد فائدة من إخباره، ومع ذلك لم أجد سواه يواسي عتمة ليلي وضيقته.

اتصلت به، كان متعباً هو الآخر، حدثني عمّا دار بينه وبين قمر، جميعنا يغرق بمستنقع الحياة، نحاول أن نتحرك لنخرج، فلا نزداد سوى غرقاً.

أذكر أنّ عيني غفت لثوانٍ قليلة، ثم جاءتني رسالة.

" الهروب من الوقع مؤلم، أكثر من ألم الواقع نفسه، لا تحاولي الهروب، الأيام كفيلة بإعادة كلّ شيء لمكانه الصحيح".

لم أكن أعرف صاحب الرقم، اتصلت بهِ مرتين لم يجب على اتصالي، رأيت صورته الشخصية في الواتس آب، كان يشبه لحدٍ كبير الرجل الذي رأيتهُ في الكراج، ولكن ليس هو، يوجد فارق واضح في العمر.

سيطر الخوف عليّ من جديد، أحسست أنّ معدتي أصبحت قطعة ثلج، وأنّ العروق في جسدي تتقلص وتتجمد، أحسست أنّ روحي تُذبح عند أعتاب حنجرتي، لا أعرف ما السبب، لكنّ الخوف شلّ حركتي تلك اللحظة.

ثلاثة فقط من يعرفون رقمي الجديد، وهذا الرابع، صورة الرجل الذي في الكراج سيطرت تماماً على تفكيري، من يكون يا تُرى، ماذا يريد مني ولمَ يلاحقني، لماذا يختبئ وراء رسائل غامضة، ويراقبني من بعيد.

لم أكن واثقة من حدسي، ربما صدفة وضعته في طريقي ثم وضعت صورة تشبههُ على رقمٍ يرسل لي رسالة غامضة، ولا يجيب على اتصالاتي، ولكن أيُّ صدفة حمقاء هذه!.

لا أحد يعرف رقمي الجديد سوى ياسين وأمي ويزن، أردتُ الاتصال بهم لكنّي وجدت أنّ الوقت قد تأخر كثيراً، على استفساراتٍ كهذه بعد منتصف الليل.

كنت قد قررت أن أذهب غداً لمسجد الخليل(جامع ابراهيم الخليل)، كما فعلتُ بالعطلة الماضية، ارتحت كثيراً وقتها، حين خلوت لنفسي بين زوايا بيت الله، وقررتُ الذهاب مرّةً أخرى.

للمسجد ساحاتٌ كثيرة، وحدائق عامة كبيرة، ومع ذلك لم يهدأ صدري إلا حين دخلت بهو المسجد، لم يكسر توتري الهواء الطلق بين أشجار الحدائق المحيطة بالمسجد، ولا حتى مشاهدة الأسماك التي يروى أنها كانت الحطب الذي أشعلهُ نمرود لإحراق نبي

الله ابراهيم، ولا حتى البحيرة الكبيرة التي يقال إنها كانت النار المشتعلة. ما أراح صدري وهدأ نفسي هو الجلوس بين يدي الله، للمساجد رائحة خاصة تزيل عنك كلّ هموم وشوائب الحياة.

دخلت من بابه الرئيسي، كنت أنظر حولي كأنني أبحث عن أحدٍ ما، كنت أرى وجه ذلك الرجل في أغلب الوجوه، لا أنكر أني كنت أبحث عنهُ، دون أيّ تفكيرٍ بمَ سأفعلهُ إن رأيته.

أثناء ذلك خطرت لي فكرة لربما تساعدني أو تساعده إن كان فعلاً يراقبني.

اتصلت بأمي وأخبرتها أني في عطلة، وأني الآن في جامع الخليل، المعروف لجميع القاطنين في أورفا. اتصلت بياسين أيضاً، شعرتُ به وهو يفكر بغبائي وأنا أحدثه عن الجامع وحدائقهِ، كنت أتقصد أن أُريه المكان الذي أجلس فيه.

اتصلت بيزن أيضاً، قلت له أني في عطلة، وعرضت عليه أن يأتي هو وقمر، اعتذر مني وقال أنهُ في العمل، وقمر في المدرسة، ولن يستطيع بهذا الوقت.

شعرت أيضاً بهِ وهو يفكر بغبائي.

انتظرت ساعة خارجاً، ثم دخلت لبهو المسجد من جديد، ارتحت أكثر شعرت أنّ الهموم تنسلخ مني، كأني أولد من جديد، مع كل نفس أتنفسه من رائحة المسجد.

جلست ساعة تقريباً دون أيّ شيء غريب حولي، حينها قررت الخروج ورمي جميع الأوهام خلف ظهري، قلت في نفسي أنّ صاحب الرقم سيتصل يوماً إن أراد مني شيء.

خرجت من المسجد قاصدة السوق المحيط بالمسجد، رأيت امرأة أربعينية تنظر إليّ كأنها كانت تنتظر خروجي، مضيت في طريقي دون أن أهبها أيّ اهتمام، تبعتني قليلاً،

وقفتُ فوقفتْ، رأيتها تحمل هاتفها ثم وضعته في هيئة الاتصال، ثوانٍ قليلة، رنَّ هاتفي في حقيبتي، لا أدري، ولكني شعرت بخوف يخترق جسدي، نظرت إلى الشاشة، كان نفسه الرقم الذي أتتني منه رسالة البارحة.

رأيتها وضعت هاتفها في حقيبتها وتوجهت نحوي مبتسمةً، وقفت أمامي دون كلام، ثوانٍ قليلة ثم رددت نفس العبارة التي أرسلتها لي أمس، ثم قالت:

- أسفة جداً، لقد سمحت لنفسي أن أتطفل على وقتكِ دون أذنٍ منكِ، لا أعرف أحداً يمكنه مساعدتي غيرك، لقد حجزت الطاولة رقم ٨ في

المقهى هناك، أتمنى أن تساعديني وسأشرح لكِ كل شيء.

- من أنتم وماذا تريدون مني؟
- ماذا تقصدين بأنتم؟ لا أعرف أحدا هنا في أورفا، ولقد أعطتني أمك رقم هاتفكِ وقالت أنك ستساعدينني، أما عن الرسالة، فتلك كانت نصيحة لا أكثر.
- بماذا أساعدك؟
- الطاولة تنتظرنا، هل يمكننا الجلوس والتحدث؟

ياسين

الكآبة بدأت تعرف طريقها إلي، أصبحتُ والعتمةُ صديقين مثاليين، تحضر دائماً حين أكون وحيداً، حتى أنّ سجائري باتت لا تفارق يدي، رغم أني تركت تدخينها منذ أكثر من عام.

كنت أفكر بطريقة ما ألبي بها نداء وطني. قبل أعوام، كان نداء الوطن

(الخدمة الإلزامية) شيئاً مشرفاً رغم ما فيه من مصاعب ومتاعب، إلا أنّ الشاب حين يذهب لتلبية نداء الوطن كان يشعر بشيء من الفخر والهمّة.

أما أنا، نداء وطني لم يزدني إلا هماً وكآبةً وتفكيراً بكلّ شيء حولي. جميع تفكيري كان يصبّ في اتجاه واحد؛ كيف سأدخل عالم هاتين الامرأتين.

كيف سأصبح صديقهما خلال ثلاثةِ أيام! بدأت أفكر بأشياء كثيرة سخيفة جداً وتافهة، أفكارٌ لم يخطر ببالي يوماً أن أفكر بها.

أعلم أنّ بداخل كلٍّ منّا مُخرجاً سينمائياً وكاتباً وممثلاً، حاولت بهم جميعاً لأصنع لنفسي دوراً أدخل من خلاله عالميهما، لكني فشلت.

حاولت أن أكون مُخبراً مجتهداً، حاولت أن أخون مبادئي هذه المرّة بكل ضمير، قرأتُ عنهما في محركات البحث، سمعت لهما الكثير من الحكايات، كانتا عبقريتين بانتقاء الحديث، أغلب المقالات كُتبت في الأم، لم تكن للابنة دور كبير كأمها. تلك الليلة تعرّفتُ بفضل وطني على امرأتين عظيمتين، وتعلمت الكثير منهما.

حين رنَّ هاتفي، اختلجتُ للحظة، إصبعي كان سريعاً، دون أيّ شعورٍ مني كان الهاتف عند أذني ولساني ينطق.

شعرت بشيء يخترق عقلي وقلبي حين سمعت صوت فرح، شعرت به متعباً، لكني لم أبالي ولم أسألها، كنت أنتظر هذه اللحظة لأتكلم، كنت متخماً بالصمت، وكان البوحُ هو المنفس الوحيد كي لا أصاب بالتخمة التي سببها لي الوطن.

نباهتها كانت تنتشلني في أغلب المواقف التي تعترض تفكيري، حتى هذه المرّة كانت السبّاقة لجعل لساني ينطق، حين ألهمتني بأن أتصل عبر السكايب.

كانت جميلة، رغم نظرات الشماتة التي شعرتُ بها. خطر لي أني سأسمع كلمة "تستاهل" أو "ياشماتي بيك"، لكنها لم تقل. بل قالت ما يعطيني القوة لأستمر في الثبات على مبادئي حتى وإن كنتُ مخطئاً.

ورغم إننا لم نصل لحلٍّ يرضي الوطن ويحافظ على رقبة أبي، إلا إني أيقنت أن مهمتي شبه مستحيلة ولم يبقَ أمامي سوى الاستغباء والمماطلة، حتى يأتيني فرج من الله.

كانت رسائل المجموعة التي يشكلها أعضاء عملي الجديد، تنهال عليّ بكثرة.

قرأت الكثير منها، كان أغلبها من سامر، يتحدث فيها عن محالٍ تجارية تطلب إعلانات، أو تسويق ضمن الموقع، ويجب علينا الإسراع لتلك المحال وطرح الخدمات لعلّها تكون من نصيب أحدنا.

كتبتُ عناوين بعض المحال القريبة، وقررت الذهاب إليها صباحاً، بعد أن فكّرت كثيراً بمهمتي الاستخباراتية، فوجدتُ نفسي غير مؤهلاً بأيّ طريقة أن أكون صديقها خلال ثلاثة أيام، أو حتى ثلاث سنين؛ فجميع من حولي يعلم أني مؤيداً للنظام، وهذا الأمر لن يخفى عليهما بأيّ شكلٍ من الأشكال.

استيقظت صباحاً، كان الصباح جميلاً هذا اليوم، رغم أنّ الغيوم كانت تتسابق لكبد سماء اسطنبول، ونفحات البرد تشير إلى شتاءٍ مبكر هذا العام يحمل أمطاراً وثلوجاً ولياليٍ طوال. خرجت في العاشرة صباحاً متجهاً للمحال التجارية المدونة لدي، كان عملي يقتضي أن أصور المحال من الخارج والداخل، وتصوير البضاعة والاستفسار عن بعض العروض وعن طريقة الشراء عن بعد، وإرسال جميع المعلومات إلى سامر، ليقوم بدوره بنشرها عبر إعلاناتٍ في مواقع كثيرة، وأيّ عائد يأتي من هذه الإعلانات أو شراء عبر موقعنا، يكون لي نسبة من الأرباح.

كان عملاً سهلاً وممتعاً بعض الشيء، حتى أني اقترحت خلال يومي الأول عدة محال ومتاجر أخرى للإعلان عنهم.

اتصلت بي فرح أثناء ذلك، كان اتصالها غبياً بعض الشيء، لم أفهم لماذا كانت تُريني المكان الذي تجلس فيه، لم تكن طريقةً "للاستمتاع" كما قالت، أو حتى كي تقارنَ بين جو أورفا المشمس، وبين سماء اسطنبول التي اكتظت بغيومٍ ثقيلة وباتت على وشك أن تمطر بأيّ لحظة، حتى أنها لم تدع لي المجال لأتكلم، كانت تريد مني أن أرى المكان الذي هي فيه ولم أفهم لماذا.

عدّتُ للمنزل قبل إتمام عملي، كان المطر قد بدأ بالهطول، وباتت شوارع اسطنبول تبدوا أكثر ازدحاماً والناس يتزاكضون.

اتصل بي سامر مساءاً، ليخبرني أنّ الدولار الأول قد أصبح في خزنتي ضمن الشركة، وأنّ البقية في طريقها مع كل مشاهدة أو شراء، لم أفهم كثيراً لكني كنت سعيداً حين فتحت الموقع الخاص بي ورأيت أن حصتي بلغت ضمن اليوم الأول أربعةُ دولارات، وكان الرقم يزداد بنسبة ضئيلة في كلّ مرّة أفتح بها الموقع.

أغلقت هاتفي متجاهلاً كلّ شيء حتى وطني ومهمته الاستخباراتية، سأفشل بالتأكيد، لا مجال للمحاولة، تركت للّيل الهموم يقلبها كما يشاء، رغم أني أصبحتُ ليلاً من كثرة ما فيّ من هموم.

لم أغفُ بعد، كنت أتقلب يميناً ويساراً، تأخذني أفكارٌ كثيرة، جميعها دون فائدة ودون هدف، كنت أحاول التفكير بأيّ شيء، وأحاول الابتعاد عن التفكير، بدأت أتحسس عقلاً آخر ينبت في رأسي، كنت أشعر أنّ أحدهم يصرخ بداخلي، كنت أشعر أنّ مصحاً عقلياً يصرخ في عقلي.

فتحتُ هاتفي، وددّتُ الاتصال بفرح، لكنّ الوقت منعني، كانت الساعة قد تخطت الثانية ليلاً، حينها بدأت الرسائل بالتهافت إلى هاتفي.

إحدى المحادثات، كانت من رقم سوري لا أعرفه، كان فيها صورة تجمعني مع أخواتي، صورة قديمة، كنت حينها في الصف السادس، نظرت إليها مطولاً، بكيت كثيراً قبل أن استفسر عن صاحب الرقم، كانت ملاك تنظر إليّ في الصورة، تمدّ لسانها وتحاول إغاظتي، فاطمة كانت تحمل دميتها القماشية التي صنعتها لها جدتي حين نجحت في الصف الأول، كانت هذه الصورة بمناسبة نجاحي في الصف السادس ونجاح فاطمة في صفها، أما تهاني فكانت خلفنا تحيطنا بذراعيها وتبتسم، كانت دائماً ترسم لنفسها صورة الأخت الكبيرة والأم الحنون، شممت رائحة أمي في تلك الصورة، تلمست كفّها، ورأيت نفسي طفلاً بين أحضان أبي، كنت مدللاً عند أبي، فأنا سنده الوحيد كما كان يقول لي، كان يقول أيضاً أني عكازه وقت العجز، كبرتُ يا أبي وجعلني الوطن خنجراً في خاصرتك، وجعلني كرتاً حارقاً سيحرقك إن لم أفعل ما يُطلب مني.

جاءتني رسالة أثناء ذلك.

- ياسين، كيف حالك أنا تهاني.

- أهلاً تهاني، أنا بخير، الآن أصبحت بأفضل حالاتي، أين أنت، ولماذا الرقم سوري، هل أنت في سورية؟
- وصلت صباحاً، منذ يومين حتى تمكنتُ من الاتصال بأبيك، وقد أخبرني أنك في تركيا ولست في السجن، لماذا يا أخي؟ لماذا فعلت بي هذا؟ لماذا لم تخبرني أنك خرجت؟ ألا يكفيني حزني بأختيّ، منذُ سمعتُ باعتقالك لم أعرف طعم النوم والهناء وأنا أفكر بك، تحمّلت الكثير من كلمات الشماتة التي تطرق أذني كلّ يوم من زوجي وهو يقول" هذا النظام الذي تفتخرون به، قد قتل أختيكِ وسجن أخيكِ".
- من قال لكِ أني قد سُجنت، ومن يعرف غيركِ؟
- ألا تعلم أنّ خبر اعتقالك قد انتشر في كل مكان، جدتك حتى اللحظة لا تعلم عنك شيء، خالتك لم تقل لها إنك في السجن، وخالتك لا تعلم أنك في اسطنبول.
- هل قال لكِ أبي شيئاً؟
- أخبرني بكلّ شيء، ويجب عليك أن تقوم بكل ما يُطلب منك، حتى وإن قتلت واحداً أو عشرة، لن يبرد قلبي بموت أختيك.
- أمجنونة أنت؟ لابدّ أنك فقدت صوابك! ألهذا أرسلت لي الصورة في بداية حديثك.
- وهل ستترك دم ملاك وفاطمة، ودمُ مريم الفتاة التي أحبتك وكنت لها خطيباً، هل ستترك دمهم هكذا؟
- لو كنتُ أعلمُ أنك ستتحدثين بهذا الأمر لما فتحت هاتفي، سأعتبر نفسي لم أقرأ أيّ كلمة مما كتبتي، وعودي كما كنتِ الأم الحنون.

- وأنت متى تعودُ صاحبَ القلب الجسور الذي لا يخلف بمبادئه؟ على كلّ حال، هل تعرف يزن؟
- من يزن؟
- صديق خطيبتك، أو من كانت خطيبتك، كما وصلني.
- سمعت بهِ منها ولكن لا أعرفهُ، لماذا؟
- هل تذكر أمينة ابنة أبو حسام؟
- بالطبع أذكرها، ما بها وما علاقتها بيزن؟
- إنها في أورفا الآن، وقد ذهبت لتأخذ ابنة أخيها حسام، وأريدك أن تساعدها في أمور السفر حين تصل إلى اسطنبول.
- لم أفهم ما علاقة يزن بالأمر، وممّن ستأخذ ابنة حسام، ولماذا لا يذهب بنفسه لأخذ ابنتهِ، ألا تعلمين أنّه على قيد الحياة؟
- أعلم... أعلم، ولكن لديه ظروفاً لا أعلمها، أتذكر سارة التي كانت ستسافر معك ومع خالتك حين كنتم تودون الذهاب لتركيا أوّلُ مرّة؟
- نعم، أذكرها.
- لقد ماتت أثناء عبورها الحدود وبقيت ابنة حسام مع يزن، كانت سارة على علاقة مع يزن، وقد هربت إليه وأخذت ابنتها وتركت خلفها زوجها ولم تسأل عنهُ، ولكن الله عاقبها قبل وصولها.
- نعم سمعت بأمرٍ كهذا، ولكن أعتقد أنها سافرت بعد إشاعة موت حسام، لم يخطر ببالي للحظة أن تكون سارة هي أم قمر التي مع يزن، على أيّةِ حال سأساعد أمينة حين وصولها، لا تقلقي، وسأبحثُ عن رقم هاتف حسام للاتصال بهِ وفهمَ الأمر منه.

- لا، أنت لا تتصل بحسام أو غيره حتى تتصل بكَ أمينة، ولا أدري إن كانت ستحتاجكَ أم لا. لا تنسَ ثأر أختيك وخطيبتك.
- مع السلامة.

مرّةً سألني صديق لي عن سبب إطالة الحرب في سوريا "برأيي"، لم أفكر بالجواب حينها، قلتُ له بكل تصميم أنّ السبب الوحيد للحرب وإطالتها هو الجماعات المسلحة التي تشكلها أمريكا وإسرائيل والأموال التي يرسلونها لتسليح هذه الجماعات، وإنّ إطالتها بسبب صمود الجيش السوري في وجه هذا الخراب، ضحك وقتها ولم يجبني.

كنت أعرف أنّ جوابي كان عبارة عن قالب يقال في جميع المناسبات، وبأنّ الحل الوحيد لإسكات المعارضين هو تمجيد الجيش السوري.

أيقنت الآن أنّ الحرب انتهت في عامها الأول دون منتصر، فالجميع هنا خاسر، وأما بقية الأعوام الست الماضية، ما هي إلا تصفية حسابات، وأخذ الثارات، ولو توقف أحدُ الطرفين عن أخذ ثأره لانتهت هذه الحرب فوراً.

أعلم أنّ جميع من مات في هذه الحرب، مات مظلوماً لا ذنب له سوى أنّهُ سوري، لا ذنب للأبرياء بتصفية الحسابات، هذا يُقتل لأنّ أخيه قد قتل عسكرياً، أو ابن عمه قد قتل ثائراً!، أيُّ زمانٍ بائس نعيش فيه!.

تراكم الاتهامات والمضي فيها دون فهم وبحث، يجعل من عقولنا أدمغةً مغسولة، فيها نصّاً أو اثنين، ينطقهُ المناقش أثناء جلساته حسب موقعه من الجلسة.

تهاني تريد مني قتل واحداً أو عشرةً ثأراً لملاك وفاطمة، ثم يقتلني أحدِّهم ليأخذ بثأره، ثم يقتله أبي ثم يقتلون أبي... الآن فقط أدركت لماذا لم تنتهِ الحرب.

صحوتُ صباحاً على صوت هاتفي، كان سامر من يتصل، طلب مني أن نلتقي عند الظهيرة في مقهى أعرفه جيداً بالقرب من البحر، رحّبت بالفكرة كثيراً، لم أسأله عن اللقاء، أو حتى سببه، كان تفكيري بهذا المقهى الذي سأدخله أخيراً، كنت أراه من بعيد، أتجرأ أحياناً أن أمرَّ من جانبه، كان فارهاً جداً، جميع رواده كانوا من الطبقة الغنية، أو الأجانب المشهورين.

قررت أن أكون مناسباً لدعوة كهذه، ارتديت أجمل الثياب عندي، وخرجت من المنزل باكراً وقد اكتشفت ذلك حين وصلت المكان قبل ساعة من الموعد.

انتظرت قليلاً في الحديقة المجاورة حتى اتصل بي سامر ليخبرني بوصوله.

دخلت المقهى، كان فاتناً من الداخل، أجمل بمراتٍ مما يبدو عليه من الخارج، المرمر الذي مدَّ على أرضياته، كنت أسمع به وكانت تلك أوّل مرّةٍ أراه، إحدى جدرانه كان عبارة عن حوض أسماكٍ كبير، يحتوي بداخله على مئات الأسماك الملونة التي لم أرَ مثلها سابقاً، العاج الأفريقي تشعر به يتحدث وأنت تنظر إلى الطاولات التي صنعت منه، أما الثريا التي تتوسط المقهى، أعتقد أنها كافية لتنير عتمة دمشق.

أوقفني أحدهم عند الباب، كان لطيفاً لدرجة الذهول، كان يتحدث معي بكل لباقة واحترام، سألني عن الحجز بلغة إنكليزية طليقة، وحين رآني شارداً بالجواب، أعاد سؤاله باللغة التركية، ابتسمت له وأجبته بأني مدعوٌ ولا أعرف الطاولة.

سألني عن اسمي فأجبتهُ، أشار لإحدى الفتيات بأن تصحبني للطاولة.

كان سامر يجلس برفقة فتاة تمتلك شطر الجمال، كأنّها لوحة زيتية، عرَّفني

عليها بأنها مديرة الشركة، وقد بدأ يتحدث معي بالأمر الذي طلب رؤيتي من أجله.

قال لي وقتها بأنّهُ يريد منفعتي لأنّه رأى بي الرجل الذي يستحق أن يُخدم.

رأى فيّ النشاط والطاقة، وعرض عليّ شراء أسهم في الشركة، ليزداد نصيبي وأرباحي، وتبقى أسهمي موجودة، أبيعها متى أشاء.

حين هممت بالحديث قال لي أن أرى كلّ شيء بعيني قبل أن أتحدث، دخل إلى حسابات الشركة، رأيت المساهمين والمالكين وحساباتهم ونصيب كلّ شخص منهم، أدخلني إلى حسابه الخاص، كان لسامر أسهماً في الشركة بقيمة تتعدى العشرين ألف دولار، وكان ربحه الشهري يصل لثلاثة آلاف دولار.

أكد لي أنّ الشركة تملك رقماً تجارياً وبأنها ربحية مئة بالمئة وليس للخسارة طريق إليها.

ثم سكت قليلاً، حينها بدأت مديرة الشركة بالحديث، كانت عربيتها ثقيلة، وتخلط بكلامها بين الفصحى والعامية والانكليزية في بعض الأحيان، أعادت تقريباً شرح سامر عن الشركة، ولكنها كانت أقل اندفاعية من سامر، وفي آخر كلامها قالت بأنّ سامر من رشحني لهذه الصفقة، وهم يرحبون بكلِّ جديد يدخل بعائلتهم.

عمّ الصمت قليلاً، لم أكن أملك أيّ جواب، لكن ما رأيت من أوراق وحسابات، جعلوني أفكر بالأمر ملياً.

قلت لسامر بأني لا أملك الكثير من المال كي أخطو هذه الخطوة، جميع ما أملك لا يتعدى الأربعة آلاف دولار.

ضحك سامر وقتها وقال بأنهُ دخل الشركة بخمسمئة دولار فقط، وخلال أقل من عام وصلت أسهمه للعشرين ألفاً.

وافقت على الفور، كانت تلك فرصتي للنهوض من مستنقع العوز الذي يحيط بأيّ سوري في تركيا.

قلت له بأني سأشتري بثلاثة آلاف دولار، ولكن ما هو الضمان.

أخرج وقتها دفتراً للشيكات، كتب ثلاثة شيكات، كل واحد بقيمة ألف دولار، وكتب أيضاً سنداً بالمبلغ نفسه، وطلب أن أتركها معي لحين حاجتها، ثمّ أخرج سنداً آخر وكتبه علي وطلب مني أن أمضي عليه، وحين تسليمه المبلغ سيعطيني هذا السند.

ثم بدأ بكتابة العقد الذي بيننا وإمضائه وختمه من قِبل المديرة، وقام بفتح حاسبه الخاص وهو ينظر إليّ ويبتسم.

دقائق قليلة، ثمّ طلب مني فتح الموقع الخاص به، رأيت جانب اسمي رمزاً يشير إلى أني أصبحت من ملّاك الشركة، ثم طلب مني أن أرى المبلغ الذي في خزنتي الخاصة. كان المبلغ قد وصل إلى مئة ودولارين، وكنت أستطيع تحويلها لحسابي البنكي في أيّ وقت أشاء.

ذهبتُ بعد ذلك، بعد أن اتفقت مع سامر على موعد بعد ساعات لتسليمه المبلغ، كان كلّ شيء مطمئن بالنسبة لي، العقد في جيبي والشيكات والسند، ولم يكن هنالك أيّ شيء يدعو للريبة.

أُكملت طريقي نحو المنزل لإحضار النقود وإعطائها لسامر، أثناء طريقي جاءني اتصال من "رقم مخفي" كنت أعرف أنّه الوطن الذي يُعطيني الأمر، لم أجب عليه، لم أسمح له بتعكير صفوتي وسعادتي.

أثناء طريقي خطر ببالي أن أتأكد من صدقهم لآخر مرّة، فتحت هاتفي وحوّلت جميع المبلغ الذي في خزنتي إلى حسابي الخاص، كان قد بلغ مئة وخمسة دولارات، لحظات قليلة ثم جاءتني رسالة من البنك بأنّ المبلغ قد تم إيداعه في حسابي ويمكنني سحبه متى أشاء.

كنت أعمل أسبوعاً كاملاً لأحصل على مئة دولار، هذه المرّة خلال أقل من يومين قد حصلت على مئة دولار وأصبحت شريكاً في الشركة التي أعمل بها.

وصلت للمنزل، أخذت النقود واتصلت بسامر للقائه وإعطائه المبلغ، بعد ساعة تقريباً التقيت به وأعطيته المبلغ، أخذت منه السند الذي كتبه عليّ، نبّهني وقتها ألا أقول لأحدٍ من أعضاء الفريق أني اشتريت أسهماً في الشركة كي لا يبدؤون بإحراجه مع المديرة. ثم مضى كلٌّ منّا في طريقه.

فكّرت بالذهاب لبعض المحال التي طلبت الإعلان عنها، لكنّي فضلت النوم عن ذلك.

جلست في غرفتي أتأمل الهاتف الذي أعطوني إياه في مهمتي الاستخباراتية، فكّرت كثيراً بفتحهِ وقراءة الأوامر، ثم فكّرت بكسره ونسيان أمرهم، لكن هيهات... وهل ينسى الوطن، حتى وأن تناسيناه هو لن ينسانا.

لا أدري متى غفت عيني، استيقظت ليلاً، كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وكان الجوع قد نال مني.

فتحت الهاتف، كانت بعض الرسائل في مجموعة العمل، من بعض الأشخاص يتحدثون فيها عن بعض المحال التي تطلب إعلانات، وكانت بعضها من تهاني تذكّرني بثأري الذي لم آخذه بعد، أبي كان قد أرسل لي يطمئن بها عن صحتي ويطلب مني عدم الاكتراث لِما تقوله تهاني، وفرح لا أعلم عنها شيء منذ الأمس، الجميع يتخبط هنا، لا يعرف أحدهم ماذا يريد.

لكن ما شدّني أنّ وائل كان متصلاً قبل ساعتين، فكّرت بالاتصال بهِ لكنّ الوقت كان غير مناسب.

فتحت الموقع الخاص بالشركة، أدخلت كلمة السر سبع مرات، كان في كلّ مرّة يعطيني أنها خاطئة، أرسلت لسامر رسالة للاستفسار عن ذلك، لم يكن متصلاً بالأنترنت، أُكملت سهرتي مع عتمتي وسجائري، وأجّلتُ كل شيء للصباح.

صحوت على صوت هاتفي، لا أدري متى غفت عيني، لكني كنت أشعر بأنّ جسدي محطم ومفكك.

كان وائل الذي يتصل، أخبرني أنّ محاولته فشلت، وبأنه سيذهب للمركز الألماني، واتفقنا على اللقاء بعد ذلك.
دخلت إلى الموقع، كانت كلمة السر ماتزال خاطئة، اتصلت بسامر، كان هاتفه مغلقاً.
دخلت إلى الواتس أب لاستفسر من أحدهم، كانت هناك أكثر من ألف رسالة جميعهم يندبون بها حظّهم أنهم ذهبوا ضحية نصب إلكتروني، كانت أغلب الرسائل تحمل شتائماً ونصائح بالذهاب والاشتكاء، وكنت في ذهولٍ لا يشبه إلا ذهولي حين دخلت المقهى.
اتصلت بسامر كثيراً كان هاتفه مغلقاً، ذهبت إلى المخفر القريب لأستشير أحدّهم، فطردني بحجة أنّي مغفل وقد تم النصب عليّ وأنّ الأوراق التي معي لا تحمل ختماً قانونياً عائداً لأي شركة.
تحدثت مع الكثير من الأشخاص في الشركة، أغلبهم كان يملك أسهماً مثلي، الجميع كان مغفّلاً مثلي.
رنّ الهاتف أثناء ذلك، أجبت بسرعة دون أن أنتبه من المتصل، كان الوطن، كان يصرخ في وجهي، ويطلب مني تقريراً، نهرتهُ وشتمتهُ وقلت له أني لن أفعل ما يُطلب مني، كنت أصرخ في وجهه بكلّ ما أوتيت من قوة، كنت في أقوى لحظاتي، شتمت الوطن وقائد الوطن والمخبرين والمرشحين والعناصر والجنود والشعب ونفسي، وأغلقت الهاتف في وجه الوطن.

وائل

نحاول دوماً أن نمارس دور الضحية، وأن نتغلب على آلامنا فنتألمُ أكثر، كمن يبرر انتحاره هرباً من المشنقة، لا نقوى على مواجهة المصاعب فنهرب، وبعدها نقول بأنّ الدنيا ظلمتنا.

يسيطر علينا الخوف من المواجهة حين نكون مذنبين، وعندما نكون على حق نلتزم السكوت لأنّ كلامنا سيتحول لنسل سيف تُقصُّ به رقابنا، لذا ترانا نعيش بخوفٍ من كلّ شيء، وندفنُ رؤوسنا كالنعّام بوحل الحياة.

ننسى أن الصبر يقتل الشدائد، نريد كلّ شيء أن يكون بلمح البصر، وننسى أنّ القدر بيد الله، ومنهُ كلّ الخير.

ضُرِبتُ كثيراً، رأيت الموت بجفاف حلقي أياماً، والجوع كان يقتل كلُّ شيء فيني.

أثناء محاولاتنا قطع غابات اليونان، الموت كان يسير معنا دوماً، ينتقي من يريد الحياة، ويتركنا نتخبّط بأوجاعنا.

تفصلني الآن أياماً قليلة عن تقديم أوراقي للسفارة الألمانية، بعد أن حققت جميع الشروط التي كانوا يطلبونها من أصحاب الطلبات الدراسية.

حتى أنّ الامتحان الذي سأقدمه الآن، ليس مطلوباً ضمن الأوراق، لكني فضّلت أن أرفقه مع أوراقي ليكون ملفّي قوياً.

اتصلت بياسين مرتين، لم يجب في الأولى، وصرخ في وجهي في الثانية، لم استطع حتى أن أسأله ما به، حتى أنّي لم أفهم ماذا يريد.

اتصلت بعدها بقليل، فتح الهاتف وقال إنّهُ بانتظاري في المنزل. اتصلتُ ببسام الذي معي بالسكن لأعرف عنوانهِ، فأنا لم أزره سابقاً في البيت، فبسام كان يعمل معه سابقاً، وكان أحياناً يذهب إليه.

ذلك اليوم، كنتُ أوّل مرّةٍ أدخل بها بيت ياسين، وأوّل مرّةٍ أرى بها ياسين بهذه الحالة. كانت ستائر البيت مسدله، والدخان يملأ الغرفة، كان هناك حطام كأس ماء وكان كوب القهوة قد أفرغ محتواه على الطاولة ونجا من تحطّمٍ مؤكد.

الأرض مملوءةً بأعقاب السجائر والملابس المتناثرة هنا وهناك، ورأيت أيضاً هاتفاً محطّماً في زاوية الغرفة.

قلت في نفسي، والده قد مات! أو أنّ خبراً ما يشبهُ وفاة الوالد فعل به هذا، ولو أنّ الفجائع كلها لو اجتمعت لمَا شابهت موت أب.

اقتربت منهُ، كنت محتاراً كيف أفتتح حديثي معهُ، أو كيف أطلب منهُ أن يهدأ وأنا لا أعرف ما به حتى الآن.

جربت أن أفتح الستائر والنوافذ، لعلّ شيئاً من النسمات الباردة تطفئ من ناره مجهولة المصدر.

اقتربت منه أكثر، رأيت على الطاولة ورقتين، كانتا تشبهان العقود إلى حد ما، ورأيت مئة دولار وبعض النقود الأخرى. استبعدت فكرة موت أبيه، أو أيّ موت، خمنت أنّ الأمر لهُ علاقة بالعمل أو النقود، رتّبت أفكاري لثوانٍ قليلة ثم جلستُ بجانبه وحملت إحدى الأوراق.

نظر إلي وقال بصوت خافت: لقد سرقوا أموالي يا وائل.

لم تكن لغتي التركية تمكنني من فهم مضمون الورقة، لكني فهمت من مجملها أنّهُ عقد شراء أسهمٍ في شركة.

أخذت هاتفي وكتبت اسم الشركة في محرك البحث، ظهرت عدة مقالات قديمة عنها، بينها مقالان عن عمليات نصب تمت في هذه الشركة، حاولت الدخول إلى موقع الشركة، لكن الموقع كان معطلاً.

قلت لهُ:

- لا عليك، كلّ شيء على ما يرام، طالما صحتك بخير، المال يعوّض.

لم أكن مقتنعاً بما أقول، ولكن هذه الكلمات عادة ما تُقال في مناسبة كهذه.

نظر إليّ بيأس وقال:

- لقد خسرت جميع ما أملك، كنتُ مغفّلاً ولم انتبه أو أبحث أكثر عن شركاتٍ كهذه، جميع الفريق الذي معي وقع في نفس الشباك، يبدو أنّ الوطن ليس راضياً عني.

- الوطن!! وما علاقة الوطن، هل تقصد سوريا أو شيئاً آخر؟
- وائل أنا بحاجة لمساعدتك، هل تساعدني؟
- طبعاً، قل ما لديك وسأساعدك بأيّ شيء أستطيع فعله.

بدأ بالكلام، لم أقاطعه لحظة، كنت أنصت إليه بكلّ حواسي، حدثني عما حدث معه منذُ وصوله دمشق وحتى اللحظة.

تقصّدت الصمت قليلاً، لم يكن عندي ما أقوله له، كان محقاً بخوفه على أبيهِ، ومحقاً بخوفه على نفسهِ، النظام الذي قتل أكثر من مليون شخص، لن يصعب عليه قتل ياسين أو والده، قلت لهُ أن يتصل بأبيهِ ويطلب منهُ الهروب إلى بيروت مثلاً حتى يتبين الأمر، كان جوابه مقنعاً، الآباء لا يهربون.

كان يريد قول شيء ما، وكنت أنتظر، كان ينطق حرفاً ثم يتراجع، كأنّهُ يفكّر بشيء ولكنه لم يكتمل بعد، قلت له أن يشاركني ما يفكر بهِ، لكنّهُ طلب تأجيل الأمور.

أثناء ذلك اتصلت به فرح، تيقنت من خلال حديثهِ إنهُ لا يعرف شيئاً عن الأمر الذي يتحدثان فيه، كان يقسم على ذلك، وأنا أعرف ياسين، لا يكذب. رأيته يتفاجأ بكلامها، كان يريد الحديث لكنّ صوت فرحٍ كان مسموعاً وهي تصرخ، أعاد قسمه مراراً لها أنّه لا يعرف شيئاً عن الأمر، لم أفهم شيئاً من كلامهما، حتى أخيراً ترك الهاتف من يده بعدما أغلقت فرح الاتصال.

قلت له ما الأمر؟ فقال:

- هذه الفتاة مجنونة، أقسم أنّ عقلها فارغ، كيف يخطر لها أني متعاونٌ مع حسام لأضرّ بها.
- من حسام؟
- حسام ابن جيراننا في دمشق، ولكن كيف تعرفه فرح!!
- ياسين أنا لا أفهم ما تقصده! هل فرح بخطرٍ الآن.

كان يحاول الاتصال بفرح، لكنّها لم تكن تجيبُ على اتصالاته. سألتهُ ثانية عن حسام وفرح، قال:

- لا تُشغل دماغك وائل، لا شيء، هنالك لبسٌ ما قد وضعني بدائرة شكّ فرح، سأتصل بها لفهم الأمر لاحقاً.

حاولت كثيراً أن أخرج ياسين مما هو فيهِ، لكنّي لم استطع، كان عقلي أيضاً مشوش، جميع قدراتي التفكيرية كنت أوظفها في الامتحان الذي سأقدمه بعد أيام، والموعد الذي سأذهب إليه غداً إلى السفارة الألمانية لتقديم طلب الفيزة.

حين عدتُ للمنزل، تفاجأت أن زيداً يريد السفر إلى مدينة أنطاكيا، إلى أقاربه هناك والعيش معهم ونسيان فكرة السفر والنزوح ثانية.

أمضيت ليلي أفكر بالأيام التي ستأتي، أتخيل نفسي وأنا أرى حبّ حياتي مجدداً، وأنا أعرض عليها قلبي وأخبرها بما فيه.

سأقول لها حين ألقاها، أنّ الضياع الذي كنتُ فيهِ في غابات اليونان، يشبه الضياع الذي أنا فيه دون الافصاح عن حبّي، وأنّ صورتها كما أذكرها منذ خمس سنين، ما زالت محفورة في مخيلتي وكانت ترافقني في جميع تحركاتي.

لا أعرف كيف استطعت تحتمل ألم اللجوء وألم الحب، ألم الوحدة والاشتياق، وألم الفراق المتواصل، لا أعرف كيف استطعت كتم الحب في قلبي.

في اليوم الثاني، كنت أراقب عيون الموظف وهو يقلّب أوراقي التي أعطيتهُ إياها، كنت خائفاً من أي نقصٍ قد يؤدي إلى عودتي لغابات اليونان، نظر إليّ بابتسامة بعد أن أخرج وصلاً وكتب عليه وختمه، ثم قال لي: انتظر ردّنا في غضون خمسة عشرة يوماً.

كان التفاؤل يطرق باب قلبي مجدداً، عاهدت نفسي أن أترك قلبي مفتوحاً لجميع الطارقين، وأن أرضى بما سيكتبه الله لي، الله وحدهُ الذي يريد لنا الخير، ولا يكتب لنا سوى الخير.

أمضيت بقية يومي بين الكتب التي سأمتحن بها، يومان لم أفارق الكتاب أبداً، حتى أخيراً أنهيت الامتحان وأنا راضٍ عن نفسي، ولقد أخبروني أنّ النتائج ستصدر بعد بداية العام بسبب عطلة أعياد الميلاد.

مضت أياماً قليلة، لم أكن أخرج من المنزل، بقيت في المنزل أنا وبسام بعد سفر زيد، كانت حالة ياسين قد تحسنت قليلاً، بعد أن وجد لنفسه عملاً يعوّضه الخسارة التي تعرض لها.

استطعت أن آخذ منه رقم فرح الجديد، اتصلت بها وشرحت لها جميع ما حصل مع ياسين، بعد أن عجز ياسين عن الحديث معها، كانت ترفض جميع مكالماته، أكدت لها بأنّهُ لا يعرف شيئاً؛ أعرف ياسين جيداً، مهما طحنته الدنيا محالٌ أن يكذب أو يخون.

في صباحٍ بارد طُرقَ الباب باكراً، كنتُ وحيداً في المنزل بعد ذهاب بسام لعمله، فتحت الباب، كان موظف البريد يقلب بين الأوراق، سألني عن اسمي وطلب هويتي، ثم أخرج ظرفاً ورقياً مختوماً وأعطاني إياه، فتحت الظرف، كان جواز سفري ومعهُ ورقة مكتوبة باللغة الألمانية، فتح جواز السفر بالنسبة لي، كان بمثابة فتح صفحة جديدة في حياتي، إما أن تكون الفيزة قد طُبعت عليه، أو أني سأمضي حياتي بين تركيا وغابات اليونان، فتحت جواز السفر بتأنٍ، كنتُ كمن يفكك لغماً.

أحسست أن تركيا كلها لن تتسع لضحكاتي وصراخي، وأنّ شوارعها ستضيق برقصاتي، الفيزة مطبوعة على جواز السفر، ويجب علي السفر في غضون عشرة أيام، ما أجملكِ يا دنيا حين تبتسمين!

وجدتُ حجزاً مناسباً يوم الجمعة الأخير في هذا العام، قررت في الأيام الباقية لدي شراء بعض الحاجات والألبسة، بسبب ما سمعته عن الغلاء في ألمانيا، وقد تركت زيارة ياسين ليوم الخميس مساءً.

كانت صحتهُ قد ساءت أكثر، كانت ندبات اليأس قد حفرت وجههُ، كان جثةٌ تنتظر من يدفنها، مشتت الفكر، يضحك مع نفسه وهو يتكلم، كان يتكلم بصورة غير منتظمة، سألتهُ عن عمله، قال لي أنّهُ ترك العمل، كان يخفي قنابلاً وراء كلّ حرفٍ ينطقهُ، كان حذراً حتى في نظراتهِ، وكان البرود متراكماً في تقاسيم وجههِ، كان متناقضاً كأنّهُ يفكر بعقلين.

يزن

كانت أمي تحب النباتات كثيراً، تقضي أغلب وقتها في حديقة المنزل المكتظة بأقحافٍ جاهزة، أو المصنوعة من علب السمن والزيت، كانت تهتم بها - أحياناً - أكثر من اهتمامها بي.

كان يوم الميلاد بالنسبة لعائلتنا يوماً كباقي الأيام، لا يفرقه سوى الوردة الحمراء التي يحملها أبي مساءً لأمي، حتى أنّي لا أذكر يوماً أنهم احتفلوا بعيد ميلادي، حتى أنا، لا أذكر يوم ميلادي إلا حين أشاهد التاريخ في هويتي.

أذكر مرّةً أني كسرتُ هذا التقليد، وأحضرت لأمي هدية تحبها، أحضرت لها يوهما ريحانة كبيرة، كانت تعشق الريحان، وتتفاءل جداً برائحته التي تملأ المنزل صباحاً. رأيت ضحكتها، شعرت بقيمة ما جلبتُ حين رأيت أمي تضع الريحانة فوق الطاولة المجاورة للأريكة في الصالة تحت النافذة، رغم أنّ هذه الطاولة مخصصة لصورة أمها، وكانت تمنعنا حتى من وضع كأس الشاي عليها.

كان أبي يقول لها جملة معتادة في يوم ميلادها، حين يقدم لها الوردة، لم يغير عادتهُ طيلة حياته، " حتّى أنتِ تشبهين الفرات، جميلةٌ كنسماتهِ، رقيقةٌ كأنغامهِ، حنونةٌ كضفتيه وأنتِ تُزيحين تعبي بابتسامتكِ، حتى في حزنكِ تشبهين الفرات".

كنت شارداً منذ الصباح، أفكر بهدية عيد الميلاد التي سأقدمها لقمر غداً، كنت في الأعوام السابقة، أحضر لها لعباً تقليدية، مع الحلوى والكيك المحشو بالفراولة كما تحب. كان ياسر وحنين وابنهم مجد، ينضمون إلينا دائماً عبر الاتصال المرئي، وفي العام الفائت انضمت إلينا فرح.

لكن هذا العام كنت أريد لهديتي أن تكون مميزة، لا أعرف الشعور الذي انتابني، ولكني كنت حزيناً للغاية.

قررت الاتصال بفرح لعلها تهدأ من روعي قليلاً، اتصلت بها ثلاث مرات، لم تجبني بإحداهن، وقد فكّرت أن أدعوها للحضور ولن تعتذر عن المجيء بالتأكيد.

اتصلت بي حنين قبل خروجي من العمل بقليل، سألتني عن قمر، وعن عيد ميلادها إن كنت سأفعل كما كلّ عام، أحسست أنّ اتصالها وراءه شيء، لكنها أكدت لي أنّ كلّ شيء على ما يرام.

بعدها بساعة تقريباً، وحين كنت عائداً للمنزل برفقة قمر، اتصل بي ياسر ليسألني عن ذات الأمر، استغربت اتصاله وقلت له أنّ حنين اتصلت منذ قليل وقلت لها أني سأحتفل كعادتي بيوم ميلاد قمر، تنحنح وقتها وقال بأنّهُ لا يعلم بأن حنين قد اتصلت، وأنهم صباحاً كانوا يتحدثون في الأمر لذلك اتصل ليتأكد.

بعدها بقليل اتصلت بي فرح، كانت مرتبكة بعض الشيء، كانت تسألني عن قمر وصحتها، ثم قالت وكأنها تذكرت للتو:

- آه صحيح، هل سنحتفل غداً بيوم ميلاد قمر، لقد أصبحت صبية في الثامنة من عمرها.

تمنيت لو أشتمها، قلت لها مستفسراً:

- ماذا أصابكم اليوم؟ أنت وياسر وحنين، تسألون نفس السؤال، ومن قال لكِ إنها أتمت الثامنة؟ هي اليوم قد أتمت سبع سنوات فقط. حتى أنك لم تحضري معنا سوى حفلة واحدة عبر اتصال فيديو حين أخبرتك أنا، فكيف تذكرين التاريخ!!؟

شعرتُ بارتباكها، كانت تختلج، تتكلم بتردد وشتات، لكنها استطاعت أن تقنعني بأنّها رأت بعض الصور وتذكرت التاريخ، وقد أكدت حضورها وطلبت مني العنوان المفصل لبيتي الجديد.

أكملت سهرتي يومها أقلّب أفكاري باحثاً عن هدية مناسبة ليوم كهذا، كنت أريد أن تكون هديتي مميزة، حتى تتأكد قمر أنّي لن أخذلها ولن أتركها تذهب لعمتها، جاهدت نفسي أن أحصر خياراتي، لكنّي لم أجد شيئاً يناسب قسوة هذا الشعور الذي انتابني في هذا اليوم.

كانت بين الحين والحين تنظر إلي، شعرت أنّها تريد التحدث بأمر ما، سألتها مرتين، لم تجب، كانت تكتفي بهزّ رأسها بالنفي، ثم أخيراً أدارت وجهها نحوي وقالت: هل تفكر بطريقة ما، لإرسالي لعمتي؟؟

أكّدت لها أنها مجرد تهيّأت تخطر ببالها، ولا شيء من هذا سيحصل، وبأني لن أسمح لأحدٍ أن يأخذها مني، مهما كلّف الأمر. أعجبتني ابتسامة الاطمئنان التي ارتسمت على وجهها، ثم شرحت لها بما أفكر. فرحت كثيراً حين تذكرت أن غدا يوم ميلادها، وبدأت هي الأخرى تتخير بين الهدايا المحتملة، وقد هددتني هذه المرّة بأنها ستحزنُ كثيراً إن قضيت الاحتفال وأنا منشغلٌ بالتحدث مع ياسر.

استيقظت باكراً، كنت قد أخبرت صاحب العمل أنّي لن آتي إلى العمل اليوم، أوصلت قمر لمدرستها، ثم بدأت بإحضار الأدوات اللازمة لعيد الميلاد.

استغرقت حتى الظهيرة وأنا أزين البيت بالبوالين والأشرطة الملونة، ثم عدت بعد ذلك للمتجر لانتقاء هدية مميزة، كانت الخيارات كثيرة، لكنها تقليدية.

كنت منشغلاً حين سمعت صوت امرأةٍ عربية تنادي على ابنتها، كان اسمها "فرات"، كانت الطفلة جميلة جداً كالفرات، كانت تتراقص بين الألعاب كفراشةٍ ذهبية، تذكّرت حينها الجملة التي لم يغيرها أبي طيلة حياته وهو يقدم الورد لأمي بيوم ميلادها.

تذكرت هديتي الوحيدة لأمي، تركت الألعاب التي جمعتها لأنتقي إحداها، وخرجت فوراً من متجر الألعاب واتجهت للمشتل القريب من الحي.

انتقيت أكبر ريحانة رأيتها عنده، غلّف لحفها لي بعد أن أخبرته بأني سأقدمها هدية، ثم عدّت للمنزل بانتظار وقت انتهاء الدوام المدرسي لإحضارها.

قبل دخولنا للبيت بعد أن أحضرتها من المدرسة، طلبت مني أن تدعو صديقتيها لحفلة عيد الميلاد، لم يكن لديّ الوقت لأعارض أو أوافق، بعد أن أخبرتني أنها دعتهم قبل أن تغادر المدرسة.

أنهيت جميع أعمال الزينة، كان الوقت كافياً لأجلس قليلاً وأتصفح الأخبار، أو أكمل أعمالي المتراكمة في المنظمة التي أهملتها منذ مدّة.

كانت الأخبار متشابهة بعض الشيء، مع اختلاف الأسماء والأمكنة، هنا قتيل أو عشرة، هنا نقصٌ بالمواد الأساسية والمحرقات، مما يؤدي لتشكيل الطوابير، هنا شحٌّ الماء قد يقضي على مدينة كاملة، هنا انسحاب لقوات الجيش الحر بعد الخسائر المتتالية بسبب كثرة القادة، وهنالك عشرات الشهداء

الذين يموتون يومياً جراء القصف أو التعذيب في المعتقلات، والمئات من النازحين الجدد، وآلاف الفقراء الذين يزداد فقرهم يوماً بعد يوم.

ولكن ثمّت خبرٌ لفت انتباهي لم أسمع مثلهُ منذ مدّة، (" الجيش الباسل يفشل عملية انتحارية كانت ستودي بحياة العشرات، وقد تمّ القبض على الإرهابي الذي كان يقود

سيارة مفخخة بالقرب من الجامع الملاصق لأفران ابن العميد في ركن الدين، محاولاً بذلك زعزعة الأمن والأمان في العاصمة دمشق").

حين قرأت اسمه، شعرت أنّي أعرفهُ، حاولت جاهداً أن أتذكر لكني لم أفلح بذلك، حينها قطعت أفكاري طرقاتٌ خفيفة على باب المنزل، فتحت الباب، كانت صديقة قمر في المدرسة قد أتت مع والدتها ومعهم أختها، وخلفهم كانت تقف صديقتها الثانية مع والديها، معلنين بدأ حفلة الميلاد.

رحبت بهم ودخلنا جميعاً إلى الصالة، اتصلت بفرح لأرى متى ستصل، قالت بأنها ستصل خلال خمس دقائق أو أقل وبأن معها ضيفة، لم أهتم كثيراً رأيت نفسي للحظة وحيداً في منزلي المكتظ بالضيوف والذين لا يعرفونني ولا أعرفهم، كانوا يتحدثون مع قمر ويبادلونها التحية أكثر مني.

اتصلتُ بياسر لأخبره ببدء الحفل، شعرت أنّ حنين حين تكلمت معي وكأنها تخفي سراً، كانت تحاول الكلام أو إخباري شيئاً ما، لكنها مترددة قليلاً، وحين رأت الضيوف، أحسستُ أنها فضلت الصمت، فلم أضغط عليها بأسئلتي أكثر.

وضعت الحاسب في مكانٍ يسمح لحنين وياسر مشاهدة جميع زوايا الحفل، وجلست بانتظار فرح وضيفتها.

لم انتظر طويلاً دقائق وطُرق الباب، فتحتُ الباب ورحبت بفرح وضيفتها ودخلنا للصالة، رغم أنّي لم انتبه كثيراً لوجهِ صديقتها إلا أنّي شعرت برجفة احتلت صدري حين رأيت قمر تنظر إليها بدهشة، نظرت لفرح وصديقتها، كانت عيوني تتنقل بين قمر وصديقة فرح، ويعجز لساني عن النطق محاولاً تكذيب عقلي الذي يصرخ باسمها وشكلها الذي ارتسم بمخيلتي.

نظرت إليّ فرح وقالت: هذا يزن، صديقي، ثم صمتت قليلاً، أحسست أنها تريد البكاء لكنها تقاوم، أشارت ضيفتها لنفسها وهي تقول: أمينة السّراج، عمة قمر.

فرح

كلّ شيء حولي كان غير منطقي، حضورها المفاجئ، طريقتها بالحديث، حديثها معي بكلّ أريحية رغم أننا لا نعرف بعضنا، كذبها الذي كان واضحاً مع كلّ حرفٍ تنطقه. لا أدري كيف يستطيع المرء الاستمرار في كذبه، وكلّ من حوله يعلم أنّهُ كاذب. ومع كلّ ذلك لم أقوى على مواجهتها أو الامتناع عن سماعها.

ذهبت معها إلى المقهى، كان لها سحراً مخيفاً، كانت كالساحرات اللاتي يظهرن في أفلام الكرتون سابقاً، أو كالأشباح التي يرتعب منها حتى الكبار في أفلام الرعب رغم أنهم يعلمون أنه مجرد تمثيل وخيال.

جلستُ أمامها، كنت أحاول إظهار شيئاً من قوتي، حاولت أن أجعل ملامحي توحي بقوتي، لم أقدر، لم أستطع نطق شيء، كررت سؤالي نفسه: "ماذا تريدون مني". قالت:

- أنا أمينة السّراج، أخت حسام والد قمر، زوج سارة، سافرتُ من دمشق إلى مصر منذ أربعة سنوات، كانت قمر حينها في عامها الثالث، اعتقد أنها لا تتذكرني الآن. سارة كانت ما تزال في منزلنا في دمشق مع أخي حسام ووالدتي. بعد سفري بأشهرٍ قليلة، سمعت أنّ أخي قد وضع أمي في دارٍ للمسنين، وحين سألته لماذا فعل ذلك، قال أنّه تعب من المشاكل المستمرّة بين سارة وأمي، وقد هددته سارة مراراً أنها ستأخذ قمر وتترك البيت، ولن يعلم لها طريق. حسام كان يعرف أنّ سارة على علاقة سابقة بيزن، ولكنّه ظنّ أنّ سارة قد نست أمره بعد زواجها، خاصتاً أنّه قد سُجن. أعرف أخي،

كان يحب سارة جداً، ويلبي لها جميع ما تطلب، ولم يكن يستطيع العيش لحظة دون قمر، لذا كانت دائماً تضغط عليه وتهدده بأن تأخذ قمر وتختفي.
كان حسام يقضي أغلب وقته في العمل، وحين اشتدّ القتال بين الجيش السوري والإرهابيين، بات يقضي بعض الليالي خارج دمشق.
في إحدى الأيام ذهب بمهمّةٍ إلى أطراف إدلب ولم يعد، بعد أيامٍ قليلة جاءنا خبرُ استشهاده، وقد توفيت أمي بعدها بأسبوعين، حينها لم استطع الذهاب إلى دمشق لأسباب أمنية وشخصية، لكني هيّئت لقمر وسارة جميع الوسائل التي ستساعدهما بالسفر لمصر والقدوم إليّ كما كنّا قد خططنا، وكان ذلك بمساعدة تهاني جارتي وصديقتي، أخت ياسين خطيبك سابقاً، اتفقنا على السفر في يوم محدد، ثم شاءت الأقدار أن استشهدت أختا تهاني "ملاك وفاطمة"، حينها قررت تهاني تأجيل سفرها.
تحدثت مع سارة مراراً أن تسافر وحدها، لكنها لم تقبل، وقالت أنّ أخيها جاء إلى دمشق بعد أن أخذوه للعسكرية.
ثم مضى شهرٌ تقريباً، كانت سارة مترددة جداً بين السفر لمصر أو البقاء في سوريا، حتى ظهرت حنين من جديد وبدأت بالاتصال بسارة والحديث معها، كانت سارة تحدثني عن كلّ شيء يدور حولها، عن يومها وما تخططه لمستقبلها، حين ظهرت حنين تغيّرت سارة فجأة وباتت متشائمة من البقاء في سوريا، وأصبحت تريد السفر لتركيا للعيش بجانب حنين، حين تحدثت معي بالأمر، لم أمانعها أبداً، في تلك الأيام كان ياسين وخالتهُ قد عزما أمرهما بالسفر لتركيا، أمّا تهاني فقد سافرت فجأة لمصر بعد أن ملّ زوجها وضاقت به الأحوال أكثر.
أخبرت ياسين بقصة سارة، قال أنّه على استعداد أن يساعدهم برحلتهم، بعدها بأيام، اختفت سارة، لم نعد نعرف عنها شيء. اتصلت بها كثيراً، بحثنا عنها في كل مكان يمكن أن نجدها فيه، لكن دون جدوى. حاولت

التواصل مع حنين كثيراً لكنّ هاتفها كان مغلقاً، بقيت على هذه الحال أكثر من عام ونصف حتى ظهر أخي حسام.
حمدت الله كثيراً أنّهُ لم يمت، بل كان مصاباً وأسيراً عند إرهابيّ إدلب، بقي عندهم أكثر من عام حتى استطاع الهروب والدخول إلى تركيا بأوراق مزورة...

كنتُ أرى الحقدَ يقطرُ من عينيها وهي تتحدث، كانت حين تقول كلمة "إرهابيون" تنظر إليّ وكأنها تقصدني، وتنتشي حين تذكر أخيها أو الجيش السوري، أصغيت لها دون أن أقاطعها، لا أنكر أنها متحدثة بارعة ومراوغة، تعرف كيف تستجر عطف وانتباه من أمامها.

- حين أخبرتُ حسام عن قصة سارة، قال لي أنّها قد ماتت أثناء محاولتها قطع الحدود السورية مع تركيا، وكان معها يزن، وقد بقيت قمر مع يزن، لكنّه لم يستطع الوصول إليه رغم بحثه الطويل عنهُ، بعد اختفاءه من المستشفى التي كان يعالج ساره فيها.
وقال أنّه استطاع جلب هذه المعلومات أثناء عمله في إحدى المنظمات.
حينها خطرت ببالي فكرة، قلت لحسام سنطلب من أحد الإعلاميين أن ينشر خبر وفاتك في جميع المواقع وشبكات التواصل، لابدّ أن يصل الخبر ليزن أو حنين ويحاولون أن يصلوا لأحد أقارب قمر، حينها سنجدهما، أعجبته الفكرة، خاصةً أنه ميت في سوريا.
بعد أيام قليلة اتصلت بي حنين كالغبية تسألني عن سارة وأخبارها، كنت أضحك من غباءها، حاولت الاستمرار في التغابي قليلاً لكنني أوقفتها حين قلتُ لها أننا نعلم بأمر سارة وموتها، وبأنّ قمر عند يزن.
وأوهمتها أيضاً أنّ سارة أخبرتنا بكلِ شيء قبل سفرها، وبأنّها ستذهب إلى ولاية أورفا في تركيا، وبأنها ذاهبة ليزن وإليك، وقد اقتنعت بكلامي،

وصدّقته بالكامل، حاولت التهرب مني فتركتها تهرب لأنني أعرف جيداً أنها ستعود إليّ يوماً ما...

طريقتها بالكلام تشبه لحدٍ كبير المصابون بجنون العظمة، كانت تتحدث وكأنّها رأس الهرم وكل من حولها ذباب، حتى أخيها لم تستثنيه حين فرضت عليه موته، لا أعرف كيف قاده الغباء لخطوة كهذه، رغم وجود آلاف الطرق الأقل عناءً وغباوة.

ثم أكملت...

- حتى علمت مؤخراً من حنين أنّ قمر بخير وبأنّها في أورفا، وحين اخبرت حسام، كان في اسطنبول عند خطيبك ياسين،
ألا تعلمي أنّ ياسين وحسام صديقان حميمان، وبأنّ حسام هو من أقنع ياسين بخطبتكِ بعد أن حدّثه عنك؟.
حينها سافر حسام إلى أورفا للبحث عن يزن لكنه لم يجدهُ، وحين تذكّر أنك كنتِ معلمة في أورفا أخبرني عنك فاتصلت بحنين وسألتها، كانت تعرفك جيداً وقالت أنكِ ويزن صديقين. لذا فكّر حسام بأن يستخدمك لمراقبة قمر ويزن، أنا لم أوافق الأمر، نبهته كثيراً أن يبقيك بعيدة، قلت له أنّ لدي خطة تجعل فرح تساعدنا دون الضرر بأحد، تعرفت على أمك عن طريق تهاني، وشرحت لها القصة كاملة، حزنت كثيراً لأجل حسام، وقررت مساعدتنا.
أمك من استأجرت شاباً للحديث معك وإخبارك أنّ أخاكِ قد خُطِف، وهي من صور أخيكِ على أنّه مقيد ومخطوف، وقد أعطتني البارحة رقمكِ الجديد، أخاك بارعٌ في التمثيل، لقد وعدته أن أتحدث مع أحدهم لقبوله في المعهد العالي للتمثيل.

أما حسام، فقد أضطر لمراقبتك حين كنتِ تريدين السفر من أورفا، لقد أوصاني أن أقدّم لكِ اعتذاراً، أعتقد أنّه أخافك حين شعرتي بمراقبته لكِ، وقد أوصاني أن أعتذر لكِ لدخوله غرفتك الشخصية...

كم كانت تافهة في حديثها، وكم كنت غبية، شعرت أنّها تخبرني بطريقة مباشرة، وتتقصد أن تريني كم أنا غبية، لا أدري كيف استطاع ياسين أن يكذب عليّ كلّ هذه المدة، لماذا لم يحكِ لي من البداية، كان سهلاً على الجميع تدارك الأمر، هل يعقل أن ياسين لم يخطر بباله أن يزن الذي يبحثون عنه، هو نفسه يزن الذي أعرفه أنا ؟

وأمي!! كيف توافقها، كيف تفعل كل هذا بي ؟ لقد كنت ألهث مثل المجنونة لمنزلي حين أخبروني أنّ أخي مقابل جهاز تتبع أضعه في حقيبة يزن، كان دمي يغلي وهي تتحدث، آلاف الأسئلة كنت أسألها لنفسي وأنا أسمع كلماتها التي باتتْ خناجراً تنكز خاصرتي دون قوة مني لصدها، تركت جميع الأسئلة خلفي ولم أسألها سوى عن ياسين، قلتُ لها: هل ياسين يعلم بكل ما حصل ؟

- لا...لا.. ياسين لا علاقة له بشيء، هو فقط ساعد حسام بأن عرّفه على فاطمة المغربية كصديقة، وهي بدورها من ساعد حسام بوضع الجهاز في حقيبتك، مقابل عشرون دولار، صديقتك رخيصة.

- والآن ماذا تريدون مني ؟

- الجمعة المقبلة عيد ميلاد قمر، قد أتمّت الثامنة من عمرها، أريد أن تذهبي معي لعيد ميلادها، وأن أتحدث مع يزن بكل هدوء...

فرح أرجوك، اتركي كلّ شيء جانباً، نحن كسوريين قد شبعنا موتاً ومصائب، وكلّ ما نريده الآن هو العيش بسلام، دون أيّ مشاكل، قمر هي ابنة حسام، ومهما حصل لن تصبح ابنة يزن. لو أنّ حسام قد تقدم

بشكوى ضد يزن لأثبات النسب، لرأيتِ يزن يلهث خلف حسام للتفاوض معه، حتى لا يسجن بسبب تزويره للأوراق، أو يهرب، وفي الحالتين سيبقى ملاحقاً، ونحن لا نريد الضرر ليزن.

لا أنكر أنّه اعتنى بقمر، وكان لها كأبٍ حقيقي، لا نريد أن نجازيه شرّاً بما صنع من خير، لكنّ حسام نفذ صبره وهو ينظر لابنته من بعيد ولا يستطيع لمسها، تخيلي أنّ أباً يرى ابنته التي حُرم منها ثلاث سنوات ولا يستطيع الحديث معها أو ضمها لصدره.

أنتِ بمساعدتكِ لي ستساعدين يزن، لأنّه إن رفض، سأضطر لرفع شكوى ضدهُ، حينها سيسجن وأكرر لكِ أني لا أريد ذلك.

كانت آلاف الكلمات تغلي في حنجرتي بانتظار لفظها، لكنّها انطفت جميعها فجأة، لم أكن لأنكر مأساة أبٍ يرى ابنته ولا يستطيع ضمها، لا أستطيع الحكم عليهم قبل أن أرى كيف سيعاملونها، حاولت أن أفهم منها إن كانت قمر ستبقى في تركيا أم ستذهب لمصر، كان جوابها مختصراً واضحاً، ستسافر معي ومع حسام إلى مصر، وقالت بأنّ الله لم أيرزقها أطفالاً وستكون قمر ابنتها التي ستعوضها خسارة الولد.

كنت سأخبر يزن بكلّ شيء منذ البداية، ولكن خَشيتُ على يزن أن يُسجن، كلامها صحيح، الكل يعرف أنّ يزن قد زوّر أوراقاً تثبت أنّ قمر ابنته، والكل قادر بكل سهولة أن يثبت العكس، حينها لابدّ أن يزن سيُحاسب على فعلتهِ، ومن ناحية أخرى، كان كلام حنين ما يزال ينخر رأسي وهي تعدد لي الأسباب الدينية والإنسانية التي تفرض على يزن أن يُعيد قمر لأهلها.

وجدتُ نفسي أتعهد بمساعدتها، دون الرجوع إلى يزن أو حتى التفكير بما قالتهُ، أعتقد أن الكلام لا يحتاج لتفكير كثير. أعرف أنّ يزن سيغضب، لكن لا فائدة من الهروب أكثر، وقد عاهدتها أن لا أخبر يزن بالأمر، كي لا يهرب من جديد.

ما أن تركتها حتى اتصلتُ بياسين فوراً، كادت حنجرتي أن تنفجر من تخم الكلمات الذي أصابها. انفجرتُ به فور سماعي صوته، كان يُقسم أنه لا يعرف شيئاً عمَّا أتحدث به، لم أصدقه في بادئ الأمر، لكني حين هدأت قليلاً، صدقت كلامه، أعرف ياسين جيداً، لا يكذب، لكني لم أعاود الاتصال به.

أمّا أمي، كانت تدافع عن فكرتها بأنّها قد ساعدت هذا الرجل لشهامته كما وصفتها، شعرت أنها تلقي خطاباً حزبياً كما كانت تفعل دائماً في الاتحاد النسائي في سوريا.

بعد أن وصلت المنزل بقليل، تفاجأت بحنين تتصل بي، كانت تشكرني وترحب جداً بمبادرتي لمساعدة أمينة، مؤكدةً أنّ يزن لن يغضب أو يسخط مما سنفعلهُ، ففي النهاية جميع ما نقوم به يصب في مصلحته، وقد أعادت خطابها الديني بحرمان بقاء قمر عنده وهو لا يُعدُّ محرّماً عليها، وبأنّها ستبلغ في السنوات القليلة القادمة، ولن يستطيع العناية بها بمفرده.

كنت أحاول التهرب من الحديث مع يزن خلال الأيام الأربع التي سبقت عيد الميلاد، لم أكن لأمسك نفسي عن إخباره، وأنا أعرف جيداً تعلقهُ الشديد بقمر.

ياسين

كنتُ عائداً إلى منزلي مساءاً، حاولت الاتصال بفرح كثيراً لكنها لم تُجب على اتصالاتي، ثم أصبح هاتفها مغلقاً. اليأس يُحيطني من كلّ جانب، والشياطين تراقصني في خلوّ الشوارع، تحت عتمة الأضواء الخافتة لم أكن أنتظر شيئاً، لم أكن أملك شيئاً، بعض الأفكار التافهة والقليل من الترهات التي تلازمني أحياناً.

مظهري يقول أنّي بخير، لكنّي لست كذلك، كنت أسمع أصواتاً تصرخ حولي دونما أصوات، أحياناً كنت ألتفت يساراً وأقول "نعم" لم يكن أحداً على يساري، تظهر لي أشياءٌ أراها لأوّل مرّة، ثم لا أجدها حين أقترب منها، أصبح الليل طويلاً، في بعض الأحيان أنتظر الشمس ولا تأتي، وأصبح شائكاً يمتد طوال اليوم، كالليل في وطني. حتى فرح التي كنت أرى فيها بصيصاً من صبحٍ جائز، اتهمتني بخيانتها ومساعدة حسام في الضرر بها.

بحثت في هاتفي عن رقم حسام، ثلاثة أرقام عائدة لهُ وجميعها مغلقة، لا أعرف أين أجده، ولا أعرف كيف وصل لفرح.

أعرفه منذ طفولتي، كنت في الابتدائية وهو في الإعدادية، مدرستنا واحدة، أراه دائماً في الحي، الكل كان ينفر منه، الجميع يعرف بذاءة أخلاقهِ وسوء سمعته، ومع ذلك كان الجميع يشهد بذكائه وحنكته. في الحيّ كانوا يطلقون عليه لقب " الزيبق" فعلاً كان كذلك في تأقلمه المتجدد مع كلِّ شيءٍ جديدٍ في حياتهِ، استطاع بخبثٍ النجاح في الثانوية ودخول كلية الإعلام في دمشق، والتي كانت حلماً لأغلب الشباب من جيله.

علاقات أبيه ساعدته كثيراً، كان يعمل في أمن الدولة برتبة "مساعد أول"، الرتبة التي لها صلاحيات في بعض الأحيان تطغى على صلاحيات الضابط.

حين أتمّ دراسته في الجامعة، توظف فوراً في الإذاعة والتلفزيون، كمراسلٍ إخباري، ومع بداية الثورة قُتل أبيهِ، فلم يزده ذلك سوى حقداً على جميع المتظاهرين، كان يندسُّ بينهم دون أن يكشف عن وجهه، يهتف بشعاراتهم ويقوم بتصويرهم ثم يرسل المقاطع والصور للأمن ليتم اعتقالهم.

حين تبيّن أمره وتمّ كشف هويته، انتقل للعمل كمراسلٍ حربي في نقاط التماس المشتعلة، ولم يكن ذلك سوى للاقتراب من أماكن الثوار والتقرب منهم.

كشفت أوراقه مع بداية عام ٢٠١٤، كان يعمل لصالح الطرفين، ليهرب بعد ذلك لجهة غير معروفة.

سمعت بخبر وفاته في إحدى تغطياته الإخبارية من تهاني، وبعد أكثر من عامين، انتشر خبر وفاته كالنار بالهشيم، ليتصدّر أغلب المواقع الإخبارية رغم

أنّه كان على قيد الحياة، وقد علمتُ بذلك حين التقيته هنا في اسطنبول، قال لي وقتها أنه لا يعلم شيئاً عن الأخبار التي انتشرت حوله، ولا يستطيع تكذيبها لأنه مطلوب لجميع الجهات المتقاتلة في سورية، وقد يتم اغتياله في أيّةِ لحظة، وقد أكّد لي أنّه تركَ جميع النشاطات السياسية ويعمل في المجال السياحي، لذلك لم يكن مستقراً دائماً في اسطنبول.

عدت للمنزل متأخراً، حين دخولي الحي، كادت سيارة مسرعة أن تصدمني، شعرت أني متّ لثواني، مضت السيارة في طريقها ثم توقفت فجأة وعادت نحوي، وقفت بجانبي، كان بداخلها شخصاً يرتدي كمامة صحية تغطّي نصف وجههِ، وقبعة صوفية تغطي نصف وجهه الآخر، نظر في وجهي وقال:

آسف، كنتُ مسرعاً ولم استطع تخفيف السرعة حين وصلت إليك، حمداً للهِ على سلامتك.

- لا عليك، حمداً لله مضت على خير، ولكن خفف من سرعتك أنت في شارعٍ فرعي.
- لا تقلق يا ياسين، في المرّة القادمة لن تسمع مني " حمداً لله على سلامتك"، افعل ما يطلب منك.

لم يترك لي هذا الغريب مجالاً للردّ عليه، أو التوسل له بإعفائي من مهمتهم وتركي وشأني، لم أنتبه منذ البداية بأنها مقصودة لا صدفة، فالشارع كان عريض وفارغ، حتى حين عاد وبدأ يتحدث بلغة عربية دون أي مقدمات، لم يخطر ببالي أنّه من أتباع الوطن، وأنه يريد دهسي، ألا يكفيك هذا التخم الدموي الذي أنت فيه يا وطني ؟!

في نفس اللحظة رنَّ هاتفي، كان الوطن، قال:

- حمداً لله على سلامتك، هل كان مسرعاً، لا عليك، سأقول له أن يخفف من سرعتهِ في المرات القادمة.

شعرت باختلاف الأصوات بين المتصل وسائق السيارة، سألتهُ ماذا تريدون مني؟ فقال:

- بيننا اتفاق، افعل ما يُطلب منك، أرسلت لك رابطاً أدخل وشاهده، ثمّ انتظر مني التعليمات.

صوته مقزز، لا أستطيع نسيانهُ حتى لو أردتُ ذلك، أجبرتهُ هذا المرّة أن يُظهر رقمه بعد أن أوقفت الاتصال بي عبر رقمٍ مجهول، بعد أن نصحني وائل بذلك، ولكن ماذا بعد، ماذا أفعل برقمه لو عرفتهُ، أكملت طريقي لأرى ما الشيء الذي يردني أن أراه.

دخلت المنزل، وأخذت الهاتف من الخزانة وفتحتهُ، كان رابطاً لإحدى الصفحات الإخبارية في الفيس بوك، قرأت الخبر ثلاث مرات، وفي كلّ مرّة كنت أكذّب

نفسي بما أقرأ، لقد جعلوا أبي إرهابياً، وأحبطوا محاولته التفجيرية!!

اتصلت بأبي فوراً، لم يكن متصلاً بالأنترنت، اتصلت بتهاني، هي الأخرى لم تكن متصلة، تركت لهم الكثير من الرسائل، ثم اتصلت بزوجة أبي، قالت بأنّه خرج منذ الصباح ولم يعد حتى الآن، لم أقل لها شيئاً، لم أكن مستوعباً ما حدث، كنت منتظراً أيّ تكذيب من أيّ شخص، اتصلت بجارنا الذي يقضي مع أبي أغلب وقته، حتى هو لم يراه منذ الأمس، اتصلتُ بالوطن رغم يقيني أنّ هاتفهُ سيكون مغلقاً، وكان كذلك، لم أترك أحداً يعرف أبي إلا واتصلت به، جميعهم كانت إجاباتهم واحدة، لا يعلمون شيء. ولكن أياً منهم لم يقل شيئاً عن الخبر، رغم أنّ خبراً كهذا سينتشر خلال لحظات ليعلم بهِ جميع سكان دمشق.

لم أنم ليلتها، رغم أني قررت تأجيل كلّ شيء حتى الصباح، لم أكن أستطيع فعل شيء سوى الانتظار.

صباحاً رنّ هاتفي، كانت تهاني من تتصل، قالت بأنها كانت عند بيت أهل زوجها ولا يوجد لديهم أنترنت لذا لم تر رسائلي حتى الصباح، سألتها عن أبي، فقالت بأنّه كان في المنزل البارحة، ولا تدري لِم هاتفه غير متصل بالأنترنت، وهي في الطريق للمنزل وستتصل فور وصولها.

بعد ساعة اتصلت بي وقالت إنّ أبي في المنزل لكنّه نائم، طلبت منها إيقاظه لأمرٍ لا يحتمل التأجيل، دقائق ثم فتح أبي هاتفهُ واتصل بي، طلبت منه فوراً الابتعاد عن تهاني، وسألته عن الخبر الذي انتشر بالأمس، قال بأنه لا يعلم لِم اعتقلوه، حتى إنّهم لم يحققوه معه بشيء ولم يدخلوه مع الموقوفين، بل تركوه في مكتب خاص، وحين أخرجوه صباحاً اعتذروا منهُ وبرروا ذلك بأن اسمه متشابه مع اسم أحد المطلوبين.

حاولت كثيراً معه أن يسافر إلى بيروت، أو عمان، أو يأتي إلى تركيا، لكنّهُ لم يقبل كهادته، وبرر اعتقاله بأنّه خطأ وارد وإننا في حالة حرب، ولا داعي للخوف.

وحين أخبرتهُ بالخبر المنتشر عنه، قال: تمت إزالتهُ ولم يصل الخبر لأحدٍ لعدم وجود أنترنت في دمشق.

أثناء ذلك اتصل بي الوطن من جديد، أغلقت الاتصال مع أبي وأجبت على اتصاله، قال:

- الحمدلله على سلامة والدك، ولكن تذكّر، في المرّة القادمة لن أقولها لك. سأرسل لك عنوان مقهى، ستذهب إليه في الثالثة ظهراً، وأنت تعرف من ستراقب، إن استطعت أن تصبح صديقها وتنقل جميع ما يفكران به، سنعطيك مكافأة.

كنت أريد القول أنّ مكافأتي أن تتركوني وشأني، لكنّ الوطن يقول ولا يسمع.

لم يعد أمامي أيُّ خيار آخر، هذه المهمة قد التصقت بي، جعلوني مخبراً رغماً عني، لكن لا بأس هذه المرّة، الوطن وما فيه فداء أبي.

شعرت برهبة كبيرة حين دخلت المقهى، لم يكن كبيراً وذو أضواء ملونة، كما هو من الخارج، كنت أعرفه وأراه دائماً، لكني لم أفكر يوماً بالدخول إليه.

كان عبارة عن مقرٍ ثوريٍ مصغّر، يجتمع به المتحدثون والقادة -كما هو متعارف - وقد زُيّنت جدرانه بعبارات وصورٍ وعلم الثورة وبعض أعلام الفصائل، جميع من في المقهى كان ثائراً، أو هكذا بدا لي الأمر في البداية، جلست في زاوية ميتة، لكنها تسمح لي بمشاهدة أغلب المتواجدين.

لم ينتبه لوجودي أحد، كان الجميع منشغلاً في جواله، ظننتهم يتلقفون أخبار الثورة، ثم تبين لي بعد دقائق أنّهم مشغولون في ألعابٍ إلكترونية، أو مقاطع مضحكة، وحين تدخل أنثى، كنت أراهم يتخاطفونها بأنظارهم، يلتهمون عطرها المنبثق بينهم دون خجل،

كانت أعمارهم تتراوح بين الأربعين والستين، ويوجد القليل منهم في عمري أو أكبر قليلاً. لم ألفت انتباه أحدهم ولم أشأ ذلك، كنت أنتظر السيدة التي سيكافئني الوطن إن أصبحت صديقها.

أضحكني أحدهم وهو يتوعّد النظام بأقسى الضربات ردّاً على استعادة حلب، وبأنهم لن يتركوا النظام يفرح بحلب كثيراً، فيرد صديقه الذي معه بأنّ حلب صامدة، تمرض ولا تموت -كما وصفها-، لا أدري، هل يعلمان أنّ النظام قد استعاد حلب منذ أكثر من عام ونصف، وبأنها أصبحت أكوماً من حجارة ولن يفرح بها أحد، وهم يتحدثون كأن الأمر منذ ثلاث أيام.

ثم قال آخر أنّ النظام أوجعته البارحة الضربة التي استهدفت باص مبيت لعساكر مساكين، هو لم يقل مساكين، كان يصفهم بالخنازير، ثم يردّ عليه صديقه بأنّ القادم أكبر وأشمل، ثم يعودون إلى لعبتهم في الجوال.

صرخ أحدهم وهو في قمّة حماسهِ "الله أكبر"، قلت في نفسي لعلّ الثوار استعادوا حلب، ثم اتصل بأحدهم، كان أقربهم إلي، رأيته يتحدث مع فتاة جميلة ترتدي نصف ملابسها، في مكالمة عبر أحد برامج المواعدة، قالت له لَم أراك مبتهجاً، فيقول لها أن وجهها خيرٌ عليه، فقد عادت لهُ النقاط الذهبية التي يستطيع من خلالها الاتصال وإرسال الهدايا. ثم ينادي أحدهم بصوت عالٍ، (سمَاااع)، فينصت الجميع للمذيعة وهي تقول أنّ اسرائيل قد قصفت البارحة نقاطاً عسكرية حول مطار دمشق. في تلك اللحظة كادت عيناي أن تخرج من مكانها، أمّا هم فقد عاد كلٌّ منهم لهاتفه، ثم أكمل صاحب النقاط: دعينا منهم، متى سنلتقي؟

كان الشعور يتخبّطني، أضحك أحياناً على هكذا قادة وثوار، وأحزن كثيراً على شباب أبرياء انجرّوا وراء عبارات النصر التي يطلقونها عبر شاشاتهم، ولا ذنب لهم سوى أنّهم وُجِدوا في بقعة يتحكم بها أصحاب الشاشات والكروش.

رأيتها تدخل أخيراً، لم أرَ أحداً يتلقفها بعيونه، كانت نظراتهم لها سريعة ومليئة بالكراهية، أيقنت ذلك حين خرج البعض مع دخولها، من بينهم ذاك الذي يريد استعادة حلب من مقعده، كان معها رجلاً أصهب، خفيف الشعر طويل الجسد، وشابةٌ ليست من معها بالصورة، ولكن يبدو أنها صحفية.

جلسوا على طاولتهم وفردوا أوراقاً كثيراً، دار بينهم نقاشٌ مطوّل، حتى أخيراً ذهب الأصهب والجميلة وبقيت وحدها، كانت تنظر لساعتها كثيراً، أعتقد أنها تنتظر أحدهم.

لا أنكر أنّ قلبي ازداد خفقاً حين أتت، شعرت بخوف بارد يجتاح جسدي، لم تكن لدي خطّة للحديث معها، ولكن كان عليّ أن أُكسب ودّها علّ الوطن يكافئني ويلغي لقب الإرهابي عن أبي ويقشع مهمة المُخبر التي التصقت بي.

قمت إليها، شعرت أنّ عدداً من العيون اتجهت نحوي وأنا ألقي التحية عليها، لا أعرف إن كنتُ المُخبر الوحيد في هذه المقهى، ولكن كنت على يقين أنّ الوطن يضع على كل مخبرٍ مخبراً، حتى صار الشعب كله جواسيس للدولة.

لم أرَ فيها قتلة أختيّ ومريم، لم أرَ دماً يلطخ يديها. لو أنهم طلبوا مني قتل أحد المتواجدين في المقهى، لكان الأمر أهون عليّ، فأغلبهم يستحقون الموت بدلاً من أرواح الشباب التي تزهق يومياً من كلتا الجبهتين، لكنها لم تكن كذلك، شعرتُ بحنان الأم يُضخُّ منها، كنت أرتب كلاماً كثيراً قبل جلوسي معها، لكني نسيت كل الكلام.

قالت لي تفضّل ما الأمر الذي جلست معي من أجله، كنت على وشك القيام والهروب من الحيّ كلهُ، لكنّ قِواي اجتمعت ثانيةً، قلت لها أنّ هنالك أمراً مهماً جداً، يجب أن نلتقي في مكانٍ آخر.

لم تمانع كما كنتُ أظن، اقترحت عليّ مكان وقالت سنلتقي بهِ بعد نصف ساعة.

اتجهت للمكان المحدد وجلست أنتظرها، لم تتأخر، جاءت وكان معها ابنتها التي في الصورة والرجل الأصهب، سلموا عليّ ثم طلبت ممن معها الجلوس على طاولة ثانية، اعتذر الأصهب عن البقاء، كان ينظر إلي، شعرت أنّي أعرفهُ وأنّهُ يعرفني، بعد مغادرته طلبتُ من ابنتها الانضمام إلينا.

عرفتهم عن نفسي، قلت لهما أنّي لستُ ثورياً بل مُخبراً للوطن، وأنّي هنا كي أكون صديقاً لكما بأمر الوطن، اعترفتُ بمهمتي الاستخبارية، وشرحت لهما ما حصل معي ومع أبي منذ البداية، شاهدوا الصور وسمعوا المكالمتين الأخيرتين التي سجلتها للوطن بعد أن نبهني وائل لتسجيل المكالمات، قلتُ لهم أني لا أريد خسارة نفسي أو أبي، ولا أريد الضرر بكما، فلا أعلم ما يخبئ لكما الوطن.

ضحكت السيدة وقالت مخاطبةً ابنتها، هؤلاء الشباب الذين سيبنون الوطن الحر، الشباب الذي يفكرُ بالوطن لا بقائده، والذي يغار على شعب وطنه دون النظر إلى التوجهات أو العرق، هذا هو الوعي الذي نراهن عليه.

ثم خاطبتني قائلةً، لا تخف، ستصبح صديقاً لنا، وستعطي تقريرك كما يريد الوطن، وأيّ مهامٍ تُطلب منك تخصنا، سنعمل عليها، أعدك بذلك، لكن عدني أن تبقى صادقاً معي.

لا أدري لِمَ تذكرت أمي حين خرجت من المكان الذي التقينا فيه، جلست في إحدى الحدائق رغم المطر، كانت فرصتي للبكاء طويلاً تحت المطر، المطر وحده القادر على إخفاء عيوب دموعنا، بكيت حتى لم أعد أميّز بين دموعي وبين حبات المطر المتسابقة إلى وجهي.

وائل

أفكرُ أحياناً، لماذا أصبح السوريون أضداداً يكرهون بعضهم والغير يكرههم، أهي عقوبة من الله أم امتحانٌ من لدنهِ، ولماذا لم نتّعظ؟، لماذا تحول الناس فجأة لشياطين، والنّاجون من هذا التحوّل أصبحوا إما تحت التراب أو مجانين فوقهُ. لماذا هُدمَ الحائط الذي كنّا نسير بجانبه ولا نطلب سوى الستر من الله. لماذا يُسحقُ من يقول لا، ويُقتل من يقول نعم، ويُخوّنُ من يصمت. لماذا لا نستطيع أن نفكر كما نشاء، ونعمل ما نشاء، ونمضي كما نشاء. لماذا نُخلق كلّ يوم دون جديد، ثم نموت من جديد؟.

حين كنتُ صغيراً، كنت أعتقد أنّ الملائكة هم الجدّات والأطفال، وحين كبرت قليلاً، كنت أضحك حين أتذكر هذا الاعتقاد. أما اليوم، اليوم أدركتُ صِحّتِ اعتقادي وأدركتُ أن الشياطين هم نحن، الكبار، من ندّعي أننا ملائكة ونحن نحمل في قلوبنا كل الصفات الشيطانية.

كنت أقول هذا الكلام لياسين، كان يهتز وهو يسمعني. رأيت دمعةً صمّاء يابسة تسقط من عينه، لم أكن أراه ياسين الذي التقيتهُ منذ أكثر من عام، والذي أعرفه منذ أكثر من عشرة سنين.

حين كنّا أطفالاً كنا دائماً نتحاشاه، لا نلعب معه ولا نجلس معهُ، ونرد على كلامه بكل احترام واختصار لأنه ابن مدير الناحية، أما اليوم، أنا أرى أمامي جثّةً هامدة، قد شُوّهت تماماً.

حتى أني حين أمسكت يده لأحاول مواساته، كانت يده باردة جداً رغم أن الدم يغلي في عروقه.

حاولت كثيراً أن يحكي لي ما حصل معه، وبماذا يفكر، لكنه لم يجب بشيء، وقبل أن أغادر بقليل، شدّني للجلوس بقوله" لقد التقيت بها".

قال لي ما حصل معه، رغم أنّ كلامه لم يكن واضحاً تماماً، كان يضحك تارةً ويصمت أخرى، ويصرخ ويُخفض صوته. كانت عيونه تحكي مأساة السوريين جميعاً، ثم ضحك في آخر كلامه وقال:

- كنت سورياً جداً معها، وكنت سورياً جداً مع الوطن، وما زلتُ حتى الآن سورياً جداً وما أدري أخنتُ وطني، أم خانني الوطن.

ابتسمتُ في وجهه محاولاً التخفيف عنهُ، قلت له، أنت لم تخن وطنك، الوطن خاننا جميعاً، وستمضي الأيام، حاول فقط حماية نفسك وأبيك، ولا تنظر لشيء آخر.

بكيت حين ودّعتهُ، بكيت نفسي فيه، بكيت غربتي ووطني، بكيت طفولتي المترامية بالحارات القديمة، بكيت رائحة الماضي التي تعشعش في تفاصيل يومي، بكيت الذل الذي لَقيتهُ بين الصخور والأشجار والأشواك في اليونان، وبكيت فرهاد وجميع الأموات الذين دُفِنوا في غاباتها، بكيت أصدقائي الذين فرّقتهم الأرض، الآن فقط شعرت أني بلا وطن، وأنا أودّعُ آخر أصدقائي.

المطر كان غزيراً ليلتها، والأضواء في شوارع اسطنبول كانت مهجورةً مخذولةً خافتة، ورغم ذلك مضيت نحو ليلتي الأخيرة في تركيا، كنت أبكي دائماً حين أمشي تحت المطر، كان المطر يحمي دموعي من فضحية الأشواق.

طائرتي في السادسة مساءً، ولديّ الوقت الكافي لأرتب جميع أشيائي، ودّعت بسام الذي خرج صباحاً لعملهِ، لقد وفرّ عليّ الكثير من الألم حين قال أنّهُ يكره الوداع، فلم يزد عن العناق وكلمتي " مع السلامة "

ودّعت الجدران التي احتوتني لعامين، احتوتني بغبائي وبكائي وأفكاري وقصصي التي حفظت تفاصيلها النوافذ والأبواب، والتي كنت أعيدها عليهم بعد كلّ محاولة عبورٍ فاشلة.

كنت قد عاهدت نفسي ألا أنظر لإسطنبول من نافذة الطائرة، حتى لا أشتاق لها، لكنّي لم استطع، ما أزعجني حقاً في نظرتي تلك، هي غصّةُ قلبي وأنا أنظر إليها رغم أنها كانت محطة لا أكثر، على عكس الفرحة التي اجتاحتني وأنا أعبر الحدود السورية يوم وضعت أوّل خطواتي في تركيا.

كانت ضربات قلبي تزداد، مع كلّ خطوة أمشيها نحو صالون الاستقبال في مطار برمن في ألمانيا، حتى بتُّ أسمع نبضه حين رأيت أبي يلوّح لي من بعيد، لا أدري كيف وصلت إليه، لا أدري كيف عبرت الممر الطويل وارتميت على صدره باكياً، أخوتي حولي يبكون فرحة بلقائي، لقد كبروا دوني، رأيت

"برمن" تفتح ذراعيها لي وأنا أمشي في شوارعها، كنتُ مفعماً بالتعب، كنت أحمل تلالاً من هموم فوق ظهري، وها أنا أرميها على جانبي الطريق الفرعي المؤدي لبيتنا الذي سأسكن فيهِ مع عائلتي من جديد.

نمت كثيراً يومها، نمت بعمق واطمئنان، وأنا أرتشف ذكريات الماضي التي حملتني لألمانيا، أيام كنتُ في الثانوية، أسترق النظر لسلوى، الجميلة الوحيدة التي سكنت قلبي مذ كنّا أطفالاً، كنت أحبُّ كلَّ تفاصيلها، وأعرف مدارات النجوم التي تُضاءُ منها ليلاً، كنت أعشقها بصمت قاتل، وها قد جاء الوقت للبوح.

في الصباح حين استيقظت، تلقّاني أخي الصغير وهو يقول لي:

- ليتك أتيت معنا البارحة، كانت حفلة رائعة، وقد جاء إليها جميع أصدقائك، وقد قدّموا اعتذارات كثيرة لعدم استقبالهم لك في المطار، وكانوا يظنون إنك ستأتي للحفل معنا.
- حفلُ من؟ لا أعرف عمَّا تتكلم.
- ألا تذكر البارحة حين سألناك إن كنتَ تنوي الذهاب معنا للعرس أم لا؟

- لا.. لا أذكر، هل كنتُ نائماً حين قلتم لي؟
- نعم!!

ضحكت أختي بخبث، كانت دائماً (تُغِرُني) بنومي الثقيل وها قد جاءتها فرصة للتنمر عليّ من جديد، ثم قالت:

- أعتقد أنك تقصدت البقاء نائماً، مع أني شعرتُ أنك جئت بهذا اليوم خصيصاً لحضور العرس.
- لا أعرف أصلاً عن أيّ عريس تتحدثون، ولِمَ كل الجيران والأصدقاء في العرس، هل العريس ابن أحد جيراننا؟
- نعم... حتى العروس كانت جارتنا، ألا تدري بأنّ جهاد وسلوى كانوا مخطوبين وقد تزوجا بالأمس؟
- سلوى؟!!

يبدو أني وصلتُ متأخراً جداً، ككلِّ الأشياء في حياتي.

يزن

لطالما وقفت أمام المرآة، أعاتب شعراتِ بيض قد شقّت طريقها بين سواد لحيتي، أعاتب تجاعيداً فرّت من وجه عجوزٍ، واستوطنت تحت عيوني.

لطالما خرج الصمت مني، وقف أمامي رافضاً جميع الهدن، هادماً ما نويت بناءه منذ سنين، يصرخ في وجهي: ها قد ملأتُ أرجائك، ماذا تنتظر، تعدّ بياض شعركَ ثم تعصر جُرحَ قلبك كي لا ينزف ألماً، كنت دائم الخوف من عمرٍ قد يُجرُّ من تحتك دون أن تدري والآن خائفٌ من كِبرك.

لا أجيبُ حينها...

لطالما ناشدتُ روحي أن تصبر قليلاً لعلّ الله يأتي بفرج فنذهب معاً، لكنها تأبى الانصياع وتعود وحدها لذلك الحي الهرم الذي ربت فيه.

لطالما نظرت لنفسي في المرآة فلم أرني.

تخيّل... تنظر في المرآة ولا ترى نفسك، تخاطب جسدك الفاني وبقايا شتاتٍ كانت تسمى روحاً تنبضُ في قلبك، فلا يجيبك أحد.

تعود لتهرب من هروبك، وتبقى كفأرٍ في مصيدةٍ دائرية، تركض حول نفسك يُنهيك التعب فتسقط، وحينها ستحاول النهوض فقط لأنّ زفرات الموت قاسية، أنت لا تحاول الهروب من الموت بنهوضك البائس، أنتَ تُحاول إثبات نفسك أمام نفسك، لكنك لن تقدر، فالزمان لن يُعاد.

سكوتك الدائم والمضيّ بصمت، جعل منك كتلةً من ضعفٍ فلمَ المقاومة وارتداء لباس قوةٍ ليس لك، تحاول أن تثبت للدنيا أنّك الأقوى؟ أم أنكَ تحاول صقل روحك من جديد بعد فوات الأوان.

تعبت الحياة من الضعفاء الذين ملأوا العالم أخيراً، أظنها ترتجي طوفاناً آخر يُعيد للدنيا هيبتها ومكانتها في عيون ساكنيها.

الأرض ملت من أقدام الأقوياء وهي تدعس رؤوس الضعفاء، تحاول الانتفاض في وجههم، لكنّ سكوت الكثيرين عن حقهم جعلهم رغم كثرتهم ضعاف، وجعل من الطاغين رغم قلتهم طغاة، فالطاغية لم يولد طاغية، لكنّه وجد نفسه في دنيا يحكمها قلّة، أما أن يَدعسَ، أو يُدعس، لا ثالث لخياراته. أما من قال أياماً وتمضي، فذلك اختار أن يُدعس بكامل غبائه.

أنا اخترت أن أُدعس، ليس ضعفاً، وإنما خيار القوى لا أقدرُ على امتلاكه، لذا اخترت المسير بمحاذاة الحائط الذي نطلب الستر بجانبه، اخترت أن أبقى وحيداً مع قمر، لكنّهم لم يتركوني.

كانت نظراتي تلوح بين قمر وأمينة وفرح، الفتاة التي كذّبتُ نفسي حين وسوست لي أنها تعاونت معهم ولم تكن مجبرة، شكمت نفسي وصرخت فيها، وها هي نفسي الآن تشمت بي أمام فرح التي اصطحبت أمينة لمنزلي دون أن تخبرني.

حتى حنين وياسر، كان ردهم على أمينة مفاجأ لي، حين وضعت رأسها أمام اللاب توب، وألقت عليهم التحية، لم يتفاجأ ياسر مثلي بقدوم أمينة، بل أبعد نظره عني حين نظرت إليه، وحنين أيضاً، حتى فرح التي ابتسمت بالبداية، أراها تبتسم الآن ولكن في عينها ألف دمعة، لا أدري أهي حزينة لأجلي، أم تبكي خيانتي والخناجر التي زُرعت في خاصرتي.

وحدها قمر من تفاجأت مثلي، لكن ردّها كان قاسياً جداً حين قالت لي:

- كنت أنتظر هدية عيد الميلاد التي قلت عنها أنها مختلفة هذا العام وستعجبك، خطر ببالي الكثير، لكن لم يخطر ببالي أنك ستأتي بهم لأخذي، أهذهِ هديتك؟

لم أعد استطيع التفكير بشيء. لا أعرف متى ذهب الضيوف ومن أغلق الباب ومتى، لا أعرف من أجلسني بجانب فرح، ومن أجلس قمر بحضن عمتها، نظرت إلى اللاب توب، كان منطوياً وقد غادر ياسر وحنين الجلسة، يبدو أنّهم اختاروا الهروب من المواجهة.

افتتحت فرح كلامها، ولم أكن أظنها ستتكلم يوماً. قالت:

- حبيبتي قمر، هذه عمتك تعرفينها أليس كذلك، لقد جاءت اليوم لتطمئن عليك وتحتفل معك بعيد ميلادك، لقد أحضرت لك هدايا كثيرة، ستعجبك.

ثم التفتت إلي وقالت:

- يزن يجب أن نتكلم، هنالك نُقاط كثيرة بحاجة لتوضيح، وصفحاتٍ كثيرة يجب أن تطوى.

ثم اتجهت بحديثها لأمينة: ألن تتكلمي؟ دعي قمر تذهب لغرفتها لرؤية الهدايا التي أحضرتها.

لم أجبها، لم تهتز شفتي، لكن قلبي كان يصرخ، داخلي كان ينتفض كطيرٍ ذُبح للتو.

نظرت أمينة إلي، كانت نظراتها مكتظّة بحقدٍ وكره، رغم ذلك استطاعت أن ترسم ابتسامة على وجهها، قالت:

- نحن لا ننكر فضلك علينا، لقد اعتنيتَ بقمر، وحافظت عليها، ونحن نقدّر المعروف الذي صنعته لنا، ولكن حان الوقت أن نستردّ أمانتنا.

رفعت رأسي تجاهها، كانت كلمة "نحن" التي ذكرتها ببداية كلامها خنجراً أخيراً زرع في قلبي، ورغم ذلك سألتها عن "نحن" هذه، فقالت: نحن، أقصد بها أنا وحسام والد قمر، ألا تعلم أنّه على قيد الحياة؟

- لا، لم أكن أعلم، ولماذا لم يظهر قبل الآن، لماذا لم يأتي حين وفاة سارة.
- لم أكن وقتها أعلم أنّ حسام على قيد الحياة، أما هو، فكان يبحث عنك، حاول كثيراً وفي النهاية وصلنا إليك.
- لكنّ سارة أكّدت لي قبل وفاتها أنّ حسامَ قد مات، حتى أنّها أمضت عِدّتها في سوريا، وعند انتهاء فترة العدّة جاءت إلى تركيا، وما جاءت إلى تركيا إلا بسبب ضيق العيش وانتهاء النقود التي بحوزتها.

كانت فرح تسمع كلامي ولكنّ نظرها بتجاه أمينة، تتلقف إجابتها، كأنّها سمعت كلاماً مني غير الذي سمعتهُ من أمينة.

قالت أمينة وكانت الابتسامة قد بدأت بالذوبان.

- كانت سارة في منزلها ومع ابنتها ولم يكن لديها أيّ فكرة للسفر، حتى جاء خبر وفاة حسام، حينها استطعت إقناعها بالسفر لمصر، مع تهاني

أخت ياسين، خطيب فرح، ولكنّ استشهاد شقيقتيها أجّل الفكرة، وحين عادت تهاني لفكرة السفر، كان أخُ سارة قد ظهر في دمشق ولم تستطع سارة تركه على حدّ قولها، حتى ظهرت حنين، حينها قررت سارة السفر لتركيا.

وقتها لم نكن نعرف شيئاً عن حسام، ولكن حين ظهر أخيراً قال بأنّه كان متواجداً في إدلب حين ماتت سارة، وعلم بموتها من المنظمة التي كان يعمل بها، حينها دخل تركيا وبدأ بالبحث عنك ولم يجدك.

لم أكن مقتنعاً بكلامها، كنت أشعر أنها كاذبة، ولكن لم استطع تكذيبها، فليس عندي أيّ دليل على كذبها، قلت لها:

- وأين حسام الآن، لماذا لم يأتِ معكم؟
- حسام ينتظرني بالخارج، لم يدخل حتّى لا تظن أنّ مجيئنا إليك تهجّماً، ومن ناحية أخرى، هو خائف أن ترفضه قمر بعد هذه المدة، لذا اقترح أن نتحدث ونصل لحل ينصف الجميع، حينها سيأتي، وإن أردت، سأتصل به الآن ليدخل.
- وما هو الحل الذي سينصف الجميع؟
- نأخذ قمر، وأنت تلتفت لحياتك الخاصة، يكفي ما عانيتهُ معها.
- وهل تظنين أنّ قمر سترضى بالعيش بعيداً عني؟
- في البداية نرجو قبولك أنت وحينها لا تقلق هي سترضى.

انظر يزن، كان بإمكاننا أن نشتكي للقضاء فوراً دون الحديث معك، وما زال هذا الأمر ممكناً، ولكن حينها ستسجن لتزويرك أوراقاً رسمية، ونحن لا نريد تعريضك لأيّةِ متاعب، وأنت تعلم أنهم سيلجؤون فوراً لفحص الحمض دون الرجوع لأوراقك. قمر ابنة حسام، وأنا عمتها، لن تستطيع تغيير هذه الحقيقة.

- هل أنتِ من أرسل الشرطيين لمنزلي؟
- لا، لم أكن انا، هذا حسام، لم أكن راضية عمّا فعل، كان يحاول معرفة ما يدور ببالك، لم يكن يتوقع أنّك قد سجّلت قمر على إنها ابنتك، حسام قال أنه سيعتذر منك على هذا، لكن لا حيلة لهُ، كان يرى ابنتهُ ولا يستطيع ضمّها أو حتى التحدث معها، هل تستطيع تخيّل نفسك مكانه.
- ماذا تفعلون لو رفضت قمر الذهاب معكم.
- قمر لن ترفض إن كلمتها أنت، أعرف إنها تسمع منك، لهذا السبب نحن هنا، لا نريد أن نأخذها عنوة عنك أو عنها.
- لماذا لا تتركونها عندي، ويمكنكم رؤيتها متى شئتم؟
- وهل يصحّ ذلك يا يزن؟ أنا لا استطيع التأخر أكثر، يجب أن أرجع لمصر في اليومين القادمين، حسام سيسافر معي، وكذلك قمر، وأنت يمكنك الاتصال بها متى تشاء، قمر ابنتنا لا نرضى أن تعيش عند رجل غريب ووالدها يطلب رؤيتها، يجب أن تعيش عند والدها.

نظرت لفرح، كانت صامتة، لم تتكلم طيلة الحديث، كانت مرتبكة باتصالات تأتيها ورسائل، حين نظرت إليّ استأذنت بالانصراف، أعتقد أنّ نظراتي كانت أقسى من أن تتحملها.

نهضت أمينة من مكانها واستأذنت بالانصراف هي الأخرى، قالت أنها ستعود غداً صباحاً بصحبة حسام، وإنهم ينتظرون اتصالاً مني.

لا أدري، يبدو أنني فعلاً قد أخذتُ شيئاً ليس لي، وحان وقت ردّه لأهله، لا أدري لماذا نتعلّق دوماً بالأشياء التي ليست لنا، ونهملُ أنفسنا.

لم أحاول التفكير بما سمعت، رغم أنها لحظة تستدعي كلّ عقلي، لا أعرف إن كنتُ سأستطيع تقويم نفسي لأكون في مرتبة الدّاعسِ لا المدعوس، أم أني سأبقى بجوار الجدار الذي عوّدتُ نفسي على محاذاته وطلب الستر من الله.

حتّى قمر نفسها لم تدع لي المجال للتفكير طويلاً، حين خرجت من غرفتها بعد ذهابهم بدقائق قليلة، قرّبت ليَ صحن السجائر وقالت:

- لقد سمعت حديثكم، لا تقلق، ستبقى أبي حتى لو كنتَ بعيداً عني.

فرح

لا أدري، حسبتُ الأمرَ هيّناً، لم أتوقع أن تحرقني دموعي التي قد ظننت يوماً إنها ستطفئ النار التي بداخلي.

اليوم فقط عرفتُ أننا نعيش بكذبة كبيرة تسمى " ابكِ لترتاح "، كم مرّة يجب علينا البكاء لنرتاح، كم مرّة يجب علينا أن نكذب على أنفسنا بأننا بخيرٍ بعد بكائنا، تعوّدت عيوننا على البكاء لأيّ أمرٍ، فكيف سنرتاح؟

قبل أعوام، كنت أعتقدُ أنّ العبارة صادقة، أما اليوم فلا؛ نحنُ نبكي أنفسنا وراحتنا قبل أي شيء آخر، نبكي حظنا، كذبنا، صدقنا، خيانتنا، وفاءنا، ونبكي سوريتنا التي اندثرت بين عجلات الزمن، أصبحت وجوهنا كالحة كوجه الموت تستقبل أيّ خبرٍ ببكاء، حتى حين نضحك، نبكي.

لا أعرف إن كنّا سنتأقلم كالآخرين، ممن سبقنا في اللجوء والتشرد وأكل بعضهم البعض.

حين كنتُ في الثانوية، كنّا نخرج نصرة لفلسطين، كنّا نسمع صرخات القاطنين في القدس مثلما نسمع نحيب المشردين خارج فلسطين، ونبكي مع من يبكي في غزة، كما نبكي اللاجئين في المخيمات المنتشرة في الجوار.

نحن كنّا سوريين بما يكفي لنكون مثلهم، لم نكن نعلم أننا كنّا نتدرب على البكاء الطويل، ولكن، لم يبكِ معنا أحد.

القاطنون في دمشق ومناطق النظام، ما زال اسمهم سوريين، أمّا سكان الداخل السوري المجزأ بين شمالٍ محرر وشرق محتل، وما يحيط بسوريا والجوار العربي، أصبح اسمهم لاجئين، والبقية في الدائرة الأبعد، أصبح اسمهم عرباً مهجّرين، الفرق بيننا وبين

من سبقنا، أنّ من بقي منهم في الأراضي المحتلة، صار اسمهم عرب ٤٨، أمّا نحن السوريون، فقد أصبح اسم الّذين رحلوا وتشردوا عرب٢٠١١، سمعتُ الكثير يتداولُ الاسم، ولا أعلم أتطول هذه التسمية أم ستنتهي قريباً.

المصائب تحومُ حولنا كأنّها ضِباعٌ حول جثة، طحننا الزمن بفترةٍ كان ينبغي أن نعيشها في زهوة الشباب، الوطن إن ضيّق صدره علينا يصبح لعنة، وها قد بات الوطن لعنة لا تفارق صدورنا.

لم أكن أتوقع أن أرى يزنَ في الوجه الذي رأيته بالأمس، ولم أتخيل لحظة أن أكون سبباً في تعاسته، لا أعرف أكان ينبغي عليّ أن أعتذر له عن قدومي، لكنهم سيأتون على أيةِ حال، فهم يعرفون كلّ شيء، حتى عنوانهِ.

رغم أنها سحرتني بأسلوبها لطلب العنوان من يزن لتكتمل خيانتي لهُ وكذبتي عليهِ.

لم أنم ليلة الأمس وأنا أفكّر بما سيقوم به يزن، لم أستطع وضع نفسي مكانه، ولم أستطع نسيان وجه حسام وهو يضحك فرحاً، حين قالت له أمينة أنّ يزن سمعنا للنهاية وسيتصل بنا. شعرت بشوقه لضم ابنته، رغم أنّي لم استرح له منذ البداية، إلا أنّي تعاطفتُ معهُ كثيراً.

اتصل بي ياسين ثلاث مرات حين كنت عند يزن، وكانت رسائل وائل تنهال عليّ في كل لحظة، شعرت أنّ مكروهاً حصل لياسين، ولم أكن استطيع الرد على اتصالاته.

في الطريق، قرأت رسائل وائل، فرحت كثيراً حين أخبرني بحصولهِ على فيزه طالب، وأنّ أموره اكتملت وهو في المطار الآن، كان يخبرني أيضاً أنّ ياسين صادق، وأنه يحبني. أنا أعلم أنه يحبني، ولكن نحن البشر هكذا، دائما متأخرين.

اتصلت بياسين بعد الظهيرة، أعاد قسمه بأنّه لا يعلم شيئاً عن ما فعله حسام، وحين أخبرته بأنّ فاطمة التي وضعتني بهذا المأزق مقابل عشرين دولار، سكت.

ناديت عليه لكنّهُ لم يجبني، مرّت نصف دقيقة وهو صامت، لا أسمع سوى أنفاسه، ثمّ سألني عن فاطمة إن كنت أعرف عنها شيئاً، قلت: لا أعرف عن فاطمة الكثير، ولم أشاهدها بعد آخر مرّة حين أخذت بقية أشيائي من المنزل، عاد لسكوته ثانيةً، ثم اعتذر مني وقال بأنّه يريد الذهاب.

لم أفهم ما يدور بباله، بعد ساعة تقريباً اتصل بي، لم يكن كلامه مفهوماً، لكني فهمت أنّهُ يريد الاتصال عبر السكايب.

لم يكن ياسين من شاهدتهُ، كان شخصاً آخرَ يحمل صوته وبعض ملامحه، أصبح نحيل الوجه كأنّهُ مومياء محنطة، كان يتكلم بسرعة وهو يمشي، قال لي بأنّهُ تعرض للدّهس منذ أيام، كان سيُقتل، أخبرني أيضاً عمّا حصل مع أبيه، وكيف أرسلوا الرابط الإخباري لهُ، وقال أيضاً أنّه قابل الامرأتين وحدثهما عن كلّ شيء، لم يذكر خطته المستقبلية، أيّدت ما فعل، رغم خوفي الشديد عليه،

أعرف أنهم لن يتركوه إن علموا بالأمر، ولكنّه أراد وقتاً إضافياً ليحاول إقناع والده بالسفر.

حينها راودني شكٌ ما، ولم يكن هنالك من يؤكد شكي أو يدفنهُ سوى والد ياسين، فاتصلت به.

سألته لماذا لا تسافر وتأتي إلينا، قال لي بتردد خائف، أنّ لديه عصفورين ويخاف عليهم إن ترك البيت وسافر، فهمت ما يقصد بعد أن أخبرني أن تهاني في سوريا، قلت له أعد العصفورة لصاحبها، أمّا العصفور فلا تخف عليه ما دام يستطيع الطيران، سكت قليلاً ثم قال: الغربان لن تترك العصفور وشأنهُ، لكنّي ما دمت أحميه من مكاني، فلن يقترب منهُ أحد، طلب مني أن أعدهُ بالمحافظة على ياسين وأن أبقى بجانبه حتى لو انتهت العلاقة التي تربطنا كخطيبين، وعدته أن أبقى بجانب ياسين وأن

أساعده بما أستطيع، سألتهُ عن حسام وأختهُ أمينة، قال بأنه لا يعرف عن أمينة شيء منذ سفرها لمصر، أمّا حسام فقد مات منذ أكثر من عامين.

في تلك الأثناء أعاد ياسين الاتصال بي، وصف لي شخصاً إن كنت أعرفه، قال لي بأنّ بشرته بيضاء مائلةً للشقارِ، أصهب الشعر اصلع، طويل الجسد نحيلٌ بعض الشيء. لهُ نمشٌ خفيف أعلى أنفه وله ضربٌ واضح فوق حاجبه.

سألته عن اسمهِ فقال "جمال"، وأعاد عليّ مواصفاتهِ لأتأكد، قلت لهُ بأنّي أعرف شخصاً بهذه المواصفات، لماذا تسأل، لم يجبني، كان ينتظر إجابتي، قلت بأن شخصاً شبيهاً له كان يتردد أحياناً لرؤية فاطمة، أحسست هنا أنّه وصل لما يريد، لم ينطق سوى ب" سلام " ثم أغلق الاتصال.

بحثت عن رقم فاطمة في هاتفي فلم أجده، ثم فكّرت أنّ حديثي معها سيجعل للأمر قيمة، ومعاتبة النذل تجعل منه سلطاناً، وهي أرخص حتى من العشرين دولار التي أخذتها مقابل خيانتها لي.

لا أعرف كيف أكملت عملي ذلك اليوم، حتى أنّ الطبيب الذي أعمل عنده طلب مني عدّة مرات الذهاب للبيت والراحة، حتى انتهت ساعات عملي وخرجت من المستشفى.

تفاجأت بيزن وقمر عند الباب ينتظروني، لم أقوَ على احتمال نظراته لي، تمنيّتُ وقتها أن يصفعني أو يشتمني لكنّه لم يفعل، وددتُ وقتها لو أحضنه وأبكي على صدرهِ أرجو سماحهُ، مدّ يده ومسح دموعي حين سالت على وجهي.

حاولت شرح موقفي لهُ، لكنّه اسكتني، ابتسم في وجهي رغم آلاف الدموع المتزاحمة في عينه، ثم قال أنّ قمر تريدُ توديعكِ، بكى حين نطق كلمة وداع، لا أدري كيف استطاع إكمالها رغم الغصّة التي في حلقهِ.

حين انثنيت للتكلم مع قمر، نظرت ليزن وطلبت منه الابتعاد عنا قليلاً، ثم أمسكت يدي وقالت بأنّها تريد الحديث بيني وبينها دون أن يسمع يزن ما سنقوله، نظرت إلى يزن، كان متفاجئاً مثلي، طلب منها البقاء لكنها أصرّت عليه أن يذهب لخمس دقائق فقط.

ابتسمت في وجهي وقالت:

- أنا لم أغضب منكِ حين أتيتي مع عمتي البارحة، رغم أنّي لا أذكرها جيداً، ولا أحبها كما أحب يزن، لكنّي سأفعل ما تريد وأسافر للعيش معها ومع أبي حسام، لو أردتِ أنتِ ذلك.
- أنا!؟
- نعم أنتِ، لقد قلتُ ليزن أني أحب أبي ومشتاقة جداً لرؤيتهِ وأريد الذهاب معه، فقط كي لا يحزن، أعرف أنّه يحبني جداً، لكنّ بقائي عنده سيجلب له المتاعب، عمتي قالت أنه سيسجن، وأنا لا أريد أن يسجن يزن، لذا إن وعدتني أنك ستحافظين على يزن وتبقين بجانبه، سأقبل أن أسافر.

لا أدري كيف امتلأ وجهي بالدموع وأنا استمع لها، كانت تتكلم بكل جديّة رغم البراءة المنبعثة من وجهها، لكنها أضحكتني حين قالت بآخر حديثها أنّ يزن يحبني.

وعدتها أن أبقى بجانب يزن مهما حصل، وقلت لها بأني سأذهب معهم للكراج حين يسافرون.

أخبرني يزن أنّه سيتصل بأمينة لترتيب لقاء حسام بقمر، وطلب مني أن أكون موجودة حينها، شعرت بحاجته إليّ مثل حاجتي إليه.

حين أدار وجههُ ومشى، رأيت الدمعة تسقط من عينه، لا أعرف ما الذنب الذي اقترفه ليخسر كلّ هذه الخسارات في حياته، ولم أعد أعرف هل سأفي بوعدي لقمر، أم أفي بوعدي لوالد ياسين.

ياسين

الهروب يبدو ممكناً حين تنظرُ حولك فلا تجدُ أحداً، ويصبحُ واجباً حين لا ترى نفسك. قالت العرب قديماً " آخر العلاج الكيّ" يبدو أنهم كانوا أصحاب صبرٍ ممدود، فأحياناً يتوجب عليك الكيّ في البداية، فإن لم ينفع فالقطع. لذا استقربت لنفسي آخر الطُرق وسلكتها، ناسفاً جميع الاحتمالات التي تعارض تفكيري.

احتشد المجانين في رأسي حتى أصبحتُ مستشفى لهم، بتُّ أستيقظ على صرخاتهم وطبولهم في رأسي. أرى الشياطين ترقص حولي وكلٌّ منهم يمدّ لي يد العون.

قررت خيانة وطني؛ فالبادئ أظلم، مضيت في خيانتهِ ونكثت عهدي لهُ، لم أشعر بالذّلِ وقتها، حين ألقيتُ على مسامع السيدة قصتي كاملة، بل شعرت أني أقدّم خدمةً لوطني، ولم أخجل من نفسي وأنا أكتبُ تقريريَ الأول عن المهمة الجديدة التي أوكلها لي الوطن، وقد تفننت في ذلك التقرير كما أرادت السيدة، يبدو أنّي أصبحت كاتبَ تقارير عريق، وأعرف كيف أدخل لعمق تفكير أصحاب الشأن.

لكنّي تفاجأت بعدم ردةٍ رغم أنّ الوطن قد قرأ رسالتي لهُ، لم يعطِ أي تعليماتٍ جديدة، أهملني الوطن، أو ربما يحاول طبخي على نارٍ هادئة.

حين جاءني وائل مودّعاً، شعرت أنّ شيئاً بداخلي يتكسر، نظرت حولي فجأة، لم أجد أحداً، شعرت بآخر أذرعي تُقطع، انتعشت غربتي من جديد بعد أن دفنتها بين مجالس الأصدقاء.

لكنّ الوحدة أحياناً تكون حلّاً، تُعطينا طاقة إضافية للتفكير، تذكّرتُ أشياءً كان من المفترض ألّا أنساها، أحياناً تكون ذاكرة الإنسان كأحجار الدومينو، ما إن يتذكر الإنسان شيئاً حتى تبدأ الذاكرة بإخراج محتواها.

استغبيت نفسي كثيراً، لم أعاتب نفسي حينها، فالله نفسه لا يعاتبنا على خطأ ارتكبناه دون دراية منا، ولكنه يعاتبنا إن فعلناه ثانيةً أو استمرينا في هذا الخطأ.

فكّرتُ بالهروب، أحسست أنّه أصبح ممكناً، لكن إلى أين وكيف بعد أن خسرت كلّ شيء، فكّرت بأشياء كثيرة، لكنها جميعاً كانت تصّب في استمراري بما أنا فيه، لذا استقريت آخر طرق العلاج بعد الكي، القطع.

كنت أنتظر وقتاً مناسباً لأنفض المجانين الذين سكنوا دماغي وباتوا يصرخون فيه، أحاول ترميم نفسي والحفاظ على ما تبقى من فتات روحي. لكن اتصال فرح وسؤالها عن فاطمة، كانت تلك أوّل حجرة دومينو وقعت في ذاكرتي وجرّت ورائها بقية الأحجار.

كيف لم انتبه لحسام وتصرفاته معي، لا أعرف كيف صدّقتُ بأنّه كان مصاباً وفاقداً للذاكرة، وحين استطاب ترك كل شيء وراءه، ومضى بحياة جديدة، رغم أنّه متوغلٌ في جميع المستنقعات السياسية من كلّ الأطياف.

لا أدري كيف صدقتُ كلامهُ وهو يحاول إقناعي بمصاحبة فرح منذ رأيناها أول مرّة في أورفا، وقد قلت له أني أعرفها.

لا أدري كيف بعد ذلك أقنعني بأن أخطبها رغم أنّه كان يحاول إقناعي بالتسلية فقط، ولا أدري كيف استطاع أن يُعيد تفكيري لإسطنبول، بعد أن ظلّ شهراً كاملاً وهو يقنعني بالسكن في أورفا حتى استطاع، وقد استأجرت بيتاً ومكثتُ فيه فترة.

ولا أدري كيف أقنعني بأنّي أحب فرح، رغم أنني لم أكن أحبها منذ أيام الجامعة.

كنتُ مغفّلاً حين فكّرتُ بأنّهم يراقبونني، ويضعون حرّاساً فوق رأسي، وأنا بنفسي كنت أُخبرُ حسام عن أتفه الأشياء في حياتي قبل أحسنها.

لا أدري كيف تمكّن مني غبائي لأرى الوجوه وجهاً واحداً، وأقنعني أني بخير ما دام الوطن بخير.

حسام كان يعلم بجميع تحركاتي ومن لساني أنا، وقد استطاع توظيفي بكل سفالة في أقبح عمل، كنت أرفضهُ شكلاً ومضموناً منذ أيامي في سوريا وهو يعرف ذلك جيداً.

كم كنتُ غبياً حين جمعته مع فاطمة دون أن أسأله لماذا، كان يريد التسلية فقط، هكذا ظننت، رغم أنّه يعرف نصف عاهرات إسطنبول.

لكنّهُ غبيٌ أيضاً، حين يغفل عن أختهِ وهي تبعثرُ جميع أسرارهِ، وغبيٌ أيضاً حين يُرسلُ شخصاً ليدهسني، يكون شريكاً لي في مراقبة من أراد أن يدهسني لأجلها.

فكّرتُ أن أخبر فرح، لكني تراجعت عن ذلك، فما جاءها مني ومن حسام يكفيها، فكّرت أن أخبر يزن، لكنه لن ينفعني بشيء، خاصة أني لا أعرفه ولا يعرفني، ولم تكن قصة قمر تعنيني منذ البداية.

لذا قررت المضي وحدي كما كنتُ وكما وجدت نفسي أخيراً.

اتصلت بأبي كثيراً، لم يكن يردّ على اتصالاتي، سابقاً كان الأمر عادياً أن اتصلتُ ولم يجيب، لكن مؤخراً ما إن يتأخر قليلاً عن الإجابة حتى تبدأ البراكين تغلي في صدري، ويبدأ المجنون يصرخ في مخيلتي، أصبح الأمر مخيفاً بالنسبة لي، رغم أنّ والدي قد بلغ من العمر ما بلغهُ، وباتت فكرة موتهِ واردة بأيّة لحظة نسبةً لِما يحمله من أمراضٍ وهموم، ولكن أيّ شيء قد يصيبه بسببي، تلكَ فكرة باتت تؤرقني كثيراً.

اتصلتُ بتهاني، كان ردّها ثقيلاً جداً، كانت كأنها تكلّم عدواً لها، سألتها عن أبي، لم تجبني، قالت لي: ماذا تريد الآن؟ لدّي عمل أنجزه، وسأرجع لمصرَ قريباً.

- لا شيء منكِ، كنت فقط أسأل عن أبي، لا يردّ على اتصالاتي.
- لا أعلم، لعلهُ ما يزال في المسيرة، ولم ينتبه لاتصالاتك.
- مسيرة! لماذا يخرجُ، أصحتهُ تساعده على المسير؟
- لا عليك من صحة أبي، هو يعرف أين يرمي انتماءه وكيف يحافظ على مبادئه، ليس كالبعض، يخون عند أقرب فرصة.
- ماذا تقصدين؟
- لا شيء، وداعاً، لدي عمل.

لا أدري إن كنتُ المجنون الوحيد في هذا العالم، أم أني العاقل الوحيد. أعرف أنها تقصد مهمتي، لم أفكّر كثيراً حتى تبيّن لي كلّ شيء، وكيف عرفت بالذي حصل، تشكرتها في نفسي كثيراً، فكانت لي دون أن تدري الدليل القاطع على صدق ظنوني وأكدت لي بغبائها أنها تتواصل معهم، وأنّ الأصهب وحسام وراء ما أنا فيه.

حزنت عليها أيضاً، حين راودني شعور أنّها عينٌ من عيونهم في مصر، وإنّ مجيئها لسوريا بغية الاطمئنان عني حين سمعت بأني مسجون، ما هي إلا

تمثيلية سخيفة، لتبرر لزوجها المعارض ذهابها.

يبدو أنّ الوطن يتشعّب في جسد العالم كالسرطان، يراقب كلّ تحركاتهم، وليته يراقب وينهض كما ينهض العالم من حوله.

بعد ساعة اتصل بي أبي، وحين سمعت الأصوات والهتافات، طلبت منه أن يفتح الكاميرا لأرى المسيرة، شيئاً ما بداخلي كان يهتف معهم، والكثير من الأصوات حولي تلعنهم.

حين كنت في سوريا آخر مرّة، رأيت مسيرة كانت قد خرجت لشكرِ روسيا والصين، كما كانوا يهتفون، لم تلفت نظري الأعلام حينها.

هذه المرّة كان الأمر مختلفاً، الكثير من الأعلام يلوّح بها المشاركون، كانت أعلام روسيا والصين وعلم حزب البعث وأعلام الفصائل المشاركة لنصرة سوريا في حربها، أو ربما كما يقولون" الميليشيات المشاركة في سفك الدم السوري" كانت تضحكني هذي الجملة، لكنّي رأيتها الآن أقرب للصواب، بعد أن احتلت أعلامهم سماء سوريا، وتقلّص وجود العلم السوري الأحمر حتى اختفى تقريباً في هذه المسيرة، رأيت أوطاناً كثيرة في وطني، ولم أرَ وطني.

حاولت مع أبي كثيراً أن يترك سوريا ويسافر، أو على الأقل أن يذهب لأيّ مكان بعيدٍ عن دمشق ومركزها، لكنّهُ كان يرفض الموضوع بكلّ أشكالهِ، حتى أني شرحت له كلّ شيء حين عاد للمنزل، كنت أنتظر أيّ كلامٍ ينصحني بهِ، لكنّه بكى، كسرني حين بكى، لا شيء في الدنيا يساوي دمعة أبٍ مكسوراً على ولده، رجوته كثيراً أن يتكلم، أن يطلب أيّ شيء يُرضيه وسأفعلهُ، ابتسم وقال:

- لقد عشتُ حياتي منبوذاً من البعض لأنني ضابط، البعض يكرهني لأنه ضدّ الدولة ومؤسساتها، والبعض يكرهني لأنني لا أفعل كما يفعل الضباط في الدولة ومؤسساتها، أفنيت عمري محاولاً أن أخرج من الدنيا وأنا راضٍ عمّا أفعل، وأن يكون الله راضٍ عني، وربيتكم على هذا، ولو كنتُ كما يريدون، لرأيت الآن قصوري وأموالي، بدلاً من هذا المنزل الذي نسكنه بالآجار منذ سنين.

أنت الآن رجلاً اكتسبت من الدنيا دورساً كثيرة، تعرف الصح وكيف تفعلهُ، وتعرف الخطأ، افعل ما يمليه عليك ضميرك لتخرج من الدنيا وأنت راضٍ عن نفسك، ولا تنظر حولك، فليس الجميع على صواب.
أنا لن أسافر يا ياسين، سأبقى هنا، ولا تخف عليّ، وامض بما أنت فيه.

كانت رسالته واضحة بالنسبة لي، ولكنّ خوفي عليه كان حائلاً بيني وبين أيّ فكرةٍ أحاول تنفيذها.

مضت بعض الأيام دون أيّ تغيير، سوى في وجهي الذي أصبح كعجوزٍ يتعكّز على يومه الأخير.

حتى فرح، بات كلامي معها مختصراً برسالةٍ للاطمئنان كلّ فترة، وكانت هذه الفترة تطول مع الزمن.

علاقتي أصبحت قوية مع السيدة وابنتها، وبتُّ شبهَ صديقٍ لهم، دون فعل شيء.

كنت أتوقع في بداية الأمر أن تفضح أمري، أو أنّها تحاول إبعادي عن مضمار حياتها، ولكنّ هذا لم يحصل، بل بالعكس كانت تدعوني لجميع الندوات التي تقيمها الجمعيات والمنظمات المعنية بالشأن السوري، حتّى إنّها أرسلتني لأحد أصدقائها في سوق الفاتح للعمل لديه، كانت قاسية جداً معي حين عرّفتني على صاحب العمل وقالت له، هذا ياسين، من الشباب الثوريين، شعرتُ بها تضربني بهذه الكلمة رغم أنّ انتمائي للنظام الحالي قد جفّ بالفترة الأخيرة.

كنت أراقب الأصهب كما يراقبني، باتت أوراقنا مكشوفةً نوعاً ما، ولكني التزمت السكوت كما التزمه هو، وما زال الوطن يستقبل تقاريري الأسبوعية،

وبات في الفترات الأخيرة يردّ على تقاريري بطلب بعض الأسماء والصور، كنتُ أُخبر السيدة بجميع ما يطلبون، واضطررت في بعض الأحيان أن أخون عهدي لها

وأتصرف دون الرجوع إليها، وكانت أحياناً تغيب لأيامٍ وأسابيع مع حلول الصيف، مما يعطيني وقتاً أكثر للتفكير، حتى مات أبي.

استيقظت صباحاً على اتصالٍ شلّ أوصالي، "أبوك مات" هذه الجملة القصيرة كفيلة بقتل الحياة بقلب أيّ أحد، كلمتان تقصم ظهرك ولو كنت جبلاً من صمود، "مات أبوك" كافية لقتل كلّ شيء جميل في الدنيا، ويبدو أنّها الحل الوحيد لقتل ياسين المُخبر.

لم يعد يهمني شيء، لم أعد أخشى فراق أحد، الفراق الحقيقي أن تتذكر محاسن أحدّهم ولا تجد منها شيئاً، الفراق أن تنسى كيف كنت تحبهم.

التقيت بالأصهب بعد محاضرةٍ في إحدى المنظمات، كان أيلول قد شارف على الانتهاء، والنسمات الخريفية تطفئ فينا لهيب آب، اقترحت عليه أن نجتمع بقهوة تركيّة من الطراز التراثي، والتي لم يكن فيها سوى الكِبار بالعمر من الأتراك.

كنت قد جهّزت برنامجاً لتسجل الحديث منذ زمن، وها قد جاءت لحظة تشغيله.

أخرجت هاتفي ومحفظتي وعلبة سجائري ووضعتهم أمامي على الطاولة كعادتي وبدأت الحديث معه.

- كيف حالك سيد جمال؟ أعتقد أنّ هذه الجلسة قد حان وقتها.
- يُعجبني تفكيرك، تتروى كثيراً في أخذ القرارات، وتعرف جيداً متى تفرد أوراقك.
- أنا ابن الوطن، وقد تعلّمت من جامعته السياسة وتدبير شؤونها، ولا أعتقد أنّ هذا الأمرَ خفيٌ عنكم، وإلا لَما اخترتموني لمهمة كهذه.
- ماذا تريد الآن؟ ولماذا كنتَ مصرّاً على اللقاء؟

- لا شيء يا سيد جمال، أريد منك فقط بعض التعليمات، فالذي أراسلهُ وأرسل لهُ تقاريري، لم يعد يُعطيني أيّ تعليمات، ولم أعد أعرف ماذا أفعل.
- الليلة سأخبرك، أعتقد أن رحيلك عن اسطنبول قد بات قريباً، وأنّ مهمتك باتت في آخر أنفاسها.
- والسيدة وابنتها من سيراقبهما؟
- لا عليك بهم، لقد انتهينا منهم، ولم يعد هناك فائدة من مراقبتهم.

كان شيطاناً يجلس أمامي، يتحدث وكأنّه يملك قراراتهم. لا أنكر أنّي كنت خائفاً أثناء عودتي، كنتُ أشعر برصاصة تخترق رأسي مع كلّ خطوة أمشيها، أو أني سأدهس تحت عجلات شاحنة مسرعة، تجعل من رأسي قطعة لحمٍ مرمية.

وحين عدتُ للمنزل بجسدي كاملاً ودون أيّةِ رصاصة برأسي، خُيّل لي أنهم وضعوا في غرفتي شيئاً ما، لأُكمل بقية عمري بالسجن، قمت بتفتيش الغرفة بكلّ أركانها، لم يسلم مني حتى ثقب مسمار في الحائط، وحين شعرت ببعض الأمان، جهّزت رسالة لأرسلها للسيدة في الصباح مع التسجيل الكامل.

ذلك اليوم استيقظت أحملُ أملاً جديداً بالحياة، مفعماً بالتفاؤل، حتى أني ذهبتُ للعمل وأنا أستمع للأغاني كعادتي القديمة قبل أن يتدخل الوطن في حياتي.

وصلت المتجر الذي أعمل به، كان مغلقاً، اتصلت بصاحب العمل مستفسراً، فقال لي: ألم تسمع بالخبر؟ قلت لا، أيّ خبر؟ فأرسل لي رابطاً إخبارياً.

كانت جميع القنوات والمواقع الإخبارية وشبكات التواصل في ذلك اليوم، لا تتحدث إلا عن خبر اغتيال السيدة وابنتها، حين وجدوهم مقتولتين في شقتهما.

حين بدأت الثورة، لم أكن مع الشعب، وكنت قلباً وقالباً مع النظام الحاكم، وحين سألوني لمَ لا تتطوع بالجيش وتصبح أحد أبناءه العسكريين، كنت أقول لهم أني أكره الحياة العسكرية، ولكني كنتُ كاذباً، في الحقيقةِ كنتُ خائفاً أن تتلطخ يداي بقتل أيّ شخصٍ مهما كان انتمائه السياسي.

القتل جريمة بشعة مهما كانت دوافعها، ومهما تعددت أسبابها تبقى بشعة. كنتُ خائفاً أن أنام قاتلاً في يومٍ ما، وقد صرتُ اليوم قاتلاً.

لم أعد ياسين المُخبر، قد انقشع عني هذا الاسم أخيراً، وليتهُ بقيَ ولم يُستبدل بالقاتل، فالقاتل من خطط وأشار وراقب، ليس من قتل فقط، ومن المؤكد أنّهم سيبدلون اسمي بعد أيامٍ لأصبح المقتول.

لذا قررت كتابة كلّ شيء وإرساله لفرح مع الصور والتسجيلات، لنشره في المُدونة التي أصبحت فرح أحد الكاتبين فيها.

رأيت أنّهُ الحلّ الأنسب، فأنا ميتٌ بأيّةِ لحظة، ولا أعلم إن كانوا سيعطونني وقتاً لتجهيز الملف وإرساله أم لا.

صوّرت نفسي أيضاً وأنا أحكي قصتي كاملةً، لأرفقها بالملف حتّى تتمكن فرح من إيصال الحقيقة كاملةً.

اتصلت بها قبل أن أرسل لها الملف بعد أن جهزتهُ كاملاً، لكنها لم ترد، ولم أكن أتمنى أن تجيب على اتصالي، صوتها سيضعفني، وأنا أريد أن أبقى قوياً.

أرسلتُ الملف لفرح، مع رسالة طويلة شرحت فيها كلّ شيء، ثم أخذتُ بعض أشيائي، أغلقت هاتفي، وذهبت للبحر.

يزن

الأمر يشبه اللحظات الأخيرة قبل الانتحار، لحظة إدراكك التّام بما سيحدث، ورغم ذلك تكمل ما بدأتْ به. كان يشبه أن تتكسر ضلوعك وأنت حي. أو أن تُنهي بيدكَ كلّ شيء فجأة، شغفك بالحياة، أحلامك التي كنت تعيش لأجلها، مستقبلك الذي نقشتَ خطوطهُ واخترت ألونه. لتبقى تصارع ماضيك، فيشطبك مرّةً وتشطبه مرّة.

الإدراك التام مصيبة كهدم الإدراك، وأنا كنت على درايةٍ تامةٍ بما سيحدث، ولكن رُبّطت يداي ولم أعِ ما أنا فيه إلّا بعد فوات الآن.

أذكرها حين تستيقظ قبلي كعادتها، تفتح النوافذ وتأتي بكوب الشاي القديم البارد مع علبة سجائري، ثم تيقظني.

وأذكر حين أمشط لها شعرها وأصنع لها جدائل صغيرة بمطاطٍ زهريٍ يحمل وردة زرقاء، ثم تغضب لأننا تأخرنا، وستضطر للركض حتى تصل في موعد الاصطفاف لدخول الصفوف.

لكنّها اليوم لم توقظني، لم تُفتح النوافذ، حتى أنّي لم أشرب الشايَ البارحة، ولا أعرف إن كانت ستضطر للركض بعد اليوم أم لا.

لم يبق لي منها سوى بعض ألعابها المتناثرة في غرفتها، والريحانة الكبيرة التي لم تلمسها حتّى، بقيتُ وحيداً كهذه الريحانة المتروكة فوق حرفِ النافذة، كريحانة أمي التي استشهدت بجانب الأريكة، وبقيت أنا، لم استشهد مع ريحانة أمي، ولم أرحل حين رحلت قمر.

مضت ستةُ شهور على سفرها، لم يمضِ يوماً دون أن أتحدث معها، ودون أن أبكي بعد انتهاء المكالمة. وفي كلّ مرّة نتكلم فيها، أسألها كيف صعدت الطائرة، كي أسمع ضحكتها وهي تروي لي كيف كانت خائفة وكيف وصلت ولم تشعر بإقلاع الطائرة.

كنت أتصل لأسمع ضحكتها فقط، وأنا واثق أنها ترسم الضحكة عنوة على صوتها، لكنّي أعرف قمر، لن تشكو لي شيئاً مما حاولت سؤالها عن وضعها الجديد، وستؤكد لي في كلِّ مرّةٍ إنها بأفضل حال.

بعد أن خرجت أمينة وفرح من منزلي آخر مرّة، جاءتني قمر وجلست بجانبي، قالت لي: أريد الذهاب مع أبي، بابا حسام.

كانت تمسح دموعها وهي تتكلم، ثم قالت: لا أريدك أن تسجن بسببي، لم أفهم كثيراً كلامكم، ولكنّي سمعتهم يقولون إنّك ستسجن إن لم أذهب معهم.

حاولت التفكير جاهداً بأيّ حلٍّ ممكن، لكن دون جدوى، حتى حين اتصلتُ بياسر وحنين لأخبرهم بما حصل، قالوا بأنّهم يعرفون كلّ شيء، وبأنّ أمينة اتصلت بهم فور خروجها من عندي، هم أيضاً كانوا ينصحونني بترك قمر تسافر مع أبيها، وأنا لا أملك أيّةَ حجةٍ أو دليل أدافع بهِ عن نفسي.

في الصباح جاءتني أمينة وكان خلفها حسام، قمر كانت تقف بعيداً عنّا، رأيت الشوق في عيون حسام لها، كان يبكي وهو يحتضنها، يقبلها ويشمها، ويسألها إنّ كانت تتذكره، ثم يصرخ "أنا والدكِ"، كان أثناء جلوسنا يُذكّرها بأغانٍ كان يغنيها لها وهي صغيرة، وكان يحكي لها عن ألعاب كانوا يلعبونها. أمينة كانت تتكلم معي أثناء ذلك، لكنّي لم أكن أفهم منها شيئاً، كنتُ منشغلاً بالنظر لقمر لأطول مدّة ممكنة.

استدار حسام لي وبدأ يشكرني على كلّ شيء فعلته لقمر، أكّدّ لي مراراً أثناء جلسته بأنّهُ كان فاقداً للذاكرة ومصاب، وحين سمع من الجماعة التي تشرف على البوابة الحدودية

أنّ سارة استشهدت، دخل لتركيا وحاول البحث عني كثيراً حتى وجدني أخيراً، ثم أكّد لي أنّ قمر ستبقى ابنتي كما هي ابنتهُ، ويمكنني الحديث معها متى أشاء.

ثم أخرج شهادة ميلادها ودفتر العائلة وجواز سفرٍ لها، اقترب وبدأ يتحدث بصوت منخفض، قال بأنّه زوّر لها جواز سفرٍ وقد تمّ ختمهُ في مصر على إنها دخلت مع عمتها حين دخلت، وقد تمّ ختمهُ بأنّها خرجت مع عمتها، وقد ختمه أيضاً في تركيا على إنّها دخلت مع عمتها، وستسافر بنفس جواز السفر، ولا يوجد أيّ مشاكل، مؤكداً لي أنّ أصدقائه كثيرون وبأنّهم ساعدوه كثيراً في مصر وتركيا.

حاولت كثيراً أن أبقي قمر عندي رغم أسلوبه التهديدي وهو يتغنى بأصدقائه الكثر، لكنّي كنت أحاول أن أجد القشة التي ستسعفني من الغرق، أو تقصم ظهر البعير الذي طرحته الأيام فجأة أمامي، لكنّي لم أجد أيّ شيئاً يسعفني، وافقتُ على جميع ما يقول، ثم أحضرت له أوراقاً رسمية، وشهادة وفاة سارة، ودفتر العائلة الأصلي، وأوراقاً كانت سارة قد تركتها عندي أمانة، مع مبلغٍ مالي والذهب الذي كانت ترتديه سارة، كنت ما أزال أحتفظ بهِ لقمر حين تكبر،

وبقيت قمر عندي حتى حان موعد السفر.

اتجهت معهم إلى مطار أورفا، كانوا متجهين لإسطنبول من ثم سيتّجهون للقاهرة، وقد أرسلت لي أمينة عدة صور حين وصولهم لإسطنبول وحين وصولهم للقاهرة، شعرت أنّها تريد أن أتأكّد بأنهم سافروا لمصر ولم يبقوا في تركيا.

كانت روحي تتقلص مع كلّ خطوة تخطيها قمر، حتى اجتمعت كغصّة في حلقي حتى يومي هذا، كنت أشعر بشيء يُنزع من جسدي، كأنّ روحي تنسلخ مني حين رأيت قمر تغادر قاعة المسافرين لآخر مرّة.

لم أكن قوياً لحظة وداعها، رغم أنّي هيأتُ نفسي كثيراً لهذه اللحظة، حبال الصبر التي كنتُ أشدّ نفسي بها، شنقتني حين رأيت دمعتها تسقط من عينها.

تمنيت أن أصرخ كالمجنون في قاعة المطار وأمنعهم من السفر، لكنّي لم أقدر، لم يكن عندي القوة حتى للصراخ، كنت أبكي بصمت يذبح صوتي، ولم تكن سوى الآه قادرةً على الخروج من حلقي.

عدتُ وحيداً للمنزل، كانت كتلكَ اللحظة التي دخلت فيها منزل عائلتي المدمّر، كنت أشمّ رائحة قمر في المنزل كما شممت رائحة أمي بين الأحجار المتناثرة، وكنت أشعر بلمساتها كما شعرت بلمسات يد أبي حين رأيت أخشاب مكتبته المكسّرة بين أحجار غرفته.

كم مرّةً ذبحتك الحرب يا قلبي، وكم مرّة ستُذبح أيضاً، كلّ شيء كنت أخطط له مع قمر، انتهى بطرفة عين، وكلّ أملٍ كنت أصبّر نفسي لأجله، فقدتهُ فجأة، أصبحت الآن لا شيء بلا شيء أعيش لأجله.

في الأسبوع الأول، لم أخرج من المنزل أبداً، فقدت وظيفتي، حين لم أذهب للعمل، حتّى أني لم أكن أجيب على أيّةِ اتصالات، فقط حين اتصلت بي قمر حال وصولها المنزل في القاهرة، وكنت أنتظر اتصالها كلّ يوم قبل أن تنام.

فرح كانت تتصل بي دائماً، ولم أكن أجيب على اتصالاتها، حتى ياسر وحنين،

حتى مثنى ومدير المنظمة، لم أكن أجيب على أيّةِ اتصالات، حتى جاءتني فرح وبدأت تضرب الباب بجنون، كانت تصرخ بأنّ لا ذنب لها، وتطلب أن أسامحها لأنّها ساعدت أمينة.

فتحت لها الباب لتدخل دون أيّ كلام، وتركتها تتحدث بما تريد، حتى سكتت.

وحدها من استطاعت أن تُخرجني مما أنا فيه، رغم أنّي كنت حاقداً عليها، لكنّي لم استطع أن أغضب منها.

لم تتركني ليلتها حتى أخرجتني معها لشوارع المدينة، مشينا كثيراً تحت الأضواء وفي خبايا الظلام، بكت كثيراً وهي تقصُّ لي ما حصل معها بالتفصيل منذ أوّل اتصالٍ جاءها يوم خُطِفَ أخيها، سردت لي تفاصيل جلستها مع أمينة، وكيف كانت أمها وراء كلّ ذلك. كانت أموراً تتضح لي لأوّل مرّة، رغم اختلاف الكلام بين سارة وأمينة، ولكن لم يعد ينفع الكلام.

فرح لم تكن مذنبة، كانت ضحيةً مثلي، هي ضحية أمها قبل أن تكون ضحية أمينة، وأنا ضحية الحرب التي أخذت مني كلّ شيء.

أقنعتني فرح بالعودة لمنزلي القديم، أو أني أسكن بيتاً قريباً من المدينة، وأن أعود للعمل في المنظمة وسماع الناس، فكما قالت، لن أنسَ همّي إلا بمخالطة الناس، وحدتي لن تنفعني الآن، ولن أخرج ممّا أنا فيه إلا إذا خرجت، الهروب مهما كان حلاً ناجحاً، تبقى المواجهة أفضل.

عادت حياتي تتأقلم قليلاً، وجدتُ عملاً في إحدى المدارس الخاصة، وعدتُ للتعليم وللطلاب، وعدتُ للمنظمة ولهموم الناس وأوجاعهم.

كان ياسر ما يزال يعمل جاهداً على تثبيت المدونة التي أنشأها، حتى أنّه عمَلَ على توسيع أبوابها، وخصص باباً لقصص الناس وأوجاعهم، كانت تنتظرني لتدوين الهموم والأوجاع التي سمعتها منذ عامين، منذ دخولي المنظمة.

حتى فرح انضمت لنا، بعد أن رأت النجاح الذي حققته المدونة، رغم أنّ اسم المدونة لم يعجبها في بادئ الأمر، إلا أنها حين رأت الهدف منها والأمور التي نعمل على توثيقها، اقتنعت تماما لماذا أسميناها عرب ٢٠١١.

في الفترة الأخيرة، أكثرت حنين الحديث معي من أجل الزواج، حتى أنّها كانت تعرض عليّ صوراً لفتيات مقيمات في تركيا، تحاول إقناعي بإحداهن.

لم أكن أخطط للزواج، حتى أنّ الحب لم يخطر ببالي لحظة، نسيتهُ تماماً كما نسيَني، يبدو أنّي كنتُ أنتظر شيئاً ما لا أعرفه، أو أبحثُ عن شيء لا أعرفه.

في إحدى الليالي جاءتني فرح، طلبت مني أن أخرج معها للحديث بأمرٍ ما، كانت سعيدة يومها، رأيت ذلك في عيونها، شعرت بها تريد أن ترقص أو تغني، سألتها ما الأمر، قالت لي: غيّر ثيابك والحق بي، سأخبرك حين نجلس في مكانٍ ما.

لم أتأخر عليها كثيراً، لكنّي حين خرجتُ ورأيتُها، كانت تبكي، تحمل هاتفها وتحاول الاتصال بأحدهم، ما إن رأتني، حتى طلبت مني العودة للمنزل مباشرة.

سألتها كثيراً عن الأمر فلم تجب، حين دخلنا قالت إنّ ياسين أرسل لها ملفاً إلكترونياً، يحمل مقطعاً مصوراً لهُ و صوراً ومقاطع تسجيل ومحادثاتٍ كثيرة. ورسالة ثانية يطلب فيها أن تسامحهُ وأن تنشر جميع ما في الملف في المدونة مساء الغد إن لم تتلقَ اتصالاً منه.

اتصلتُ بياسين كثيراً، كان هاتفه مغلقاً، اتصلتُ بصديقٍ يسكن معهُ تعرفه فرح، قال بأنّ ياسين خرج منذ العصر ولم يعد حتّى الآن، طلبتُ منه أن يدخل غرفته ويرى إن كان شيئاً غريباً في الغرفة.

قال إنّ الفوضى تعمُّ الغرفة، وبعض أغراضه متناثرة في زواياها، وعلى الطاولة ورقة مكتوباً عليها "سامحوني، سأذهب للمكان الأفضل".

أكّدّ لنا صديقهُ بأنّه لا يعرف شيئاً عن الأمر، وقد قرر إبلاغ الشَرِطة كي يخلي مسؤوليتهُ إن حصل مكروه.

مضت عدّة أيام ولم يظهر ياسين، رغم أنّ قصتهُ ومقطعهُ المصور والصور التي أرسلها لنا، ملات المواقع جميعها، وشاشات القنوات الإخبارية.

كلّما فتحتُ المدونة كنتُ أقرأ قصته، كانت تلخّص الوجع الذي نحن فيه.

كنتُ أظنّ أني الأسوأ حظاً والأكثر تضرراً من الوطن وبطشه، تبين لي أنّ

الوطن لا يفرق بين عدّوٍ وصديق، لا يفرق بين أحبّائه وكارهيه، ولا يفرق بين مؤيد ومعارض، ولا بين ذليلٍ في سجونهِ أو عزيزاً خارج أسواره، تبين لي أنّ الوطن يطحن الجميع ويقتل الجميع شرطاً أن نكون أحد أبنائه.

لم أكن مقتنعاً بقول نجيب محفوظ حين قال " الوطن ليس المكان الذي ولدتَ فيه، الوطن هو المكان الذي تنتهي فيه كلّ محاولات الهروب"، كنتُ مخطئاً حقاً، أعترف لك يا وطني أنّي أخطأت حين ظننتك وطني، وأعترف أنّي أخطأت حين بالغت في حبك حتى وصل الأمر أنّ شككت يوماً في الثورة، كم كنت غبياً يا وطني، كنت أحمقاً حين شعرت يوماً بانتمائي إليك، فالوطن حقاً من تحيا كريماً فوق ترابه، وأنا لم أذق طعم الكرامة بين أسوارك يوماً يا وطني.

فرح

أحيانا يفرض علينا الواقع أن نتحلى بالغباء مع الصبر، لأنّ الصبر وحده لا ينفع دائماً، والذكاء والإدراك يؤدي لنتائج لربما تذبحنا إن لم نكن مستعدين للمواجهة، لذا نتغابى أحياناً، نعيش وكأننا لم نفهم الأمر ولم يكن يعنينا، حتى نصل لدرجة الانسلاخ التّام عن الواقع، وأحياناً نصل لدرجة الانفصام، فوجهنا يوحي بأنّ الأمر لا يعني لنا شيئاً، ولم يؤثّر علينا، ولكن روحنا تُهشُ وتذبح بصمتٍ نحن اخترناه، وهذا ما حصل معي في بداية الثورة.

البعض فضّل التغابي وكأنّ الأمر لا يعنيه، وأطلقوا على أنفسهم لقب الحياديين، حتى وجدوا أنفسهم في طريقٍ ينتهي بثلاثة فروع، إمّا أن يُقتل، أو يهرب، أو ينضمّ للقطيع ويفقد كرامتك وإنسانيتك.

ولأنّ الوقت تأخر، قُطِع عليهم طريق الهروب ولم يبقَ لهم سوى الموت أو الخنوع.

والبعض فضّل الهروب المبكر، ليجد نفسه بين مطرقة الغربة وسندان الشوق. أما من شعر منهم بأنّ الأمر يعنيه ولم ينحني للظروف التي فرضها عليهِ الواقع، فلا خوف عليهم الآن ولا هم يحزنون، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.

وفي بعض الأحيان أيضاً، يفرض علينا الواقع أموراً لا نقبلها، ولكن لا خيار لنا، أقدارنا تأتي هكذا ولا نستطيع تغيّيرها.

والأبشع من كلّ هذا، حين يُؤخذ كلّ شيء منا فجأة، بعد أن باتت أطراف الابتسامة تُرسم فوق وجوهنا.

هكذا رأيت يزن حين ودّع قمر، كالذي أُخذ منهُ كلّ شيء، رأيتهُ ككومة الثلج تبدو باردة قاسية، ولكن حين تلمسها ستراها هشّة كأنها فقاعة ماء.

كان صامتاً طوال الطريق، وفي الصالة حيث انتظرنا موعد الطائرة، لم يُحدّث أحداً فينا رغم محاولاتنا التكلم معهُ، إلّا قمر، كانت الوحيدة التي يجيبها حين تسأله، ويُصغي لها بكل حواسهِ حين تتكلم، كان يعلم تماماً أنّ هذه اللحظة قادمة يوماً ما، ومع كلّ هذا لم يهرب أو يستغبي، بل اختار أن يمضي ويواجه.

أما ياسين، فقد اختار الخنوع والمضي كما يريد الواقع، لم يقل -لا- منذ البداية، بل كان يحاول التعايش وكأنّ الأمر لا يخصه بشيء، رغم إنّها لم تكن تساوي حياته ذلك الوقت، إلّا أنّ ال – لا - في الوقت الحالي، تساوي حياتهُ وحياة كلُّ شخص حولهُ.

أمّا أنا، فلم يكن لديّ أيّ خياراتٍ ثانية، كان يجب عليّ أن أصمت منذ البداية للحفاظ على أخي، حتى اكتشفت أخيراً أنّ بسكوتي لم أكن أحافظ إلا على سمعة أمي الفدائية بين المؤيدين، نعم فدائية؛ فأين الأم التي تضحي بحياة ابنتها لتخدم شخصاً لا تعرفه؟.

وأحياناً أخرى، يكون الواقع قد فرض علينا أموراً، فنتغابى أو نتعايش لأننا لا نستطيع المواجهة، ثم ننتظر الفرصة المناسبة لكي ننقلب على الواقع، ونصرخ بكلّ أرواحنا، رافضين ما نحن فيه معلنين العصيان بعد أن نخلع وجه التغابي الذي لبسناه مدّة.

رأيت ذلك حين توفي والد ياسين، لم تكن وفاته صدمةً على من يعرفهُ، كنت أتصل بياسين كلّ يوم حين سمعت أنّ والده دخل المستشفى بعد أن أصابه احتشاء قلبي.

فكّر أن يسافر إلى دمشق لرؤية أبيه، لكنّه كان متأكداً بأنّه لن يعود، وحين سألتهُ عن سبب عدم سفره، قال بأنّ زوجة أبيه أوصته بالبقاء وعدم المجيئ كما أراد أبوه، يبدو أنّ والد ياسين كان يعرف شيئاً لا يعرفه ياسين.

اتصلت بياسين حين سمعت خبر وفاة والده، كنت كلّما سألته عن أمرٍ يقول: الحمدلله على كلّ حال، كان وراء صوته كلاماً كثيراً لا يريد البوح بهِ.

حين مضى الأسبوع الأول واتصلت به عبر السكايب، لم يقل لي ما ينوي فعلهُ، اكتفى فقط بقولهِ أنّ المُخبر الذي صنعهُ الوطن قد مات مع موت أبي، لم يعد عندي ما أخسره، أو أخاف عليه.

لم آخذ كلامهُ على محمل الجد، رغم أنّي شعرتُ به أقوى من جميع المرّات السابقة، كان يتذمر دائماً من وضعه الحالي، ويحاول في كلّ مرّةٍ أن يبرهن لي أنّه أفضل من السابق، لا أدري هكذا كنت أشعر من تصرفاته معي، لم أكن وقتها على استعدادٍ أن أُعيدَ التجربة معهُ.

تلك الأيام، كنت منشغلة بين عملي صباحاً، والبحث وتصفح المواضيع المنشورة في المدونة مساءً، بعد أن شرح لي يزن التقدم الكبير الذي حققته المدونة، واختلاف المواضيع التي يتمّ نشرها، طلب مني أن أساعدهم فيها وأكون أحد المسؤولين عن المقالات التي تنشر.

أحد الأيام أوقفني شابٌ يعمل معي بالمستشفى، وطلب الخروج معي للتحدث، كنت أعرفه منذ شهرين فقط، لكن سبب طلبهِ كان واضحاً، كنت أراه ينظر إليّ كثيراً ويحاول بين الفترة والأخرى الحديث معي، وقد وصلني من إحدى العاملات أنّه سأل عني كثيراً.

لم أكن أفكر بالارتباط أبداً، لكنّ اقترابي من الثلاثين كان يُشعرني بالخوف أن أُكمل حياتي وحيدةً، ولم يعد ياسين يِشغل أيَّ مكانٍ في قلبي.

أحببت ياسين يوماً ما، لكني لم أشعر معه بالأمان لو للحظة، ولم أفكر يوماً بيزن إلا كصديق، ولم آخذ كلام قمر على محمل الجد، لذا تقبلت فكرة التفكير به، وإعطائه الفرصة الكافية لإثبات نفسه كما طلب مني حين خرجنا سوية.

لم يكن سيئاً، أعجبني جداً أسلوبه اللطيف بتقديم نفسه، واحترامه الشديد لجميع خصوصياتي حين قلت له أني كنت مخطوبة من قبل، لم يطلب مني أيّ توضيح عن الماضي الذي عشتهُ، اكتفى فقط بالحديث عن نفسه والحاضر، مؤكداً أنّ الأيام لن تخذلهُ وإنها ستكون كافية لتكويننا كزوجين جيدين.

شعرت بالأمان تجاههُ، شعرت بأننا مناسبين لنكون زوجين متفاهمين، قلت لهُ إنَ عندي أخٌ هنا وأريدك أن تخطبني منهُ، لم يتكلم، كان ينتظر توضيحاً أكثر مني، فهو يعرف تماماً أنّ ما تبقى من عائلتي هم في حلب، وأنا أعيش بمفردي هنا. أخبرته عن يزن، أخبرتهُ عن قصتهِ كاملةً، قلت لهُ أنَ شَرطيَ الوحيد للزواج، هو أن تطلبني من يزن، وتنظر إليه كأخٍ لي، لم يُعارض كلامي ولكنّهُ طلب فترةً قليلة لترتيب بعض أموره المادية وتجهيز البيت الذي استأجره بأثاثٍ جديد.

كانت أيام صيف أورفا تمرُّ جافة، لكنّه كان يكسر جفافها بهمساته الجميلة، وكلماته الغزلية بين الحين والحين، حتى انتهى أخيراً من جميع التزاماته، وطلب مني أن أعرّفه على يزن ليطلبني منه.

اتصلت بيزن مساءً وذهبت إليه، لم أخبره سابقاً بأمر الشاب المتقدم لخطبتي، وكنت أنوي إخباره حين نلتقي، لكنّ رسالة ياسين حالت بيني وبين إخباره بالأمر. كانت ملفاً فيه صوراً لحادثاتٍ قديمة، وصوراً لجمال وأخرى للسيدة وابنتها، وتسجيلاتٍ كثيرة، ومقطعاً مصوراً له وهو يتحدث، ورسالة لي.

كتب في رسالتهُ لي:

- مرحباً فرح، الآن فقط سأبتسم دون الخوف بأن يقطعوا شفاهي، سأحكي دون أن أخاف على لساني، وسأصرخ ليسمعني الجميع.

اليوم هو الأفضل بالنسبة لي، لقد تخلّصت من ياسين الجبان، واستبدلتهُ بآخر جديد قادر على المواجهة.

لكنّي تأخرتُ جداً يا فرح، لم أستطع ترك عادتي هذه، خسرتك بسبب تأخري واليوم خسرت الكثير يا فرح، لقد ماتت السيدة وابنتها، قتلوها ولا أعرف متى سيأتي دوري.

في هذا الملف، ستجدين كلّ شيء يلزمك، وستعرفين كيف تخبرين العالم كلهُ بما حدث. أضع الآن هذه الأمانة بين يديكِ، فأنت أسرع مني، وأخاف أن أتأخر كعادتي حين أودّ نشرها.

لا أطلب منكِ شيئاً، أريد فقط أن يعرف العالم كيف يموت الياسمين.

غداً ظهراً عند الساعة الواحدة تماماً، سيكون آخر موعدٍ بيني وبينكِ، إن لم أتصل بكِ، أرجوكِ، لا تخفِ هذا الملف عن العالم.

أعلم أنّ الأيام قررت عنا الكثير من الأمور، وأعرف أيضاً أنّ كلامي الآن لن يأتي بأيّةِ نتيجة، بل سيكون وابلاً من سهام تخترق مشاعركِ، لكني أحبك يا فرح، منذ أكثر من عام وأنا أبحث عن شيء ينقصني، لم أكن أعلم ما هو، اكتشفت مؤخراً أنك ما ينقصني، ليتني تمسكتُ بكِ، ليت الزمان يعود لعام واحد فقط لأقول لكِ أنّ وجهكِ جاء بلحظة خوف كفكرة مبتكرة ليعيد تشكيل الأمان في داخلي، ليتني يا فرح أستطيع أن أحبكِ من جديد.

لم أنم ليلتها، قضيت الليل كلهُ أبحث عن أيّ شيء يدلني على ياسين، اتصلت بهِ كثيراً لكنّ هاتفه كان مغلقاً.

في الصباح اتصل بي يزن، قال: فجراً اتصل بي ياسين، كان الرقم غريباً، غير الذي أعرفهُ، حاولتُ معهُ كثيراً أن يخبرني أين هو وما ينوي القيام به، لكنّه لم يقل.

- ارسل لي رقمه فوراً، لماذا لم تخبرني حين اتصل بك؟
- لم يحكِ لي شيئاً، فقط أكّد لي أنّ الملف وما فيه صحيح ولم يزد أو يُنقص حرفاً، سأرسل لكِ الرقم لكنّه مغلق.
- هل قال شيئاً وتخفيه عني؟ أرجوك، هل قال إنّهُ سينتحر مثلاً؟
- لا.. لا.. إلى أين ذهب عقلك، أعتقد أنّه سيسافر فقط، صدقيني لم أخفِ عنك شيئاً، تحدثنا قليلاً عن الملف، ثم أوصاني بكِ وأغلق الهاتف، حتى أنه لم يدع لي مجالاً للتحدث.

مضت ساعات الصباح وكأنّي أتقلب فوق جمرٍ ملتهب، لم يظهر ياسين، جميع محاولاتي للبحث عنه لم تأتِ بأيّةِ نتيجة، حتى وائل اتصلتُ به وأخبرته بالأمر لعله يبحث معي، فهو يعرف أصدقاء ياسين أكثر مني، لكنهم جميعاً أكدوا أنّهم لا يعرفون شيئاً عنهُ منذ زمن.

اتصل بي يزن في الساعة الواحدة ظهراً ليخبرني أنّ ياسر قد جهّز الملف والصور والتسجيلات، وينتظر مني خبراً لينشره، لم يكن الأمر سهلاً عليّ، نشرُ الملف يعني موت ياسين، لن يتركوه مهما طالت المسافة بينهم، لكنّي لم استطع إلّا أن ألبي رغبتهُ.

اختفى ياسين، رغم أنّ اسمه بقي حاضراً لأسابيع في أغلب المواقع الإخبارية ومتداولاً بين ألسنة الناس بين مؤيدٍ لِما قام به ومعارض.

اختفى كاختفاء الكثير من شباب الوطن، انتظرتهُ كثيراً، لم يمضِ يوماً دون البحث عنهُ مراراً لكن دون جدوى، جاء الشتاء ولم يأتِ ياسين.

لربما يوماً سيأتي على ظهر غيمة، مع جميع الغائبين، أو لربما سنلتقي يوماً في بلد الياسمين.

تنويه:

جميع الأحداث التي وردت في عرب ٢٠١١، تعود لأشخاصٍ حقيقيين، مع مراعاة السياق الدرامي لكلّ شخصية، وتغيير بعض الأسماء.

المُخبر جمال شخصية خيالية، رغم وجود الكثير منها في حياتنا. وكذلك ياسين فهي شخصية خيالية رغم إنها الأكثر واقعية.

رحم الله روح الشهيدة عروبة بركات وابنتها حلا بركات.

انتهت

1/آذار/٢٠٢٣

لم تنتهِ الحكاية، غداً سطير العصافير...

عرب ٢٠١١

مصطفى المفتي

عرب 2011

مصطفى المفتي

من الرواية:

حين كنتُ في الثانوية، كنّا نخرج نصرة لفلسطين، كنّا نسمع صرخات القاطنين في القدس مثلما نسمع نحيب المشردين خارج فلسطين، ونبكي مع من يبكي في غزة، كما نبكي اللاجئين في المخيمات المنتشرة في الجوار.
نحن كنّا سوريين بما يكفي لنكون مثلهم، لم نكن نعلم أننا كنّا نتدرب على البكاء الطويل، ولكن، لم يبكِ معنا أحد.
القاطنون في دمشق ومناطق النظام، ما زال اسمهم سوريين، أمّا سكان الداخل السوري المجزأ بين شمالٍ محرر وشرق محتل، وما يحيط بسوريا والجوار العربي، أصبح اسمهم لاجئين، والبقية في الدائرة الأبعد، أصبح اسمهم عرباً مهجّرين، الفرق بيننا وبين من سبقنا، أنّ من بقي منهم في الأراضي المحتلة، صار اسمهم عرب 48، أمّا نحن السوريون، فقد أصبح اسم الّذين رحلوا وتشردوا عرب2011، سمعتُ الكثير يتداولُ الاسم، ولا أعلم أتطول هذه التسمية أم ستنتهي قريباً.

يقع الكاتب أحياناً في مصيدة الشرك بمبادئه، فيُجبر نفسه على إخفاء حقيقة ما أو تحريفها، ليس جهلاً بها وإنما حفاظاً على نفسه من لقب الكاذب أو المبالغ. ففي وطني مثلاً، إن أراد كاتب أن يكتب الحقيقة، ستنهال عليه سيوف الشك من كل جانب، وتبدأ الأيادي بتكسير أقلامه حفاظاً على الهيبة الوطنية، فنقوم بتحريف بعض الحقائق ليس حباً بالوطن وإنما خشية بطشه. يطلبون منا أن نكتب العدل ويتجاهلون أن إقامته أجدى من إقامة الحرب.
يأمروننا أن ننشر الشبع ويتجاهلون أن محاربة الفقر أغنى من محاربة الإرهاب.
يأمروننا أن نرسم ابتسامة على وجوهنا بعد أن شلعوا شفاهنا، وأن نتجاهل ماتورثناه من خوف في العهود القديمة، أو نصمت.
يريدون منا أن نكون أسماكاً تبتلع الطعم إن فتحت فمها ويصطاونا بالشبك، يقولون اكتب ماتشاء لا سلطة عليك اليوم ولكن سنكسر يدك.

ISBN 978-625-8189-11-7
9 786258 189117

مكتبة الرموز العربية
00905369183293
بورصة - تركيا

Designed by
@6Y4